حرب الجواسيس

روايات مصرية للجيب

سلسلة الأعداد الخاصة



د. نبيل فاروق

وسقطت كل الرءوس !

وسقطت كل الرءوس

فى يونيو 1955م أنشئت المخابرات المصرية ......

ومنذ اللحظة الأولى بدأت عملها ......

وصراعاتها ......

وانتصاراتها ......

وفى هذه المجموعة المحدودة ، التى تشرفت بنشرها على حلقات ، فى مجلة الشباب ، المصرية ، عدد قليل من عمليات المخابرات العامة المصرية ......

مجموعة ، ما زالت تبث فى نفسى شعورًا خاصًا للغاية ......

شعورًا بأننى مصرى ......

وبأننى شديد الفخر بمصريتى ......

إلى الأبد ......

وأنه مع مخابرات وطنى ، سقطت كل رءوس العدو ......

كل الرءوس .

د. نبيل فاروق

الاختيـــار!..

التقطت (نادية) نفسًا عميقًا ، وتألقت فى عينيها فرحة الانتصـار ، وهى تحصى أرباحها فى ذلك اليوم ، من أيام عام 1970م ، ثم رفعت عينيها إلى أمها ، وهتفت فى حماس :

ـ الآن يمكننى شراء سيارة .

ولم تكن (نادية) واحدة من النساء اللاتى اقتحمـن عـالم الأعمال والتجارة فى تلك الفترة ، وإنما كـانت محررة بالقطعة ، فى إحدى الصحف القومية ، يعتمد عملها على اللهاث خلـف الأخبار ، وجمع المعلومات ، وكتابة الموضوعات ، ثم تتقـاضى أجرًا زهيدًا ، مقابل ما ينشر من كل هذا ، دون أن تكـون موظفـة رسمية فى الصحيفة ، ودون أن تمتلك الحق فى حمل بطاقـة صحفية ، أو تسجيل اسمها فى نقابة الصحفيين ..

ولكنها كانت كتلة من النشاط والطموح ..

لقد وزعت عملها ما بين الصحف والمجلات والإعلانات ، وراحت تقطع شوارع (القاهرة) بحثًا عن خبر ، أو معلومة ، أو إعلان ..

وأخيرًا أصبحت تمتلك عدة مئـات من الجنيهـات ، تمكنها مـن تحقيق حلمها الأبدى ، فى امتلاك سيارة خاصة ..

وفى طيبة وحنان ، سألتها أمها :

ـ وهل تعرفين شيئًا عن موضوع السيارات هذا ؟

أجابتها (نادية) : كلاً ، ولكن الأستاذ (صالح) يعرف الكثير .

وكان (صالح) هذا شخصًا معروفًا فـى تلك الفترة ، بالنسبة لأولئك الذين يحلمون بامتلاك واحـدة مـن السيارات المستعملة ، التى تتكدس فـى موانـئ (أوروبـا) ، فقد ساعد العديدين على شراء سيارات أنيقة ، تبدو فى جودة استعمالها أشبه بالجديدة ، وعرف طريق السـفر إلـى (أوروبـا) ، والـذى كـان بـدوره حلمًا للعديدين ، فى أوائل السبعينات ..

وعندما التقت (نادية) مع (صالح) ، قالت فى لهفة :

ـ أنا صحفية فى جريدة (.....) وأريد شراء سيارة .

ومع زجاجـة المياه الغازيـة ، التى قدمها لهـا ، دارت بينهمـا دردشة قصيرة ، تحوى بعض الأسئلة بريئة المظهر ، حول عمـل (نادية) وأسماء رؤسائها ، وعلاقاتها ، ومعارفها ، ومدى قربها من بعض المسئولين ، ثم استرخى (صالح) فى مقعده ، وحملـت ابتسامته الكثير من الارتياح ، وهو يقول :

ـ لو أردت رأيى بصراحة وصدق ، فأفضل مـا تفعلينـه هـو أن تسافرى بنفسك إلـى (رومـا) ، وهنـاك أعنك بالحصـول علـى سيارة رائعة .

ووافقت (نادية) على الفور ..

وفى الطائرة ، التى أقلتهما إلى (روما) ، انتقل الحديث بين (صالح) و(نادية) إلى الجيش ، والنكسة ، و(إسرائيل) ، وراح (صالح) يشعل فى أعماقها نقاط الألم والضعف ، فى تلك الفترة التى تلت هزيمة 1967م ، حتى أدرك أن الفريسة قد استوت ، وأصبحت جاهزة لبدء اللعبة ..

وفى (روما) ، أصبح (صالح) هو المسئول عن كل شىء ، فقد أسلمته (نادية) قيادتها تمامًا ، كما سلمته من قبل كل مدخراتها فى (القاهرة) ..

وكما يحدث فى الأفلام ، أو قل فى الأحلام ، وجدت (نادية) نفسها فى حجرة فاخرة ، فى فندق عالمى ، من فنادق النجوم الخمسة ، فاغتسلت ، وارتدت ثوبًا مناسبة ، ثم غرقت فى شوارع (روما) بكيانها كله ..

وعندما عادت إلى الفندق ، كانت تحلق فى عالم من الأحلام الجميلة الوردية الناعمة ..

وفى اليوم التالى ، جاء (صالح) ليكمل الحلم ، فاصطحبها إلى حيث ابتاعت سيارة فارهة أنيقة لامعة .

وفى الفندق ، استقبلوها بشكل مختلف ، وهى تهبط من السيارة الفاخرة ، وأسرع الحارس يفتح لها باب السيارة ، وباب الفندق ، وهى تخطو إلى البهو كأميرة فرعونية ، وخلفها (صالح) يبتسم ابتسامة واسعة ..

وفى البهو الأنيق ، تلاشت سعادتها بعض الشىء وهى تسأله فى قلق :

- ولكن هناك مشكلة .

ثمن السيارة استنفد كل النقود ، وهناك أجر الفندق ، ومصاريف الشحن ، و ... قاطعها مبتسمًا :

- لا تجعلى كل هذا يقلقك .

كانت عبارة مفتوحة ، لا تحمل أية وعود أو التزامات ، ولكنها كانت تكفى فى مثل ظروفها ، خاصة وأن (صالح) قد دعاها لتناول الغداء فى مطعم فاخر ، اصطحبها إليه فى سيارتها ..

وشعرت (نادية) بشىء من الاطمئنان ، فمن المؤكد أن (صالح) يعرف الوضع ، وسيتولى كل شىء بنفسه ..

ولكن (صالح) أوصلها إلى الفندق ، ووعدها بمقابلتها فى اليوم التالى ، و ...

واختفى ..

لم يعد فى اليوم التالى ، أو الثالث ، أو الرابع .

لقد غاب أسبوعًا كاملاً ..

وكانت (نادية) تُجَن ..

لقد تركها (صالح) فى فندق فاخر، ولكنها كانت ترتجف رعبًا طوال الليل والنهار، ولا يغمض لها جفن، وهى تتساءل: كيف ستدفع أجرة الفندق ؟.. بل كيف تعود إلى (القاهرة) ؟

وأصبحت تشعر بتوتر لا حدود له، وهى تدخل الفندق أو تخرج منه، وتتصور أن جميع العاملين فيه يرمقونها بنظرة اتهام، ويعلمون أنها لا تملك شروى نقير، بل وينتظرون اللحظة المناسبة للانقضاض عليها، ومطالبتها بالأجر المطلوب، ثم تسليمها للشرطة الإيطالية، عندما تعجز عن دفعه..

ودارت فى ذهنها عشرات الخواطر والاحتمالات، عن سر غياب (صالح)، دون أن يتطرق فكرها إلى الحقيقة المخيفة..

حقيقة أن (صالح) هذا جاسوس لجهاز (الموساد)..

جاسوس من طراز خاص، يطلق عليه اسم (القراز)، تقتصر مهمته على اختيار الفريسة وتجهيزها، بحيث تصبح مؤهلة للتجنيد..

وحقيقة أن كل ما حدث، لم يكن سوى خطة نمطية، للضغط على مواطن الخوف والضعف فى نفسها، حتى تنهار، ويتم تجنيدها بسهولة ويسر..

وبعد أسبوع كامل، ارتفع رنين جرس الهاتف فى حجرتها، فاختطفت سماعته فى لهفة، ولم تكد تضعها على أذنها، حتى سمعت صوته يقول فى هدوء:

- أنا (صالح).

خفق قلبها فى عنف، وهى تهتف:

- أستاذ (صالح).. أين كنت ؟.. لقد كدت..

لم تستطع إتمام عبارتها، ومنعها الخجل من الاعتراف بأنها كانت تجن فزعًا، ولكن (صالح) قال فى هدوء:

- أنا أعتذر.. لقد أخرتنى بعض الأعمال المهمة.. سأراكِ صباح الغد.

أنهت المحادثة وهى تتنفس الصُعداء، وتشعر بأن الأمور ليست سيئة إلى الحد الذى تتصوره، وأن (صالح) سيأتى وتنتهى كل المشكلات..

وأتى (صالح) بالفعل، وأخبرها بأن السيارة قد تم شحنها إلى (القاهرة)، وحساب الفندق مدفوع، وكل شىء على ما يرام، ثم اصطحبها إلى المطعم الفاخر، وراح يحدثها عن حياته وصفقاته، وعالم المال والأعمال، والثراء..

وفى بساطة بدت لها تلقائية، شاركهما صاحب المائدة المجاورة حديثهما، ثم لم يلبث أن انتقل لمشاركتهما مائدتهما، واندمج معهما فى حديث المال، ولم تكد (نادية) تشير إلى أنها صحفية مصرية، حتى تهللت أسارير الرجل وقال فى حماس:

ـ آه .. إننى أفكر منذ فترة فى افتتاح فرع لشركتى فى (مصر) ، وأبحث عن شخص موضع ثقة ، ليكون مندوبًا لى هناك .

قال عبارته ، وامتد الحديث تلقائيًا حول (مصر) والحرب ، وحالتها الاقتصادية .

وفى نهاية الحديث ، طلب منها الرجل ، أو عرض عليها ، أن تكون مندوبة لشركته فى (مصر) ، ثم منحها فرصة للتفكير ، على أن يلتقى بها فى اليوم التالى .. وفى طريق العودة إلى الفندق ، سألت (صالح) :

ـ ما رأيك ؟

أجاب فى حماس :

ـ فرصة نادرة .. أنت محظوظة بحق .. هذه الشركات تتعامل بملايين الدولارات .

وفى اليوم التالى ، ذهبت (نادية) وحدها إلى المطعم ، ولم يحضر (صالح) ، ولكن رجل الأعمال لم يهتم كثيرًا لعدم حضوره ، وإنما استقبل (نادية) فى حرارة ، وراح يشرح لها مشروعه ، ويتحدث بأرقام مدهشة ، ذات ستة أصفار ، ثم ذكر أمر حصول (نادية) على نسبة مئوية ، بالإضافة إلى مرتب ثابت ، جعل رأسها يدور ويدور ، حتى إنها لم تعد تهتم بغياب (صالح) ، إلا أنها لم

تكد تلتقى به فى المساء ، حتى قصت عليه الأمر كله فى حماس ، فابتسم قائلاً :

ـ ألم أقل لك : إنك محظوظة ؟

وكان هذا آخر عهدها به ..

لقد اختفى من حياتها تمامًا ، طوال الفترة المتبقية فى (روما) ، بعد أن انتهت مهمته كفراز ، وبدأت مهمة رجل الأعمال الزائف الذى تحدث لقاءاته مع (نادية) ، وراح يضع أمامها المشروع بكل دقائقه ، ثم قال :

ـ كل شىء جاهز للتنفيذ ، ولكن...

ـ ولكن ماذا ؟

تطلع إليها صامتًا لحظات ، ثم قال :

ـ أنت تعلمين أن رأس المال حذر ، لا يخطو خطوة ، قبل أن يطمئن إلى موضع قدميه ؛ ولهذا فالأفضل أن يبقى الأمر سرًّا بيننا ، حتى أحصل على الضمانات اللازمة .

ـ فليكن .. هذا من حقك .

ابتسم وهو يقول :

ـ هذا ليس كل شىء .. هناك أيضًا الحالة الاقتصادية فى (مصر) .. هل تسمح ببدء مشروع كهذا ؟.. وماذا عن الحرب ؟.. هل تفكر (مصر) فى دخول الحرب ، أم إن الأمور قد استقرت هناك ؟

تطلعت إليه (نادية) فى صمت ، فقال :

- باختصار .. أريد استغلال موقعك كصحفية ، فمهنتك هى البحث عن الأخبار .. أخبار الاقتصاد ، والجيش ، و ... أنت تعرفين هذه الأمور ، التى تلزم معرفتها ، قبل بدء مشروع سيتكلف عشرات الملايين من الدولارات .. أليس كذلك ؟

وافترقا فى هذه المرة وقد حدد لها رجل الأعمال راتبًا ضخمًا ، ومنحها مبلغًا كبيرًا كعربون ، ووعدها بأن يلتقيا مرة أخرى فى (القاهرة) ، لدراسة المشروع ، ومعرفة ما لديها من أخبار ومعلومات ..

وعادت (نادية) إلى (... القاهرة) ..

عادت وهى تحمل بضع عشرات من الدولارات ، وفرصة عمل ضخمة ، وبوليصة شحن السيارة ، و...

والكثير من الشك ..

وكان على هذا الشك أن يحسم مشكلة بالغة الأهمية والخطورة ، فى حياة كل إنسان .

مشكلة الاختيار ..

هل تقبل هذا العمل ، بكل ما يحيط به من شكوك ، وتحصل

على الأرباح الطائلة ، والثروة ، والحياة المستقرة الناعمة ، أم تعود مرة أخرى إلى الأعمال غير المنتظمة ، والحياة المتقلبة ، واللهاث خلف الأخبار والموضوعات ؟

ولم تستغرق (نادية) طويلاً ..

لقد انطلقت بسيارتها على الفور إلى مبنى المخابرات العامة ، وقالت لحارس المبنى فى حزم وحسم :

- أريد مقابلة أحد المسئولين .

ولم تمض دقائق معدودة ، حتى كانت (نادية) تجلس فى مكتب ضابط مخابرات مصرى شاب ، أصر على دعوتها لتناول كوب من عصير الليمون الطازج ، قبل أن يسألها :

- ماذا لديك يا آنسة (نادية) ؟

- شكوك .. مجرد شكوك .

شبك أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يقول فى هدوء :

- فليكن .. دعينا نستمع إليها ..

وكأنما كانت (نادية) تنتظر هذا المطلب .. لقد انطلقت تروى ما لديها فى سرعة واضطراب .

ولم يقاطعها ضابط المخابرات الشاب مرة واحدة ..

لقد تركها تفرغ كل ما لديها قبل أن يقول فى هدوء أدهشها :

- إنها ليست مجرد شكوك يا آنسة (نادية) .. إنها معلومات مهمة .. بل بالغة الأهمية .

وبعد شهر واحد من هذا اللقاء ، اتصل رجل الأعمال الإيطالى بـ(نادية) ، وأخبرها بأنه سيصل إلى (القاهرة) فى موعد حدده لها ، لاستكمال دراسة المشروع ، فأخبرته هى بأن لديها كمية لا بأس بها من المعلومات المهمة ..

وحضر الرجل فى موعده .. وأعطته (نادية) المعلومات ، وحصلت منه على دفعة جديدة من الدولارات الأمريكية ، وتركته يسافر سعيدًا واثقًا ، وانطلقت هى لتبلغ ضابط المخابرات المصرى عن تفاصيل ما حدث ..

وعندما استنفد رجال المخابرات كل ما يريدونه ، وتلاعبوا برجل الأعمال كما يحلو لهم ، جاءت الأوامر بإنهاء العملية ..

وسقط رجل الأعمال الزائف ، فى أول رحلة بعدها إلى (القاهرة) ..

وسقط (صالح) متلبسًا ..

وعندما صدر الحكم بإعدامه ، غمغم (صالح) فى انهيار :

- أنت يا (نادية) ؟.. من كان يتوقع منك هذا ؟

ولم تبال (نادية) بعبارته ..

لقد عادت تقطع القاهرة بحثًا عن أخبار وموضوعات جديدة ، ولكن بعد أن أصبحت صحفية رسمية ، تحصل على مرتب منتظم من الجريدة ..

وكانت هى التى نشرت خبر الحكم بإعدام (صالح) ، وهى تشعر بارتياح شديد ، فقد أحسنت العمل ..

وأحسنت الاختيار .

* * *

الخدعة الكبرى ..

لم تكد الطائرة القادمة من (القاهرة) تهبط فى مطار الخرطوم ، فى ذلك اليوم من أيام عام 1959م ، حتى اتجهت إليها مباشرة سيارة رسمية ، تحمل أحد رجال الأمن السودانيين ، ووقف سائقها يراقب الهابطين من الطائرة فى اهتمام . حتى سمع رجل الأمن السودانى من خلفه يقول :

- ها هو ذا .

كان يشير إلى شاب وسيم ، عريض المنكبين ، ظهر عند باب الطائرة ، وهو يقبض فى إحكام وقوة ، على كتف رجل أسمر ، بدت ملامحه صورة مجسمة للخزى والعار ، وبسرعة أحاط اثنان من رجال الأمن السودانيين بالرجل الأسمر ، وأحاطا معصميه بالأغلال ، فى حين خلع الشاب الوسيم منظاره الداكن ، وصافح رجل الأمن السودانى الكبير فى هدوء ، وهو يقدم نفسه قائلاً :

- (أكرم ...) .. من المخابرات المصرية .

ابتسم رجل الأمن السودانى قائلاً :

- مرحبًا بك فى السودان الشقيق .. كنا فى انتظار وصولك ، مع هذا الخائن .

حملتهما السيارة الرسمية إلى خارج المطار ، وهما يناقشان أمر ذلك الجاسوس (عباس جمال الدين) ، الضابط السودانى السابق ، الذى جنده عضو البرلمان الأريترى (عثمان إبراهيم العجيل) للعمل لحساب (إسرائيل) ، والذى ألقت المخابرات المصرية القبض عليه فى (القاهرة) .

وفى اهتمام واضح جلىّ ، كان الضابط المصرى يقول لنظيره السودانى :

- صحيح أن هذا الجاسوس نجح فى تجنيد ستة آخرين للعمل معه لحساب (الموساد) ، إلا أننا لا نعتبر إلقاء القبض عليه غاية فى حد ذاته ، بل يهمنا أكثر ما أدلى به ، من أنه قد تلقى تدريباته فى (أسمرة) بالحبشة ، فهذا يؤكد بعض المعلومات والشكوك لدينا ، فى أن الإسرائيليين قد نقلوا مركز عملياتهم الخاصة بالقاهرة إلى (أسمرة) ..

سأله الضابط السودانى :

- إنها معلومة عظيمة الأهمية بالفعل ، ولكن كيف يمكنكم الاستفادة منها ؟

صمت الضابط المصرى لحظات ، ثم أجاب :

- هذا يمنحنا نقطة تفوق ، بحيث يمكننا التوصل إلى قلب الإسرائيليين .

سأله السودانى فى قلق :

ـ أتظنون هذا سهلاً ؟!

ابتسم رجل المخابرات المصرى ، وهو يقول :

ـ كلاً بالطبع .. هذا الأمر يحتاج إلى خدعة .. خدعة كبرى .

* * *

فى دكان خردوات صغير ، فى شارع الجمهورية بالخرطوم ، نهض صاحب الدكان اليهودى (إبراهيم منشة) ، يستقبل صديقه (إسماعيل عباس صبرى) ، الشاب السودانى ، المصرى الأم ، الذى يعمل فى سلاح المهندسين بالخرطوم .. كان (منشة) يبذل قصارى جهده ، منذ عدة أشهر ، لتوطيد علاقته بذلك الشاب السودانى ، الذى بدا له مثاليًا ، للعمل لحساب (الموساد) ، فهو رزين ، كتوم ، حريص .. وفى اليوم السابق بالتحديد ، تلقى (منشة) تعليمات من مركز التجسس فى (أسمرة) ، بمصارحة (إسماعيل) بالأمر ، وعرض أمر تجنيده بصورة مباشرة ..

وهذا ما فعله (منشة) ..

لقد طلب من (إسماعيل صبرى) مباشرة العمل لحساب (الموساد) ..

ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلاً ، حتى أعلن (إسماعيل) موافقته على العمل لحساب المخابرات الإسرائيلية ، مقابل ثلاثين جنيهًا إسترلينيًا فى الشهر .. وتلقى (إسماعيل) الجنيهات الثلاثين ، طوال عام كامل ، دون أن تطالبه المخابرات الإسرائيلية بعمل واحد ، أو تسند إليه مهمة واحدة ..

ثم فجأة ، طلبوا حضوره على الفور إلى (أسمرة) ..

ولم يكد (إسماعيل) يصل إلى هناك ، حتى اصطحبه مندوب المخابرات الإسرائيلية مباشرة إلى بنسيون (كاليتيا) ، حيث سلمه لمندوب آخر ، يحمل اسم (يوسف) ، ألقى عليه عشرات الأسئلة ، واستمع إلى أجوبته بكل صبر واهتمام ، ثم مال نحوه قائلاً :

ـ إنك ستكون رجلنا فى (القاهرة) .

وفى صباح اليوم التالى مباشرة ، تم نقل (إسماعيل) سرًا إلى فندق (فيكتوريا) ، فى شارع (هيلاسلاسى) ، حيث تسلمه مندوب آخر ، يحمل اسم (ليون) ، وبدأ معه برنامجًا تدريبيًا شاقًا ومكثفًا ، استغرق أسبوعين فحسب ، تعلم (إسماعيل) خلاله التصوير والتحميض ، وإخفاء الأفلام ، والكتابة بالشفرة .

وفى نهاية فترة التدريب ، حصل (إسماعيل) على مائتى دولار

أثيوبى ، مع أمر بالعودة إلى (الخرطوم) . وقبيل سفره مباشرة ، التقى بالمندوب (يوسف) ، الذى قال له بلهجة آمرة حازمة :

- بمجرد وصولك إلى (الخرطوم) ، سيكون عليك أن تنفذ ثلاث خطوات .. أن تستقيل من عملك ، وتتسلم أدوات التصوير من (إبراهيم منشة) ، ثم تبدأ اتصالاتك بنا ، عن طريق خطابات عادية ، ولكنها مكتوبة بالشفرة .

استمع إليه (إسماعيل) فى استسلام تام ، وأعلن طاعته للأوامر ، ولم يكد يصل بالفعل إلى (الخرطوم) ، حتى استقال من عمله ، وبدأ اتصالاته ، ولكنه لم يتسلم أدوات التصوير ؛ لأن (إبراهيم منشة) غادر (الخرطوم) نهائيًا ..

ومرة أخرى ، طلب الإسرائيليون من (إسماعيل) الحضور إلى (أسمرة) ..

وفى هذه المرة ، تلقى (إسماعيل) تدريبات أكثر قوة ، تضمنت هذه المرة استقبال إشارات (مورس) اللاسلكية ..

وبعد أسبوعين آخرين ، استقبله المندوب (يوسف) بابتسامة واسعة ، وقال:

- أهنئك يا بطل .. لقد أصبحت جاهزًا للعمل معنا ، وستحصل على راتب شهرى قدره مائة جنيه إسترلينى .

هتف (إسماعيل) فى دهشة :

- مائة جنيه إسترلينى دفعة واحدة ؟!

أجابه (يوسف) فى صرامة .

- ولكنْ أمامك عمل شاق .

- ستسافر إلى (القاهرة) فى ديسمبر 1960 م ..

أى فى نهاية هذا العام ، وهناك حاول أن تبحث عن عمل ، يبرر إقامتك بصفة دائمة فى (القاهرة) ، وبعدها عليك أن تستأجر شقة مفروشة ، وتعد فيها حجرة للتصوير ، ثم تبدأ العملية الكبرى .

مال (إسماعيل) نحوه ، قائلاً :

- العملية الكبرى ؟!.. وما هى بالضبط ؟

صمت (يوسف) لحظات ، ليمنح كلماته تأثيرًا قويًا ، وهو يجيب :

- ستعمل على تجنيد ضابط فى سلاح الطيران المصرى

شهق (إسماعيل) فى دهشة ، ولكنه لم يعترض . وسافر (إسماعيل) إلى (القاهرة) ..

وسار كل شىء على ما يرام .

لقد وجد (إسماعيل) العمل ، واستأجر الشقة ، وأعد قسم التصوير ..

بل ـ وهذا أخطر ما في الأمر ـ نجح فى تجنيد ضابط سلاح الطيران المصرى ..

وفى هذه المرة ، استدعى رجال (الموساد) (إسماعيل) إلى (أسمرة) ، على وجه السرعة ، وهناك استقبله (يوسف) .

ـ لقد نجحت بشكل لم يسبق له مثيل يا (إسماعيل) ، حتى إنك أثرت دهشتنا .

بدأ شبح ابتسامة يرتسم على شفتىْ (إسماعيل) ، عندما أضاف (يوسف) فى صرامة: وشكوكنا!

ولم تكن هذه الكلمة الأخيرة مجرد حروف بسيطة ..

بل كانت الجحيم عينه ..

لقد قضى (إسماعيل) ما يقرب من ست ساعات ، فى حجرة مغلقة ، مع ثلاثة من المحققين ، راحوا يمطرونه بالأسئلة ، ويطالبونه بإجابات سريعة ، ويحاصرونه بنظرات الشك والريبة ..

وفى النهاية استقبله (يوسف) مرة أخرى ، وهو يقول فى صوت يحمل رنة اعتذار مستترة :

ـ أظنك تستطيع استيعاب دورة تدريبية جديدة

كان هذا اعترافًا منه بنجاح (إسماعيل) ، فى هذا الاستجواب الشاق ، وإيذانًا ببدء مرحلة جديدة تلقى خلالها (إسماعيل) ، تدريبات مكثفة ، على الإرسال والاستقبال اللاسلكى ، وعلى تمييز كل أنواع الأسلحة والطائرات ، وكيفية التعامل مع ضابط سلاح الطيران المصرى الذى جنده .

وفى (القاهرة) ، بدأت رسائل واتصالات (إسماعيل صبرى) تنهال على (تل أبيب) ، بريديًا ولاسلكيًا ، حاملة سيلاً من المعلومات ، سال لها لعاب الإسرائيليين ، واتسعت لها عيونهم فى دهشة وانبهار ، بذلك الجاسوس الرهيب ، ثم فجأة ، وصلت رسالة عجيبة إلى منزل (إسماعيل) فى (القاهرة) ..

رسالة يطالبه فيها الإسرائيليون بالسفر فورًا إلى الحبشة بطريق البر ، وبدون جواز سفر ..

وشعر (إسماعيل) بقلق حقيقى ، فهم يطالبونه دائمًا بالسفر بالطائرة ، مما جعله يشك فى أنهم يدبرون له أمرًا ما ..

ولكن شكوكه لم تكن فى محلها ..

لقد ثبت له أن كل ما طلبه الإسرائيليون ليس سوى إجراء أمنى من جانبهم ؛ نظرًا لأنهم قرروا منحه دورة تدريبية جديدة ..

وبعد عشرة أيام ، أصبح (إسماعيل) بالفعل جاسوسًا لا يشق له غبار .. لقد تلقى تدريبات دقيقة لرفع مستواه ، فى سرعة الإرسال والاستقبال لاسلكيًا ، وكيفية التصوير وإخفاء الأفلام ..

وعاد (إسماعيل) إلى (القاهرة) ، ليعاود عمله ونشاطه ، بخبرة أكثر ، وحنكة مدهشة ..

وبلغت ثقة الإسرائيليين به ذروتها ، حتى إنهم قرروا ربطه بواحد من أقوى وأخطر مندوبهم ، فى أوروبا كلها ..

هو (هوثير غيستر فراولد فرانزسكنز) ..

هذا هو اسم مندوبهم الألمانى البرىء المظهر ، الطالب الجامعى ، الذى اعتبروه طوال عدة سنوات أقوى وأخطر رجال شبكتهم الأوروبية .. و(فروالد) هذا كان شابًا عاديًا ، يدرس اللغات الشرقية ، وتوطدت علاقته بمدرس اللغة العبرية اليهودى ، الذى شجعه على الالتحاق بمعسكر شباب الجالية اليهودية فى مدينة (كولون) ، وهناك عينوه قائدا لمجموعة من الفتيان اليهود .. وبعد أشهر ، صحبه المدرس نفسه إلى (إسرائيل) ، على نفقة الجالية اليهودية فى (كولون) ، وهناك التقى بعدد من أقارب المدرس ، ومن بينهم شخص قدم نفسه باسم (باروخ باردن) ..

وفى العام التالى ، حصل (فروالد) على منحة لدراسة اللغة العربية

فى جامعة (القدس) ، حيث قضى هناك تسعة أشهر ، وبعدها عاد إلى (كولون) ، عبر (مصر) و(تونس) .. وفى (ألمانيا) ، التقى (فروالد) مرة أخرى مع (باروخ) ، الذى طلب منه كل الصور ، التى التقطها أثناء رحلته فى (تونس) و(مصر) ..

وعلى الرغم من دهشة (فروالد) ، إلا أنه منحه كل الصور ، فاحتفظ بها بعض الوقت ثم أعادها إليه ، وهو يرسم على شفتيه ابتسامة كبيرة ، قائلاً :

- ها هى ذى الصور .. لقد طلبها أصدقائى ، وراقت لهم جدًا .

سأله (فروالد) :

- وهل هؤلاء الأصدقاء يجيدون التصوير ؟

أجابه (باروخ) :

- بل يمتهنون مهنة أكثر أهمية .

وتطلع إلى عينيه مباشرة ، قبل أن يضيف :

- إنهم رجال المخابرات الإسرائيلية .

بهت (فروالد) لحظة ، ثم قال :

- إنه شأنك على أية حال .

ـ ومن الممكن أن يكون شأنك أيضًا ، لو أن ما أعرضه عليك يروق لك ..

نريدك أن تعمل لحسابنا .. نريدك جاسوسًا لنا فى (القاهرة) .

وبدت الفكرة مثيرة بالنسبة للألمانى ، الذى تلقى بدوره تدريبات على استخدام اللاسلكى ، والشفرة ، ثم أرسلوه إلى (بروكسل) ، استعدادًا للسفر إلى (القاهرة) ، وأعطوه حقيبة خاصة بها جيب سرى ، وطلبوا منه أن يحضر بعض الوثائق المهمة من رجلهم فى (القاهرة) ..

وكان هذا الرجل هو (إسماعيل صبرى) ..

وسافر (فروالد) بالفعل إلى (القاهرة) ، وأقام فى فندق (كليوباترا) بميدان التحرير . وبعد ساعات ، استقل واحدة من سيارات الأجرة ، وانطلق بها إلى (مصر الجديدة) ، مع خريطة أعطاه إياها (باروخ) ، لتحديد منزل (إسماعيل) ..

وفى الثالثة عصرًا ، التقى (إسماعيل) و(فروالد) ، فى شقة الأول ، وتبادل كل منهما حديثًا قصيرًا مع الآخر .

كان (فروالد) يعلم أن الواقف أمامه هو رجل إسرائيل الأول فى (القاهرة) ، فى حين يدرك (إسماعيل) جيدًا ، أن هذا الألمانى الجامعى الشاب ، هو صورة لما تمارسه معسكرات الشباب اليهودى فى (ألمانيا) ..

وفى هدوء ، وبكلمات قليلة موجزة ، قدم (فروالد) نفسه ، وحصل من (إسماعيل) على الوثائق والمستندات المهمة وأخفاها فى جيب حقيبته السرى ، ثم غادر شقة (إسماعيل) فى هدوء وثقة ..

ولم يكد (فروالد) يبتعد عن شقة (إسماعيل) بضعة أمتار ، حتى استوقفه شاب مصرى وسيم ، سأله بلغة ألمانية صحيحة :

ـ أنت (هوثير غيستر فروالد) .. أليس كذلك ؟

شعر (فروالد) بدهشة بالغة ، وهو يحدق فى وجه الشاب ، الذى استطرد بابتسامة كبيرة وثقة :

ـ أنا (أكرم ...) من المخابرات المصرية .

انتفض جسد (فروالد) فى عنف ، وندت منه حركة ، توحى بأنه سيعدو هاربًا ، إلا أن رجال المخابرات المصرية أحاطوا به .

وفى مبنى المخابرات العامة المصرية ، أدلى (فروالد) باعتراف تفصيلى ، حمل تفاصيل تجنيد الشباب الألمانى فى معسكرات اليهود ..

وكانت ضربة رائعة للمخابرات المصرية ..

ولكن ماذا عن (إسماعيل صبرى) ؟..

الواقع أنه فى نفس اللحظة ، التى كان (فروالد) ينهى فيها اعترافاته

التفصيلية ، بعد ثلاثة أيام كاملة من إلقاء القبض عليه ، كان (إسماعيل صبرى) يجلس فى مكتب (أكرم) ، فى مبنى المخابرات المصرية ، وهو يرسل رسالة لاسلكية مباشرة إلى (تل أبيب) ، التى كانت أول رسالة يقوم (إسماعيل صبرى) بإرسالها ، منذ انقطاع أخبار (فرواند) ، و(إسماعيل) ..

وكانت كلمات الرسالة الموجزة تقول :

ـ شكرًا لما لقيناه منكم ، من تعاون مثمر ، خلال السنوات الأربع الماضية ، ولكل ما قدمتموه لنا من خدمات ، طوال هذه الفترة ، عن طريق رجلنا (إسماعيل صبرى) ، وإلى اللقاء فى عمليات قادمة ..

كان (إسماعيل صبرى) يرسل هذه الرسالة الأخيرة ، وهو يتبادل نظرة ظافرة مع (أكرم) ، الذى ارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة ، تحمل الكثير من الارتياح والزهو والنصر والسخرية .. فطوال أربع سنوات ، وستمائة رسالة لاسلكية ، وخمسة عشر خطابًا بالشفرة ، لم يكن الإسرائيليون يدركون أن المصريين هم أصحاب اللعبة منذ البداية ..

وأن (إسماعيل صبرى) يعمل لحساب (مصر) ، لا لحساب (إسرائيل) ..

لقد خسر (الموساد) اللعبة ، ونجحت (مصر) فى إعداد وتنفيذ خطتها ..

* * *

الخطـــــة ..

ارتفعت درجات الحرارة فى ذلك اليوم ، فى صيف عام 1960 م ، على نحو تجاوز المعدلات المعتادة فى مثل هذه الفترة من العام ، وراح الجميع يتحركون فى شىء من العصبية ، كما يحدث عادة ، مع تلك النوبات الحارة المباغتة ، ولكن ذلك الإحساس بدا مضاعفًا ، بالنسبة لذلك الشاب ، الذى راح يتلفت حوله فى شىء من العصبية ، ويجفف شلالات العرق ، التى تغرق وجهه ، وتتسلل إلى عنقه وصدره ، فتضاعف من قلقه وتوتره .. وهو يقطع ذلك الطريق الهادئ ، خلف القصر الجمهورى ، فى منطقة (حدائق القبة) ، حتى بلغ مبنى حديث التشييد ، تبدو بوابته المزدوجة وكأنها غارقة فى بحر من الصمت والسكون ، أضفى على المكان رهبة أخرى ، ضاعفت من عصبية الشاب ، وهو يقترب من البوابة ، ويقول لحارس الأمن فى صوت مبحوح مضطرب :

ـ أريد مقابلة أحد المسئولين هنا .

كان يتوقع معاملة قاسية صارمة ، لذا فقد أدهشه هذا الأسلوب الشديد التهذيب ، عندما طالبه الحارس ببطاقة هويته ، ثم دعاه للجلوس فى مكان أنيق ، وسأله فى اهتمام ، عما إذا كان يرغب أن يتناول مشروبًا مرطبًا ، فى هذا الجو الحار ، فلما أجاب بالنفى ، استأذنه الحارس فى الغياب دقيقة واحدة ، غاب خلالها فى حجرته الخاصة ، ثم عاد يقول فى هدوء مهذب :

ـ تفضل .. سيستقبلك أحد المسئولين على الفور .

وتلقفه رجل آخر بابتسامة ، وود ، وقطع معه ممرات المبنى الهادئة ، حتى بلغ حجرة أحد الضباط ، فدق بابها ، وفتحه فى هدوء ، ثم أشار للشاب بالدخول ، وأغلق الباب خلفه فى حرص ، وكأنه يخشى تبديد هدوء المكان ..

كان هذا المبنى هو مبنى المخابرات العامة المصرية ، وذلك الذى استقبل الشاب كان أحد ضباط هذا الجهاز الخاص ، ولقد نجح باستقباله الحار فى إزالة الكثير من توتر الشاب وعصبيته ، بعد أن دعاه للجلوس ، وتركه يلتقط أنفاسه ، دون أن يلقى عليه سؤالاً واحداً ، حتى حسم أمره ، وقال فى سرعة ، وكأنما يفرغ حمولته كلها دفعة واحدة :

ـ اسمى (أديب حنا كارلوس) .. ضابط مصرى ، وأنا هنا لأبلغكم بأمر بالغ الأهمية والخطورة .. فأنا أعمل مع .. مع ..

ارتج عليه الأمر ، وراح يردد الكلمة الأخيرة ، دون أن يجد الشجاعة للاستمرار وتطلع إلى ضابط المخابرات المصرى مستنجداً ، إلا أن هذا الأخير ظلّ على صمته ، يتطلع إليه بابتسامة مشجعة ، حتى انحلت عقدة لسان (أديب) ، وهتف :

ـ أعمل مع (الموساد) .

كان يتخيل أن هذا الاعتراف سيجعل ضابط المخابرات يقفز من مكتبه ، ولكنه فوجئ بأن الضابط قد بقى على هدوئه ، وحافظ على ابتسامته ، وهو يقول :

ـ قص علىّ ما لديك يا (أديب) .. وبكل التفاصيل .

وكانت هذه هى اللحظة الحاسمة ..

* * *

اعتمد جهاز المخابرات الإسرائيلى فى السنوات الأولى لثورة يوليو ، على واحد من أخطر رجاله داخل (مصر) ، وهو ضابط الوحدة 131 عمليات خاصة ، (إبراهام دار) ، الشهير باسم (جون دار لنج) ، والذى بذل جهداً كبيراً ، فى عملية ترحيل وتهريب اليهود من (مصر) ، إبان العدوان الثلاثى ، إلا أنه لم يلبث أن سقط ، واحترق ، ولم يعد من الممكن أن يواصل عمله داخل (مصر) مما أدى إلى وجود فجوة كبيرة ، فى شبكة التجسس ، التى يسعى الإسرائيليون لنسج خيوطها فى المنطقة ، وإلى ضرورة البحث عن بديل ، لسد هذه الفجوة ..

ووجد (الموساد) غايته فى (جاك ليون توماس) .

و(جاك) أرمينى ، ولد عام 1932 م فى (القاهرة) ، وتعلم فى مدارسها ، وأتقن العربية والإنجليزية ، والفرنسية والألمانية ، إلى جوار لغته الأصلية الأرمينية ..

ومنذ حداثته ، كان الحلم الأكبر فى حياة (جاك) هو أن يسافر ليعمل ويحيا فى (أوروبا) ، ولم يكد يبلغ الرابعة والعشرين من عمره ، حتى سافر إلى (بيروت) ، وحاول البحث عن عمل جيد فيها ، إلا أنه لم يلبث أن غادرها إلى (كولون) فى (ألمانيا) ، حيث ساعده حظه فى العثور على عمل جيد ، فى شركة للمقاولات ، ارتبط بها لمدة عامين ، وبذل جهداً للترقى فيها ، ولكنه لم يبلغ أبداً المرحلة التى كان يطمح إليها إبان سفره ..

وفى أوائل عام 1958م ، تقابل (جاك) مع شاب لبنانى ، قدم نفسه إليه باسم (إميل) ، وسرعان ما توطدت أواصر الصداقة بينهما مع مرح (إميل) ، وروحه الاجتماعية ، وقدرته المدهشة على جذب انتباه واهتمام الآخرين .

ومع الوقت ، راحت هذه الصداقة تتطور ، وبدأ (إميل) يحيط (جاك) باهتمامه ورعايته ، من الناحيتين النفسية والمادية ، فهو مستمع جيد ، ورفيق سخى كريم ، ينفق بلا حساب ، ويتعامل بلا قيود ..

وذات يوم ، بدأ الحديث بينهما حول اللهو والعبث مع الفتيات ، وجمالهن ، والأساليب المثلى للتعامل معهن ، ثم انتقل دون مقدمات إلى نوع من النقد السياسى ، عندما قال (إميل) ، وهو يسترخى فوق فراش وثير :

ـ لا يمكننى فهم رئيسكم (عبد الناصر) هذا .. ما الذى يريده منكم بالضبط ؟.. هل يريد أن يصبح الجميع فقراء ؟

انعقد حاجبا (جاك) فى شدة ، وهو يقول :

ـ إنه ديكتاتور ، وحاقد على الأغنياء ، وشيوعى مستتر ، و ...

وراح يعلن سخطه فى وضوح ، على نظام الحكم كله ، فى ذلك العهد ، حتى قاطعه (إميل) بغتة ، قائلاً :

ـ ما دمت تكره النظام إلى هذا الحد ، فلم لا تعود إلى (مصر) ، وتعمل على إسقاطه ؟

بهت (جاك) لحظة ، ثم اعتدل ، وسأله فى خبث :

ـ وهل سأفعل هذا من منطلق الكراهية وحدها ؟

أدرك (إميل) ما يرمى إليه (جاك) ، فابتسم قائلاً :

ـ ستكون هناك مكافآت مجزية بالطبع .

ولم يناقشه (جاك) طويلاً ..

لقد وافق فور علمه بوجود مكافآت مادية لمثل هذا العمل ، مما شجع (إميل) على الانتقال معه لمرحلة التدريب مباشرة ، ودون إبطاء ، وبدأ الاثنان يلتقيان فى شقة صغيرة فى مقاطعة

(كولون) الألمانية ، يطلق عليها ، فى لغة المخابرات اسم (المنزل الآمن) حيث تلقى (جاك) تدريبات مكثفة على التصوير ، وإخفاء أفلام (الميكروفيلم) ، وإرسال المعلومات إلى صناديق بريد سرية ، وتمييز الأسلحة العسكرية ، والمنشآت وغيرها من التدريبات ، التى يتلقاها أى جاسوس جديد ..

وعندما اكتملت هذه المرحلة من التدريب ، سأل (جاك) (إميل) لأول مرة :

ـ قل لى يا (إميل) : لحساب من أعمل ؟

ابتسم (إميل) ابتسامة غامضة ، وهو يربت على كتفه ، قائلاً :

ـ لحساب دولة أوروبية ، ولا تشغل نفسك كثيرًا ، بالتفكير فى هذا الأمر .

ولم يلق (جاك) سؤالاً آخر ، وعاد بأمر (إميل) إلى (القاهرة) ، فى يوليو 1958م ، ولم يكد يصل إليها ، حتى بدأ عمله على الفور ، فى جمع المعلومات والبيانات ، وفى دراسة احتمالات تجنيد بعض ضباط الجيش ، مقابل مكافآت شهرية كبيرة ..

وكل عدة أشهر ، كان (جاك) يسافر إلى (ألمانيا) ، ليحصل على مزيد من التدريبات ، ويلتقى بالضابط المسئول عن متابعة حالته ..

وفى واحدة من هذه الزيارات ، التقى (جاك) بفاتنة ألمانية ساحرة ، اسمها (كيتى بندوف) فوقع فى حبها على الفور ، ووقعت هى فى حبه ، وسرعان ما أقنعها بالعمل معه جاسوسة فى (مصر) ، ثم تزوجها ، وعاد بها إلى (القاهرة) ..

وواصل الزوجان عملهما لفترة ، وساعد تعاونهما على إضفاء رونق جديد على العمل ، وتضاعف نشاطهما فى حماس ، أقنع (الموساد) بإخلاصهما ، فأرسلوا يستدعون (جاك) إلى (كولون) فى مايو 1960م ، وهناك التقى برجل جديد ، استقبله بابتسامة باردة ، وصافحه بقبضة قوية ، وهو يقول بلهجة شبه آمرة :

ـ اسمى (جون) ، وأنا المسئول منذ هذه اللحظة ، عن كل ما يخص عملك ، جاسوسًا لدولة (إسرائيل) .

وانتفض (جاك) لحظة ، فقد كانت هذه المرة الأولى ، التى يصارحونه فيها بأنه يعمل لحساب (إسرائيل) مباشرة ، ولكن هذه الانتفاضة لم تستغرق سوى هذه اللحظة ، وبعدها استعاد (جاك) توازنه ، وتمتم :

ـ وهل هناك أوامر جديدة ؟

أجابه الضابط الإسرائيلى :

ـ نعم .. نريدك أن تمدنا بكل المعلومات العسكرية والمدنية الممكنة

عن (مصر) ، كما ينبغى أن تحاول توسيع الشبكة ، عند عودتك إلى (مصر) .. وبالذات وسط صفوف الجيش المصرى .

وكان من الواضح أن معرفته بأنه يعمل لحساب (إسرائيل) ، لم تغير شيئًا من طبيعته ، فلم يكد يعود إلى (القاهرة) هذه المرة ، حتى نشط لتنفيذ الأوامر ، فجمع بعض المعلومات المطلوبة ، ونجح فى تجنيد مصور (أرمينى) إلى الشبكة ، وكذلك الراقصة اليهودية الشهيرة آنذاك (كيتى) بالإضافة إلى محاولته لتجنيد الضابط المسيحى الشاب (أديب حنا كارلوس) .

ولم يعلنه (أديب) باعتراضه ، وإنما وافق على العمل لحساب (الموساد) ، ولكنه اتجه مباشرة إلى المخابرات العامة المصرية .

وكان ما كان ..

* * *

استمع ضابط المخابرات المصرى إلى (أديب حنا) فى اهتمام ، دون أن يقاطعه بحرف واحد ، ثم شبّك أصابع كفيه أمام وجهه ، وابتسم وهو يقول :

ـ أشكر لك كثيرًا موقفك الوطنى هذا يا (أديب) ، وأنا واثق من أنك صادق فى كل ما ذكرته ، وأعتقد أن سفر زوجة (جاك) إلى (أمستردام) ، يرتبط إلى حد ما بهذا الأمر .

اتسعت عينا (أديب) فى دهشة ، وهو يقول :

ـ سفر زوجته ؟!.. ومن أين لكم أن تعلموا شيئًا كهذا ؟.. إننى لم أخبركم به !

ثم تراجع فى حدة ، قبل أن يهتف مستطردًا :

ـ آه .. فهمت .. أنتم تعرفون .

مال الضابط نحوه ، وقال فى سرعة وهدوء :

ـ هذا لا يعنى أننا لا نحتاج إلى تعاونك معنا يا (أديب) ، فهؤلاء الخونة يهددون أمن الوطن ، ونحن نحتاج إلى كل سلاح لمحاربتهم .

رفع (أديب) يده إلى عنقه فى حركة آلية سريعة ، وهو يقول فى حزم صادق :

ـ رقبتى فداء للوطن يا سيادة الضابط ..

وكانت بداية لتعاون جديد ، فى مواجهة الخونة ..

والواقع أن ضابط المخابرات كان على حق فى شكوكه ، فلقد طلب (الموساد) من (جاك) إرسال زوجته إلى (أمستردام) ، لتتلقى بعض التدريبات على جهاز لاسلكى جديد ، يعتمد على شفرة حديثة ، مستقاة من رواية للأديبة (فارل بوك) ، بعنوان (الأرض الطيبة) ..

ونجحت (كيتى) فى تدريباتها ، وعادت إلى (القاهرة) ، وهى تحمل الرواية ، التى أخبأتها فى عناية فى حمام منزلها فى (جاردن سيتى) ، وبدأت تستخدمها فى نقل المعلومات واستقبال الأوامر ..

وبدأ (جاك توماس) يشعر بالزهو والأمن ، وقد بدت له شبكته عظيمة الكيان ، دقيقة التنظيم ، متقنة الأسلوب ..

هذا لأنه لم يكن يدرى أن مفتاح اللعبة لم يعد فى يده كما كان يتصور ، بل صار فى قبضة المخابرات المصرية ، التى سيطرت على الموقف تمامًا ، وراحت تحرك كل الخيوط ، وتمد الشبكة بمعلومات مزيفة خاطئة ، على نحو شديد الإتقان والدقة والتعقيد ..

ولكن لكل شىء نهاية ..

ففى ديسمبر 1960م ، تقرر وضع نهاية لشبكة (جاك ليون توماس) ، وتأهبت المخابرات العامة لإلقاء القبض على الجميع ، و ...

وفجأة ، اختفى (جاك) وزوجته ..

وفى ضيق ، هتف الضابط المسئول عن العملية :

ـ أين ذهبا ؟!.. لقد راجعنا كشوف السفر ، ولم نجد اسميهما فيها !

أجابه زميله فى توتر :

ـ من الواضح أن (جاك) هذا حاد الذكاء ، ولا ريب أنه شعر بشىء ما ، أو راوده الشك فيما يحدث من حوله ، فبادر بالفرار .

لم يكد يتم عبارته ، حتى اقتحم الحجرة زميل آخر ، وهو يقول :

ـ عثرنا على الوسيلة . لقد استخرج (جاك) جوازى سفر مزيفين ، له ولزوجته ، استطاعا بواسطتهما مغادرة البلاد .

قال الضابط المسئول :

ـ إنه يتصور أن هذا قمة الذكاء ، ولكننا سنلقنه درسًا فى عبقرية التعامل ، وسنجعله يبصم على أننا الأكثر براعة .

سأله زميله :

ـ وكيف نفعل هذا ؟

أجابه الضابط :

ـ سندرس الأمر ، وسنجد الوسيلة المناسبة بإذن الله .

وظل ثلاثتهم يدرسون الموقف طيلة الليل ، حتى انتهوا إلى أن أفضل وسيلة هى تجميد الموقف كله ، والتظاهر بأن كل شىء يسير على ما يرام ، دون المساس بأى فرد من أفراد الشبكة ، حتى يستعيد (جاك) ثقته ، وتستقر نفسه ، ويقرر العودة إلى (القاهرة) مطمئنًا ..

وكان ما اتفق أمرهم عليه ..

ولشهر كامل ـ تقريبًا ـ ترك رجال المخابرات المصرية أفراد الشبكة يتحركون في حرية تامة ، حتى اطمأنت قلوب الجميع ، وقال (جاك) لزوجته ساخرًا :

ـ يبدو أننا كنا كمن يقفز فزعًا من ظله ، في حجرة مظلمة .. من الواضح أن هؤلاء المصريين الأغبياء لم يتنبهوا حتى إلى ما نفعله .. إنهم أكثر حماقة مما كنت أتصور ..

سألته (كيتي) في حذر :

ـ هل تعني أننا نستطيع العودة إلى (مصر) ؟

لوّح بذراعه ، وهو يقول في ثقة :

ـ ولم لا؟! .. صدقيني .. كل شيء على ما يرام .

واتفق رأيه هذا مع رأي ضابط (الموساد) المسئول عن العملية كلها ، فاستقل (جاك) و(كيتي) أول طائرة إلى (القاهرة) ، وهما يتبادلان الدعابات والنكات ، ويسخران من حماقة وتفاهة المصريين .

وفي السادس من يناير ، عام 1961 م ، حاصرت المخابرات المصرية حي (جاردن سيتي) كله ، وأطبق رجالها على (جاك) ، واعتقلته مع كل أفراد الشبكة في لحظة واحدة ، ولكن زوجته نجحت في الفرار بقميص نومها ، وأسرعت تتصل بالراقصة (كيتي) ، وتحذرها .

واختفت (كيتي) و(كيتي) ، في حين وقع الجميع في قبضة المخابرات المصرية ..

وأثناء التحقيق معه ، حاول (جاك) أن ينكر كل المنسوب إليه ، ولكن المخابرات المصرية واجهته بفيض من الصور ، والتسجيلات ، وواجهته بالضابط المسيحي (أديب حنا كارلوس) ، ولم يكد (جاك) يراه حتى تجهم وجهه ، وقال :

ـ أنت فطنتها .. هذا هو الخطأ .. لا ينبغي أبدًا أن تثق في مصري ، في حرب مع المصريين .

ومع الاعتراف الكامل ، الذي أدلى به الجميع أصدرت المحكمة العسكرية حكمها على علاء وأفراد الشبكة بالإعدام شنقًا ، بتهمة خيانة الوطن والتخابر مع (إسرائيل) ، وفي العشرين من ديسمبر ، عام 1962م ، تم تنفيذ حكم الإعدام في (جاك ليون توملس) ، واثنين آخرين من أفراد شبكته التجسسية ، وقبل أن يتدلى جسده من حبل المشنقة ، أدرك (جاك) أن الخطأ الفعلي لم يكن في محاولة تجنيد (أديب كارلوس) فحسب ..

لقد كان الخطأ الحقيقي في محاولة العبث بأمن وسلامة (مصر) ، وفي الاستهانة بقدرة وذكاء جهاز المخابرات المصري ..

وهذا أكبر خطأ وقع فيه (جاك) ..

وآخر خطأ .

* * *

الشبكة السوداء ..

ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتى (ريموند نافر) أحد العاملين بمحل (موريس) للتصوير بالإسكندرية ، وهو يدخل إلى مكتب الصادرات ، حاملاً ـ كالمعتاد ـ لفافة صغيرة ، اعتاد حمل مثلها إلى المكتب كل أسبوعين ، حيث تحوى عددًا من الأفلام الملونة ، التى يتم إرسالها إلى الخارج بصفة دورية ، لتحميضها وطبعها هناك ، حيث لم يكن هذا ممكنًا فى (مصر) ، فى تلك الفترة فى الستينات ، وكالمعتاد أيضًا ، راح (ريموند) يوزع ابتساماته على موظفى المكتب ، ويحثهم على الإسراع فى إنهاء إجراءات سفر طرده الصغير ، حتى يمكنه العودة إلى العمل ، وتوقف ليتبادل بعض الدعابات مع مدير المكتب ، عندما سمع من خلفه صوتًا يقول فى هدوء :

ـ أستاذ (ريموند) ، هل تسمح لنا بفحص طردك ؟

شحب وجه (ريموند) ، وخفق قلبه فى عنف ، قبل حتى أن يلتفت إلى صاحب الصوت ، الذى بدا له هادئًا ، صارمًا ، قوى البنية والصوت ، على نحو جعله يجيب فى شىء من الارتباك والاضطراب :

ـ ولكن ما الذى يمكنكم فحصه ؟.. إنها مجرد أفلام ملونة ، و ...

قاطعه صاحب الصوت فى هدوء ، وابتسامة شبه ساخرة تتألق على شفتيه :

ـ يمكننا فحص محتوياتها ..

هتف (ريموند) محذرًا :

ـ إنها أفلام لم يتم تحميضها ، وفحصها قد يتلفها ، وقد ..

قاطعه الرجل مرة أخرى :

ـ اطمئن يا (ريموند) .. سيتم تحميضها هنا ، وبكفاءة تامة .. وسنفعل هذا مجانًا .. ما رأيك ؟

ارتجفت شفتا (ريموند) ، وهوى قلبه بين قدميه ، وحاول أن يعترض ..

ولكنه لم يكن يملك هذا .

وفى حزم . قاده الرجل إلى سيارة سوداء صغيرة ، تقف أمام مكتب الصادرات ، وحملته السيارة مباشرة إلى (القاهرة) ، دون أن يتبادل معه سائقها أو الرجل كلمة واحدة طوال الطريق ، على الرغم من محاولاته معرفة ما يحدث ..

وهناك .. فى (القاهرة) .. وفى مبنى المخابرات العامة بالتحديد ، جلس (ريموند) داخل حجرة خالية ، يفرك كفيه فى عصبية وتوتر ،

ويتساءل : هل يستطيع رجال المخابرات المصرية تحميض وطبع الأفلام الملونة بالفعل ؟ ..

ولم يطل تساؤله ، ففى ذلك الوقت ، كانت المخابرات المصرية قد أقامت قسمًا خاصًا لتحميض وطبع تلك الأفلام ، حيث كن من المستحيل الاعتماد على معمل خاص ، مهما بلغت درجة الثقة فيه ، لتحميض وطبع الصور التى يلتقطها رجال المخابرات ، فى مناسبات مختلفة ..

وأمام الصور المطبوعة ، تضاعف شحوب وجه (ريموند) حتى حاكى وجوه الموتى أو كاد ، ورجل المخابرات المصرى يسأله فى هدوء حازم :

- ما رأيك ؟

اختنق صوت (ريموند) فى حلقه ، وهو يجيب مرتجفًا :

- سأعترف .. سأعترف بكل شيء .. ولكننى لست المسئول الأول عن كل هذا .

سأله رجل المخابرات :

- من المسئول الأول إذن ؟

ازدرد (ريمون) لعابه فى صعوبة ، وأجاب بصوت متحشرج :

- (على) .. (على الفارحى) .

وكان هذا هو الاعتراف ، الذى ينشده رجل المخابرات المصرى بالضبط ..

* * *

(على أحمد الفارحى) .. حبشى الجنسية ، بدأت قصته مع المخابرات الإسرائيلية فى مارس 1959م ، عندما قرأ فى صحيفة (الزمان) ، التى تصدر فى (أسمرة) ، إعلانًا عن وظيفة خالية ، فى واحدة من شركات التأمين على الحياة ، فأسرع يتقدم لشغل الوظيفة ..

وفى شركة التأمين ، استقبله (أبو يوسف إسماعيل) ، الذى ألقى عليه عشرات الأسئلة ، ثم منحه الوظيفة ، ولم يكد (على) يلتحق بها ، حتى أجريت حياله سلسلة من الاختبارات ، فى سرّية تامة ، وراح (أبو يوسف) يمنحه ، بين الحين والآخر عددًا من المبالغ المالية والمكافآت ، بلغت فى مجموعها ثلاثمائة دولار أثيوبى ، إلى أن اطمأن ، إليه تمامًا ، وهنا طلب مقابلته فى مكتبه ، وقال على نحو مباشر :

- لقد أعجبنى عملك هنا يا (على) ، وقررت إرسالك فى مهمة سرية ، لإحدى الدول العربية .. ما رأيك ؟

لم يسأله (على) عن نوع المهمة ، أو عن اسم الدولة ، التى سيذهب إليها ، وإنما سأله مباشرة ، وفى اهتمام واضح :

- وكم سأتقاضى مقابل هذا ؟

ابتسم (أبو يوسف) فى ارتياح ، وقال :

- مائتى دولار أثيوبى .. ما رأيك ؟

كان واثقًا من أن (على) سيقبل المبلغ على الفور ، ومعه المهمة بالطبع ، لذا فقد بدأ فى تدريبه على استخدام الحبر السرى والتصوير ، فى اليوم التالى مباشرة ، ولمدة شهرين كاملين ، سافر بعدها (على) إلى (اليمن) ، وهو يسعى خلف مهمة محددة .

جمع كل ما يمكن من المعلومات السرية عن المطارات فى (تعز) ، و(صنعاء) و(الحديدة) ، وعدد الطائرات الموجودة فيها ، وعدد الخبراء الروس والمصريين ، والمساعدات السوفيتية للجيش اليمنى .

ونجح (على) فى مهمته هذه ..

لقد جمع معلومات لا حصر لها ، عن طريق ضابط فى الطيران المدنى اليمنى ، والتقط عدة صور للمنشآت العسكرية والمعدات الحربية ، عن طريق أجنبى ، يعمل فى الخطوط الجوية الأثيوبية ، ويدعى (ملس استفانوس) ..

ثم استخرج (على) جواز سفر يمنيًا من (تعز) باسم (على أحمد على) ، بناء على تكليف من (أبو يوسف) ، واستمر فى مهمته لمدة أربعة أشهر فى (اليمن) ، عاد بعدها إلى (أسمرة) ، والتقى بأستاذه (أبو يوسف) ، الذى استقبله فى حرارة وترحاب ، وسأله :

- هل راق لك العمل معنا ؟

أجابه (على) بابتسامة كبيرة :

- بالتأكيد :

وهنا مال (أبو يوسف) نحوه ، وقال فى حزم :

- ينبغى إذن أن تعرف مع من تتعامل بالضبط .. أنت تعمل مع المخابرات الإسرائيلية .

بدت الدهشة لحظة على وجه (على) ، ثم لم تلبث أن تلاشت فى سرعة ، وهو يقول فى خفوت :

لقد خمنت هذا تقريبًا .

وكان هذا يعنى أنه يوافق على الاستمرار ..

ويعنى أيضًا ضرورة الانتقال إلى مرحلة جديدة ..

وفى (أسمرة) ، بدأت المرحلة الجديدة ، وبدأ تدريب (على) على الإرسال والاستقبال اللاسلكى ، وكيفية استخدام الشفرة ، وتصوير المستندات ، وطبع الأفلام الملونة ، وإخفائها بطرق سرية ، وتمت هذه التدريبات تحت إشراف أربعة مدربين جدد ، أعلنوا فى نهاية الفترة نجاح (على) ، وتجاوزه هذه المرحلة ، مما دعا (أبو يوسف) إلى استقباله فى مكتبه ، وهو يقول فى اهتمام :

- هذه التدريبات جعلتك خبيرًا يا (فارحى) .

والخبراء لدينا نرسلهم عادة إلى منطقة القتال الكبرى .

ظهر تساؤل فى عينى (على) فمال (أبو يوسف) نحوه ، وتألقت عيناه ، وهو يقول فى حسم وجذل واقتضاب :

- (إلى القاهرة)

وكانت مفاجأة حقيقية .

* * *

فى الثانى والعشرين من يوليو عام 1960م ، وصل (على الفارحى) إلى (القاهرة) ، لأول مرة ، وهو يحمل جواز السفر اليمنى ، وقائمة التعليمات ، التى تطلب منه جمع المعلومات عن منطقة القناة ،

والتحركات والتجمعات العسكرية فيها ، ونظام العمل فى كوبرى (الفردان) ، ومواعيد عبور القوات العسكرية عليه ، وتصميمات الكوبرى نفسه ، إذا ما أمكنه هذا ..

وقضى (على) شهرًا واحدًا فى (القاهرة) ، درس خلاله المدينة ، ثم سافر إلى (الإسكندرية) ، واستأجر فيها شقة أنيقة ، قام بتأثيثها لإقامته ، واتخذها مقرًا لعمله ..

وفى أحد الملاهى الليلية ، التقى (على) بأول أفراد شبكته ..

كان يعمل ميكانيكى طيران ، فى أحد المطارات الحربية ، وقد استدرجه (على) بنفس الثالوث الأشهر ، فى عالم الجاسوسية ، المال ، والخمر ، والنساء ..

وفى سهراته الحمراء ، راح (على) يستمع إلى كل ما يتحدث عنه الميكانيكى ، وما يلقيه من معلومات عسكرية ، فى انسيابية وطلاقة ، ودون حرص أو حذر ، وأخذ ينقلها أولاً بأول إلى (أبو يوسف) ، الذى يرسلها بدوره إلى (تل أبيب) ..

وفى المرحلة التالية ، سافر (على) إلى منطقة القناة ، وجمع المعلومات المطلوبة ، ثم عاد فى سبتمبر 1960 م ، إلى (أسمرة) ، حيث قدم كل ما لديه من صور ووثائق ومعلومات .

ومرة أخرى تلقى (على) تدريبات جديدة ، على الإرسال

والاستقبال ، وحل الشفرة ، والتصوير ، ثم عاد إلى (القاهرة) وهو يحمل هذه المرة جهازى لاسلكى ، مخبأين فى عصا فلس ، ومعهما كتاب الشفرة ، وآلات التصوير ، وخمسمائة وثمانون دولارًا أمريكيًا .

وفى (القاهرة) اتصل (على) بصديقه الميكانيكى ، ودعاه إلى سهرة حمراء أخرى ، ووسط الكئوس والمرح ، مال على أذنه وقال فى صراحة مدهشة :

ـ أنا أعمل لحساب (إسرائيل) .

شحب وجه الميكانيكى ، وسقطت كأسه ، وهو يحدق فى وجه (على) مرددًا :

ـ لحساب من ؟!

لم يمهله حتى يفيق من أثر المفاجأة بل عرض عليه أن يمده بمعلومات عسكرية أكثر ، مقابل خمسين جنيهًا مصريًا شهريًا ، إلى جانب مكافآت مجزية ، للمعلومات الأكثر أهمية ..

ووافق الميكانيكى ..

لم يكتف بالموافقة فحسب ، وإنما جنّد صديقًا له يعمل فى محطة الرادار ، نظير مكافأة قدرها ثلاثون جنيهًا مصريًا لا غير ..

ومع غزارة المعلومات ، التى يحصل عليها (على) ، كان لابد من البحث عن وسيلة مثالية ، لنقل الصور والوثائق إلى (الموساد) ، بأقل مخاطر ممكنة .

ومن هنا كان اللقاء مع (ريموند بافر) ، الذى شاركهم سهراتهم الحمراء بعض الوقت ، قبل أن يصارحه (على) بالموقف كله ، ويطلب منه التعاون معهم ، وإرسال أفلام التجسس إلى الخارج ، ضمن طرد الأفلام الملونة ، الذى يرسله محل (موريس) للتصوير كل أسبوعين ..

ووافق (ريموند) ..

وكانت البداية بالنسبة إليه ..

بداية النهاية ..

* * *

« حان الوقت يا سيدى .. »

رفع مدير المخابرات العامة عينيه ، يتطلع إلى الضابط الشاب ، الذى نطق هذه العبارة فى هدوء ، وهو يضع أمامه عددًا من الصور والوثائق ، طالعها المدير فى سرعة ، قبل أن يقول :

ـ هل أعددتم كل شىء ؟

أومأ الضابط الشاب برأسه إيجابًا ، وقال :

- إننا نراقب (على الفارحى) منذ عام كامل ، ولدينا سجل حافل بأعماله فى (اليمن) ، كما إننا نحكم السيطرة على كل المعومات التى ينقلها إليه رجال شبكته ، ومعلوماتنا متكاملة عن المصور ، ولم يعد أمامنا سوى تنفيذ الخطة ، وإلقاء القبض على أفراد الشبكة كلها .

تنهد المدير ، وقال :

- احرصوا على أن تكون لديكم كل الأدلة والوثائق اللازمة ، حتى لا تفشل العملية .

أجابه الضابط الشاب فى حسم :

- اطمئن يا سيدى . إنها قضية متكاملة .

ابتسم المدير ، وقال :

- ومن أين ستبدأ ؟

أجابه الضابط الشاب ، وهو يشير إلى إحدى الصور ، على مكتب المدير :

- من هنا .. من (ريموند باقر) .

وهذا ما كان ..

* * *

استيقظ (على الفارحى) مبكرًا ، على الرغم من السهرة الحمراء الطويلة ، التى قضاها فى الليلة الماضية ، وراح ينظم كل المعلومات التى حصل عليها ، من الميكانيكى وفنىّ الرادار ، ثم أخرج جهاز الإرسال فى حرص ، واستعد لإرسالها ، عندما ارتفع رنين جرس باب شقته فجأة ..

وارتبك (على) ، وأسرع يخفى جهاز الإرسال ، والمفكرة التى تحوى كل المعلومات ، ومسح بشرته الداكنة بكفه فى توتر ، وهو يسأل فى لهجة أتت ـ على الرغم منه ـ عصبية عنيفة :

- من الطارق ؟

أتاه صوت هادئ بسيط ، يقول :

- محصل الإنارة .

مط (على) شفتيه الغليظتين فى حنق ، وهو يلعن ذلك المحصل ، الذى يأتى مبكرًا ، هكذا ، وإن لم ينسه هذا أن يلقى نظرة حذرة عبر العين السحرية للباب ، ليتأكد من أن الطارق هو بالفعل محصل الإنارة ، قبل أن يفتح الباب ، ويهتف به ساخطًا :

- اسمع يا هذا ..

قبل أن يتم عبارته ، وقع بصره على الضابط الشاب ، الذى يرتدى ثيابًا مدنية ، ويقف مع عدد آخر من الرجال ، إلى جوار

جرس الباب ، فاتسعت عيناه فى مزيج من الدهشة والذعر ، قبل أن يقول الضابط فى هدوء لا يخلو من الحزم :

- (على الفارحى) .. أليس كذلك ؟

لم يجب (على) ، ولم يكن هناك من ينتظر جوابه فعليًا ، فلم يكد الضابط الشاب ينطق عبارته ، حتى اندفع الرجال المصاحبون له داخل شقة (على) ، الذى هتف فى ذعر :

- ماذا تفعلون ؟

أزاحه الضابط الشاب عن طريقه ، وهو يقول فى هدوء :

- إنهم يبحثون عن بعض الأشياء .

قال (على) فى ذعر :

- أية أشياء ؟!

لم يكد ينطقها حتى جاء الجواب قاسيًا ، عنيفًا كصاعقة هوت على رأسه فجأة ، فاقتلعت مخه من جمجمته ، وضربت به قلبه بلا رحمة ، فقد أخرج الرجال أمام عينيه كل شىء ..

الحبر السرى .. جهاز الإرسال اللاسلكى .. مفكرة المعلومات .. آلات التصوير ..

كل شىء ..

وبحركة عصبية ، تفتقر إلى الحكمة ، حاول (على) أن يبلغ مسدسه ، فى درج قطعة الديكور ، المجاورة للباب ، ولكن الضابط الشاب تحرك فى سرعة ومرونة ، ولوى ذراعه خلف ظهره ، وهو يقول فى صرامة :

- محاولة سخيفة يا رجل .. لم يعد هناك ما يفيد .. لقد انتهى كل شىء .

وفى مبنى المخابرات العامة المصرية التقى (على) بالميكانيكى ، وفنىّ الرادار ، و(ريموند بافر) ، ورأى كلَّ الصور والوثائق ..

ولم يعد هناك مجال للإنكار ..

وفى انهيار تام ، كتب الجميع اعترافاتهم ، وذيّلوها بتوقيعاتهم ، وهم يبكون ندمًا ومرارة ..

وفى بداية عام 1972م ، تمت محاكمة (على الفارحى) وشبكته وقضت المحكمة بإعدامه ، وحكمت بالأشغال الشاقة على باقى أفراد الشبكة ..

وفى حنق ومرارة ، تلقى (أبو يوسف) خبر انهيار الشبكة التى تصور يومًا أنها أفضل شبكة ساهم فى صنعها فى قلب (مصر) ، لحساب (الموساد) .

شبكة (على الفارحى) .

أو الشبكة السوداء .

* * *

الخيـــــانة

انهمك رجل المخابرات المصرى (قدرى) فى مطالعة عشرات الصور والتقارير ، الخاصة بالعملية التى يتولى أمرها ، فى الأونة الأخيرة ، وتوقف طويلاً أمام صورتى جاسوسين ، يسعى جاهدًا للإيقاع بهما ، منذ شهر تقريبًا ، وهما (جعفر درويش) ، و(جميل شاكر) ، اللذان يعملان لحساب (الموساد) ، منذ فترة طويلة ، زوّدا العدو خلالها بعشرات الصور والرسائل ، التى تكشف الكثير والكثير من أسرارنا الاقتصادية والسياسية والعسكرية ، فى تلك الفترة المؤلمة من تاريخ (مصر) ، بعد هزيمة يونيو 1967م ، التى حطمت النفوس ، وزعزعت الثقة فى القلوب .

وبينما كان (قدرى) يطالع صورة لرجل ثالث ، يتزعم شبكة الخيانة كلها ، ويحمل اسم (آدم نعمان) ارتفع رنين الهاتف فى مكتبه ، فالتقط سماعته الداخلية فى آلية ، وقال :

- أنا (قدرى) .. من المتحدث ؟

أتاه صوت مندوب أمن بوابة المبنى ، وهو ينقل إليه حديثًا هامسًا ، استمع إليه (قدرى) فى اهتمام بالغ ، ثم قال :

- دعها تأتى إلى هنا .

ولملم أوراقه فى عناية ، ورصها فى حرص جانبًا ، وجلس ينتظر ، حتى سمع طرقات مترددة على باب مكتبه ، فقال فى هدوء :

- ادخل .

تابع ببصره سيدة شابة ، فاتنة الحسن والجمال ، تلفت إلى مكتبه فى خطوات سريعة ، وكأنها تخشى أن تتراجع عما حسمت أمرها بشأنه ، لو أنها أبطأت سيرها ، فنهض يصافحها ، ودعاها للجلوس ، وطلب لها كوبًا من عصير الليمون ، ثم شبك أصابعه أمام وجهه ، وهو يقول :

- والآن ما الذى أتيت بشأنه يا سيدتى .. كلى آذان مصغية ؟

ابتلعت السيدة عصير الليمون ، وازدردت بعده لعابها ، ثم اعتدلت فى مجلسها ، وقالت فى حسم لا يخلو من نبرة متوترة :

- أنا أعمل مع المخابرات الإسرائيلية.

ويبدو أنها كانت تتوقع منه أن يقفز من مقعده ، ويطلق شهقة قوية ، من فرط الدهشة والذهول ، عندما تدلى بتصريحها هذا ، لذا فقد ارتدت الدهشة إليها هى ، عندما استقبل الأمر فى هدوء شديد ، وهو يقول :

- وماذا بعد ؟

حدقت فى وجهه لحظات بدهشة بالغة ، ثم قالت فى عصبية :

ـ يبدو أنك لم تفهمنى جيدًا .. أقول لك : إننى أعمل لحساب (الموساد) .. مخابرات العدو.

أجابها بنفس الهدوء العجيب ، وهو يشير بيده :

ـ فليكن .. لقد استوعبت هذا جيدًا .. أكملى ما لديك .

فغرت فاها فى دهشة أكثر وهى تقول :

ـ أكمل ماذا ؟

ارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة ، وهو يميل نحوها ، قائلا :

ـ لا بأس .. دعينى أكمل أنا.

وتطلع إلى عينيها مباشرة ، وهو يستطرد :

ـ اسمك (دلال) .. (دلال رستم) .. ابنة رجل أعمال وإقطاعى سابق ، وشقيقة الشهيد (عاصم رستم) ، بطل منظمة (سيناء) ، وتعملين لحساب (الموساد) منذ عامين تقريبًا ، وتتلقين أوامرك من (آدم نعمان) .. الفلسطينى الخائن ، الذى يتزعم شبكة الجاسوسية داخل (مصر) ، فى مقره فى (روما) .

تحولت دهشتها إلى ذهول تام ، وهو يتراجع بمقعده مرة أخرى ، قائلاً :

ـ هل أتابع ؟

ازدردت لعابها فى صعوبة شديدة ، مع ذلك الجفاف الشديد ، الذى تشعر به فى حلقها ، وغمغمت فى انهيار ومرارة :

ـ كلاّ .. سأكمل أنا .. سأخبرك بكل شىء ..

وراحت تروى قصتها ..

ومنذ البداية ..

لم يحتمل والد (دلال) ما فعلته به الثورة عندما أممت ممتلكات عائلته ، فى أوائل الستينات ، فتوفى بعد أسابيع قليلة ، وسرعان ما لحقت به زوجته ، وتركا خلفهما (دلال) و(عاصم) ، وحيدين ، ضائعين ، لا يكفيهما المعاش الضئيل ، الذى تمنحهما إياه الدولة ، مما دفع (دلال) إلى استغلال إجادتها للإنجليزية والفرنسية والإيطالية ، لتعمل مرشدة سياحية ، لبعض الأفواج الأجنبية ، والتى تأتى لزيارة (مصر) ، بين الحين والحين ..

ولأنها شابة وجميلة ، وتنتمى إلى طبقة اجتماعية جيدة ، فقد نجحت فى عملها بسرعة وبدأت شركات السياحة فى الاستعانة بها ، مما زاد من دخلها ، وسمح لها بإلحاق شقيقها (عاصم) بمدرسة داخلية ، يحصل فيها على أفضل وسائل التربية والتعليم ..

ثم التقت (دلال) بالرجل الذى غير مجرى حياتها كله ..

(جورج) .. مهاجر مصرى إلى (إيطاليا) ، نجح فى تثبيت أقدامه فى (روما) ، وأصبح واحدًا من رجال الأعمال المعدودين هناك ، ويمتلك شركة كبيرة ، ويقيم فى قصر منيف ، هذا بالإضافة إلى وسامته ، وأناقته ، وروحه الاجتماعية النادرة .

باختصار .. كان (جورج) هذا رجلاً تحلم به كل فتاة ..

ولقد بدأ يرمى شباكه حول (دلال) ..

ولأن (دلال) مصرية أبًا عن جد ، لم ينجح (جورج) ، على الرغم من كل محاولاته ، فى أن ينالها بلا زواج ، لذا فقد حسم أمره ، وطلب منها أن تلحق به فى (روما) ، حيث تزوجا وحملها إلى قصره ، لتصبح (دلال) المصرية هى سيدة القصر فى (روما)

أما (عاصم) ، فقد بقى فى (مصر) ، ولحقته (دلال) بمدرسة داخلية أكثر رقيًا ، وراحت تراسله كل يوم تقريبًا ، لتشرح له مدى سعادتها وارتياحها بالحياة مع (جورج) ..

ولكن الرياح لا تأتى دائمًا بما تشتهى السفن ..

لقد ذهبت (دلال) يومًا لتفاجئ زوجها بزيارته فى مكتبه ، فجاءت المفاجأة من نصيبها هى ، عندما ضبطته مع سكرتيرته ، فى وضع يندى له الجبين ..

وكانت صدمة الخيانة قاسية على (دلال) ، التى ثارت وهاجت وماجت ، ولكن (جورج) استقبل الأمر على نحو أكثر بساطة ، واتخذ إجراءً عمليًا كعادته ..

لقد طلقها ..

وفجأة ، وجدت (دلال) نفسها وحيدة ، ضائعة ، مفلسة ، فى قلب (روما) ..

وفى (بنسيون) رخيص ، فى أحد أحياء (روما) الفقيرة ، أجهشت (دلال) ببكاء حار ، أفرغت فيه معظم انفعالاتها ، فدخلت صاحبة (البنسيون) إلى حجرتها ، وربتت عليها فى حنان وسألتها عما يبكيها ..

وقصت عليها (دلال) كل شىء ..

واستمعت إليها صاحبة (البنسيون) فى اهتمام ، ثم ابتسمت ابتسامة واسعة ، وأحضرت لها زجاجة كبيرة من الخمر ، وهى تقول :

- اطمئنى .. سيصبح كل شىء على ما يرام .

اطمئنى.

وراحت (دلال) تعبُّ الخمر عبًا ، وتفرزه على شكل أنهار من الدموع ، التى تغرق وجهها وقلبها ، وصاحبة (البنسيون) تبتسم ، وتربت على كتفها فى هدوء وحنان ..

ثم ظهر (إميل) وهو رجل فى الخمسين من عمره قدمته صاحبة البنسيون إلى (دلال) باعتباره صديقها وقالت إنه يستطيع مساعدة (دلال)، ويمكنه الحصول لها على عمل لدى صديق آخر له، وابتسم (إميل)، وهو يقول:

ـ صديقى هذا رجل أعمال عربى، يحتاج إلى من يترجم له أوراق أعماله، التى تصل إليه من جميع أنحاء العالم وسيصل بعد أسبوع واحد، وعندئذ أقدمك إليه، وتبدئين عملك معه على الفور.

وعندما لاحظ خيبة الأمل، التى ارتسمت على وجهها، أخرج حافظة نقوده، والتقط منها رزمة من المال، ناولها إياها، قائلاً:

ـ هذه سلفة مؤقتة لتدبير أمورك، حتى يصل صديقى العربى.

تظاهرت بالتمنُّع، ولكنها لم تلبث أن أخذت المبلغ، الذى كانت فى أشد الحاجة إليه، ووقَّعت به إيصالاً، وضعه (إميل) فى حافظته بدلاً من النقود..

وكان هذا الإيصال هو الخطوة الأولى فى الطريق..

طريق الخيانة..

ولم يتبق المبلغ طويلاً مع (دلال) بعد أن أدمنت الخمر، وعادت تحيا حياة الرفاهية، التى اعتادتها من قبل مع (جورج)

وقبل مضى الأسبوع، كانت قد أفلست مرة أخرى، وجلست تنتظر عودة (إميل) مع صديقه العربى..

ولكن (إميل) لم يعد بعد أسبوع.. ولا حتى بعد أسبوعين..

وعادت (دلال) تبكى الفقر والحاجة، وأمدتها صاحبة البنسيون بالمزيد من المال، بإيصال ثان، وثالث، ورابع..

وتورطت (دلال) حتى أذنيها فى المصيدة، وأصبحت تنتظر عودة (إميل) بلهفة شديدة..

وأخيرًا عاد (إميل)..

عاد بصحبة ذلك الصديق العربى، الذى قدمه إليها باسم (آدم نعمان)..

وبسرعة إيقاع عجيبة، استقبلها (آدم) وأعطاها بعض الأوراق، وطلب منها ترجمتها من الفرنسية إلى العربية، ثم فارقها على الفور، دون أن يعطيها قرشًا واحدًا..

وسهرت (دلال) طوال الليل تترجم الأوراق، وهرعت إلى (آدم) لتعطيها إياه فى اليوم التالى، وهى تسأله فى حيرة:

ـ ولكن ما صلة المعلومات الواردة بهذه الأوراق بك ؟! أنت رجل أعمال، وهذه معلومات اقتصادية وسياسية وعسكرية عن (مصر) !!

التقط منها الترجمة، ومطَّ شفتيه فى ازدراء، وهو يقول:

ـ يبدو أنك لا تصلحين للعمل معنا يا (دلال).

انهارت (دلال)، وراحت تستعطفه، وترجوه أن يمنحها العمل لأنها فى أمس الحاجة للنقود، فتطلع إليها طويلاً، ثم سألها على نحو مباشر:

ـ هل تعلمين مع من ستعملين؟

كان ذكاؤها قد استنتج الجواب، ولكنها حاولت اللف والدوران، إلا أنه تابع فى حزم:

ـ لا تنسى أن تعدينا تقريرًا بخط يدك، يحوى معلومات اقتصادية وسياسية وعسكرية عن (مصر).

أسقط فى يدها، وأعلنت موافقتها على الفور، ولكنها طلبت أجرًا كبيرًا، للعمل لحساب جهاز المخابرات الإسرائيلى، وافق عليه (آدم) على الفور، ثم جلس يحدد لها طبيعة عملها فى شبكته..

كان لديه عميلان بالغا الأهمية فى (مصر) يلتقطان عشرات الصور للأماكن العسكرية، والوثائق المهمة، ويجدان صعوبة فى إرسالها إليه فى (روما) وعليها هى أن تتولى عملية نقل الخطابات هذه..

ووافقت (دلال).. وفى الأسبوع التالى مباشرة، سافرت إلى (القاهرة) حيث افتتحت متجرًا صغيرًا للثياب وأدوات الزينة (بوتيك) وكان من الطبيعى أن تسافر كل فترة إلى (روما) لشراء متطلبات (البوتيك) وبضائعه، ومع كل مرة تسافر فيها، كانت تنقل الصور والرسائل، من العميلين (جعفر درويش) و(جميل شاكر)، إلى زعيم الشبكة الفعلى (آدم نعمان) فى (روما) وتنقل تعليماته إليهما.

وفى هذا الوقت، كان (عاصم) قد تخرج فى الكلية الحربية، والتحق بقوات الصاعقة، وبالتحديد بما عرف أيامها باسم (منظمة سيناء) وهى مجموعة من أبطال الصاعقة، الذين يكبدون العدو خسائر فادحة، عبر عدد من العمليات الفدائية العسكرية، التى أثارت غيظه وحنقه وعصبيته، بحيث صار أكثر ما يسعى إليه، هو كشف عمليات (منظمة سيناء) مسبقًا لاتخاذ ما يلزم ضدها..

ولسخرية القدر، كلَّف (آدم نعمان) (دلال) مهمة كشف أسرار (منظمة سيناء)..

ونفذت (دلال) المهمة بنجاح..

ولأن مهمتها هذه المرة كانت ناجحة للغاية، فقد تصدى الإسرائيليون للفدائيين، فى إحدى عمليات (منظمة سيناء) وأسروا وقتلوا معظم أفراد الفرقة..

وخلال هذا ، كان رجال المخابرات المصرية قد انتبهوا إلى تلك الصلة ، بين (دلال) والجاسوسين (جعفر) و(جميل) ولكن لم يكن هناك دليل واحد يكفى لمحاكمتها وإدانتها ، لذا فقد اكتفى رجال المخابرات بمراقبتها ، وتتبع خطواتها خطوة بخطوة.

حتى جاء ذلك اليوم ..

كانت قد استيقظت مبكرًا على غير عادتها ، وبدأت فى إعداد رسالة جديدة لإرسالها إلى (روما) عندما دق جرس بابها ، وحضر أحد زملاء شقيقها (عاصم) وهو يطرق بعينيه أرضًا ، ويقول فى أسى :

ـ أعلم أن مهمتى ليست باليسيرة ، ولكننى أتيت لأخبرك أن الشهيد (عاصم رستم) قد لقى مصرعه ، أثناء عملية فدائية ، تتبع ما يعرف باسم (منظمة سيناء) بسبب تسرُّب معلومات عن العملية و ..

ولم تستمع (دلال) إلى باقى حديثه ، فقد أطلقت صرخة مروعة ، وسقطت فاقدةً الوعى ، وعندما استعادت وعيها ، بعد ساعة كاملة ، أجهشت بالبكاء وراحت تبكى على نحو مستمر طوال سبع ساعات كاملة ، قبل أن تفقد الوعى مرة أخرى ..

لم يكن من السهل عليها أبدًا أن تعلم أنها السبب فى مصرع (عاصم) .. شقيقها الوحيد ، الذى ليس لها فى الحياة سواه ..

وانهارت (دلال) لعشرين يومًا كاملة ، وهى تبحث عن وسيلة للانتقام من نفسها ، ومن المسئولين عما فعلته ، وفكرت فى قتل (جعفر) و(جميل) أو السفر إلى (روما) وقتل (آدم) ثم لم تلبث أن استقرت على رأى أفضل ، فغادرت فراشها ، وارتدت أفضل ما لديها ثم اتجهت مباشرة إلى المكان الذى وقع عليه اختيارها ..

إلى مبنى المخابرات العامة المصرية ..

استمع رجل المخابرات المصرى (قدرى) إلى (دلال) وهى تروى كل ما لديها ، ثم تركها تكتب اعترافًا خطيًا كاملاً ، سلمته إليه قائلة :

ـ ها هو ذا اعترافى ، مذيل بتوقيعى ، وأنا مستعدة لتلقى أية عقوبة ، التقط (قدرى) الاعتراف ، ووضعه فى درج مكتبه ، الذى أغلقه فى عناية ، وهو يقول : من الممكن ألا تكون هناك أية عقوبة .

تطلعت إليه فى دهشة ، قائلة :

ـ ماذا تعنى ؟!

عاد يميل نحوها ، قائلاً :

ـ ألا تجدين أن الانتقام من الخونة ، أفضل من مجرد الاستسلام لعقوبة الخيانة ؟

هتفت بلا تردد :

ـ بالتأكيد .. ولكن كيف ؟

ابتسم وهو يقول :

ـ سأخبرك كيف وبدأ (قدرى) يشرح لها خطته كلها ، واستمعت إليه هى بكل انتباه بل بكل ذرة فى حواسها ..

واستيقظ جانب الخير فى نفس (دلال) التى قررت أن تعمل جاهدة ، وتخاطر بحياتها لو لزم الأمر للتكفير عن خيانتها السابقة .

وبعد أيام ، سافرت (دلال) إلى (روما) وهى تحمل أفلام الجاسوسين (جعفر) و(جميل) وهناك استقبلها رجل آخر بخلاف (آدم) وهو (عازر) الذى صافحها فى حرارة ، وحصل على ما لديها من أفلام وتقارير ، وصحبها إلى الفندق الذى ستقيم فيه ..

وفى اليوم التالى ، تصرفت (دلال) بشكل طبيعى للغاية ، فخرجت للتسوق ، وابتاعت بعض الثياب وأدوات الزينة لحساب (البوتيك) الذى تملكه ، كما تفعل فى كل مرة ، ثم عادت إلى الفندق ، وجلست وحيدة ، تشاهد (التليفزيون) ..

كان كل شىء يسير على النمط نفسه ، الذى يسير عليه فى كل مرة ، مع فارق واحد ، ففى هذه المرة ، كانت هناك عيون أخرى تراقب (دلال) وتراقب من يراقبونها من رجال (آدم نعمان) ..

وكانت هذه العيون الجديدة مصرية ..

عيون رجال المخابرات العامة ..

ثم ظهر (آدم) فجأة ، وزار (دلال) فى الفندق ، وقضى معها بعض الوقت يسألها عن أحوال (مصر) وشبكته هناك ، ثم بدأ يراودها عن نفسها ، كما يفعل فى كل مرة يلتقيان فيها ..

وفى هذه المرة منحته (دلال) ابتسامة مشجعة ، وطلبت منه أن يلتقى بها فى فيلا صغيرة ، على شاطئ (نابولى) ، حيث يمكنهما الاستمتاع معًا ..

والتقط (آدم) الطُعم ، وهرع إليها فى (نابولى) ، وهو يُمنّى نفسه بليلة هانئة ..

ولكن الليلة لم تكن كذلك ..

لقد استقبله ثلاثة من رجال المخابرات المصرية ، أفقدوه الوعى فى لحظات ، ثم حملوه إلى زورق بخارى على الشاطئ ، واصطحبوا معهم (دلال) وانطلقوا إلى حيث تنتظرهم سفينة مصرية ، خارج المياه الإقليمية ..

وفى الوقت نفسه ، كان رجال المخابرات المصرية يلقون القبض على (جعفر درويش) و(جميل شاكر) وباقى أفراد الشبكة السرية ..

ولكن الصيد الأعظم كان (آدم نعمان) الذى وصل حيًا يرزق إلى مبنى المخابرات العامة المصرية ، حيث استقبله بعض أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية ، مع رجال المخابرات المصرية ..

وانهار (آدم) تمامًا ، عندما أدلت (دلال) بشهادتها ضده ، وأدرك أن خطته لم تسر على ما يرام ، بل صار عليه أن يستسلم لقدره المظلم . ويستعد لدفع أفدح ثمن فى حياته .

ثمن الخيانة .

* * *

الصفعة

ارتسمت ابتسامة جذابة ، على شفتى (سامى) ، الشاب المصرى الوسيم ، شديد التألق والمرح ، وهو يتحرك داخل مطار (ميونيخ) ، ويلقى التحية على بعض موظفى المطار من الألمان ، على نحو يوحى بكثرة تردده على المكان ، وبروح المودة التى يتعامل ويُعامل بها فيه ، واتجه نحو ألمانية شقراء ، فى مكتب الاستعلامات ، وسألها فى اهتمام :

ـ هل وصلت طائرة (القاهرة) ؟

لم يكن بحاجة فعليّة إلى هذا السؤال فلوحة المعلومات ، التى تحتل مكانًا واضحًا فى المطار ، كانت تشير إلى هبوط الطائرة بالفعل ، منذ بضع دقائق ، ولكنه كان يهوى التحدث مع الآخرين ، وإقامة علاقات صداقة ومودة معهم ، وكان هذا واضحًا فى ابتسامة الموظفة الألمانية ، وهى تغمز بعينها ، مجيبة :

ـ نعم .. دقائق وتخرج إليك (سلوى) .

اتسعت ابتسامته أكثر ، وألقى عليها التحية ، واتخذ مقعدًا يواجه بوابة الخروج ، ومعارفه فى المطار يبتسمون ، ويؤكدون لبعضهم البعض أنه مصرى عاشق لوطنه ، ولمضيفة جوية مصرية ، يستقبلها فى المطار بلهفة ، فى كل مرة تأتى فيها إلى (ميونيخ) ،

ويسألها عن (مصر) ، وأحوالها ، وأهلها ، .. وحتى مشكلاتها ..

ولكن الحقيقة كانت تختلف كثيرًا عن هذا ..

فالواقع أن (سامى) هذا كان أبعد ما يكون عن عشق الوطن ، أو حبه .. أو حتى الاهتمام بأمنه وسلامته .

إنه ـ وبكل وضوح ـ جاسوس ..

نعم .. جاسوس يعمل لحساب (الموساد) ، ويُقيم في قلب (ميونيخ) ، ورحلاته إلى المطار تحمل هدفين ، يختلفان تمامًا عما يتصوره الجميع ، فهو يحصل من (سلوى) على بعض المعلومات العامة عن (مصر) ، ويبحث عن شخص أو أشخاص قادمين من (مصر) يمكنه الحصول منهم على معلومات أكثر أهمية ، أو العمل على تجنيدهم لحساب (الموساد) ..

وظهرت (سلوى) ..

وفي حماس ، وبابتسامته الجذابة ، ووسامته الملحوظة ، نهض يستقبلها في حرارة ، ويهتف بها :

ـ أوحشتنى .. فترة طويلة مضت ، منذ التقينا آخر مرة .

ضحكت وهي تقول :

ـ ليس إلى هذا الحد . إنهما أسبوعان فحسب .

كان يُعد أسطوانة طويلة ، ليلقيها على مسامعها ، مؤكدًا حبه وعشقه وولهه ، إلا أن عينيه تعلقتا فجأة برجل رصين ، أنيق ، تألق بياض فوديه وسط سواد شعره الفاحم ، فمنحه مظهرًا وقورًا جذابًا ..

وبسرعة خبير ، فحص (سامى) الرجل ، ودرسه بنظرات سريعة ، أكدت له على الفور أنه صيد ثمين ، لا ينبغى إفلاته أبدًا ..

كان ذلك الرجل يرتدى ثيابًا غالية الثمن ، ويصفف شعره على نحو جعله أشبه بنجوم السينما ، ويحمل حقيبة دبلوماسية ، يندر وجود مثلها في (مصر) ، في تلك الفترة في نهايات عام 1967م ، ثم إن يده كانت تحمل خاتمًا ذهبيًا كبيرًا ، يشير إلى حبه للمال والفخامة والظهور ..

وسأل (سامى) (سلوى) في اهتمام :

ـ من هذا المتألق ؟

أجابته في سرعة : (أحمد عبد الله) . رجل أعمال ، وصاحب مصنع للبلاستيك في (مصر) .

ولم يكن من الصعب بعدها أن يعثر (سامى) على عنوان الفندق ، الذى يقيم به (أحمد) ، وأن يجلس في بهوه قرابة الساعة وعيناه تراقبان المصعد في اهتمام وتركيز ، حتى ظهر (أحمد) ، واتجه إلى مكتب الاستعلامات ليتسلم مفتاحه ..

وبتوقيت مدروس ، وفى نفس اللحظة التى استدار فيها (أحمد) ، بعد أن تسلّم مفتاحه ، كان (سامى) يضع نفسه فى طريقه ، ليصطدم به (أحمد) صدمة خفيفة ، جعلته يقول بردّ فعل تلقائى :

- آسف .. لم أقصد هذا .

قالها (أحمد) بالعربية ، وكان هذا ما يتمناه (سامى) بالضبط ، فهتف وقد تهللت أساريره ، وتظاهر بالفرح والسعادة :

- أنت عربى ؟!

تعارفا على الفور ، وصافح كلٌ منهما الآخر بتلك الحرارة ، التى تتزايد دائمًا فى الغربة ، عندما تهفو القلوب لرائحة الوطن ، وأصرّ (سامى) على دعوة (أحمد) لتناول العشاء ، باعتباره ضيفًا أتى من الوطن الأم ، فحاول (أحمد) أن يتملّص من الدعوة ، إلا أنه لم يلبث أن قبلها ، لتضمهما مائدة عشاء واحدة ، فى أحد مطاعم (ميونيخ) ، الأنيقة ، ذات الأسعار المرتفعة ، وامتد بهما الحديث إلى مصنع البلاستيك ، الذى يمتلكه (أحمد) ، فى نفس الحى الشعبى الذى نشأ فيه (سامى) فى (القاهرة) ، وقال (سامى) فى حماس :

- لدىّ صديق هنا ، يمكنه معاونتك فى عقد كل ما ترغب فيه من صفقات هنا .

اعتدل (أحمد) ، وسأله فى سرعة وجدية رجل أعمال متمرس :

- وكم تبلغ عمولتك بالتحديد ؟

ناقشه (سامى) فى أمر العمولة ، ثم حدد معه موعدًا لمقابلة صديقه (هانز) ، الذى لم يكن فى الواقع سوى ضابط مخابرات إسرائيلى عتيد ، له شهرته الواسعة فى ذلك العالم الغامض ..

وفى المساء التالى ، وفى مقهى صغير ، له أضواء رومانسية خافتة ، التقى (هانز) مع (أحمد) ، وراحا يتحدثان عن صناعة البلاستيك ، والأعمال ، والتجارة ، وأسهب (أحمد) فى الحديث ، وأدلى ببعض المعلومات المهمة عن الصناعة والتجارة فى (مصر) ، وجذب حديثه اهتمام (هانز) بشدة ، عندما راح يشرح بعض الدقائق الاقتصادية ، التى يحتاج الإسرائيليون ، إلى معرفتها عن (مصر) ، وجهاز التسجيل الصغير فى جيب (هانز) يُسجل الحديث كلمة بكلمة ، ويختزن الأسرار والمعلومات ..

وبعد انصراف (أحمد) مال (سامى) على أذن (هانز) ، يسأله :

- ما رأيك ؟

هزّ (هانز) رأسه ، وقال مبهورًا :

- المعلومات التى لديه شديدة الأهمية بالفعل ، ثم التقى حاجباه فى صرامة ، وهو يستدرك بسرعة :

- ولكن لابد وأن نتأكّد منه أولاً ..

وفى (مصر) نشط عدد من عملاء (هانز) ، لجمع المعلومات عن المهندس (أحمد عبد الله) ، وتأكدوا من أنه مسجّل بنقابة المهندسين ، ويمتلك بالفعل مصنعًا للبلاستيك ، فى نفس الحى الشعبى ، وأنه فى هذه الأيام بالذات ، فى زيارة لمدينة (ميونيخ) لعقد بعض الصفقات التجارية ..

واطمأن (هانز) ومن خلفه (الموساد) ، وصدرت الأوامر إلى (سامى) لتوطيد علاقته بـ (أحمد) ، والحصول منه على كل المعلومات الاقتصادية الممكنة .. بل وتوقيع أى نوع من عقود العمل معه ، لضمان استمرار العلاقة لأطول فترة ممكنة .

ونفذ (سامى) الأوامر بمنتهى الدقة كعادته ، وقد بدا له الأمر - فى هذه المرة بالذات - أشبه بصفقة تجارية ناجحة للغاية ، فهو يحصل على ثلاثمائة مارك ألمانى ، مقابل كل مصرى ينجح فى تجنيده ، وبالإضافة إلى هذا سيكون بينه وبين (أحمد) علاقة عمل ، تُدرّ أرباحًا جديدة ..

كان قد حسب كل شىء جيدًا ، واطمأن إلى النجاح ، دون أن ينتبه إلى نقطة واحدة ، يمكنها أن تقلب الأمور كلها رأسًا على عقب ..

هى أن (أحمد عبد الله) لم يكن - فى الواقع - مهندسًا ، أو صاحب مصنع للبلاستيك ..

بل لم يكن اسمه حتى (أحمد عبد الله) .

اسمه الحقيقى كان (عمر) ، وكان يعمل ضابطًا وبالتحديد .. ضابط مخابرات مصرى !

* * *

والعجيب أن قصة (سامى) كلها قد بدأت بصفعة ..

نعم .. صفعة تلقاها من والده ، يوم ظهرت نتيجة الثانوية العامة ، وحصل (سامى) على 51٪ فحسب ، فثار والده ، وراح يسبه ويلعنه ، ويضربه ، حتى هرب من المنزل ، ليبيت ليلته مع أحد أصدقائه ، وهو يلعن الدراسة والنتائج ، وكل تلك الأشياء ، التى تحرمه من التمتع بوسامته وأناقته ، وهو الذى يعتبر نفسه أكثر وسامة من نجوم السينما وبعد أسبوعين من هذه الصفعة ، أعلن (سامى) فى منزله أنه سيسافر إلى (ألمانيا) ليبحث عن عمل هناك ، فأشاح عنه والده بوجهه ، وقال فى سخط :

- فى ستين داهية .

وسافر (سامى) إلى (ألمانيا) ، ووصل إليها وهو يحمل فى أعماقه كل العداء والكراهية لمجتمعه ، وراح يُعلن مقته وكراهيته فى كل مكان ، وكل مجموعة يلتقى بها ، سواء أكانوا من المصريين ،

أو من الأجانب ..

وكالمعتاد ، التقط (الموساد) هذا الخيط ، وبدأ يغزل خيوطه حول (سامى) فى بطء وحذر ، ورجاله يُدركون أن عدم الانتماء هو الخامة المثالية ، لصنع جاسوس يعمل على هدم وطنه وبلاده ، دون وازع من أخلاق أو ضمير ..

ولم تكن عملية تجنيد (سامى) صعبة أو عسيرة ، بل لقد صارحه (هانز) بحقيقة الأمر فى اللقاء الثانى مباشرة ، وهو يسأله :

ـ هل تحب أن تربح الكثير من المال ؟

أجابه (سامى) فى لهفة :

ـ بالطبع .

وعلى عكس المتبع فى عالم المخابرات ، مال (هانز) نحوه ، وقال فى صراحة مدهشة :

ـ ما رأيك فى العمل لحساب (الموساد) ؟

كان (هانز) يتوقع أن يكون للتصريح أثر المفاجأة ، فى نفس (سامى) ، إلا أن هذا الأخير سأله فى لهفة :

ـ وما المقابل ؟.. أعنى كم ستدفعون ؟

وانتهت العملية فى سرعة وبساطة ..

وطوال أربع سنوات قضاها (سامى) فى (ميونيخ) ، أصبح صديقًا لكل المصريين ، يستقبلهم ، ويعاونهم على الحصول على العمل والإقامة .. وحتى (لبن العصفور) ، لو اقتضى الأمر ..

ولم يعد (سامى) يتحدث عن مقته وكراهيته لمجتمعه بل تصوّر الجميع أنه ـ على العكس من هذا تمامًا ـ يهيم عشقًا ببلاده وهو يبذل كل هذا من أجل المصريين ..

وفى (مصر) ، شعر رجال المخابرات المصرية بالقلق ، وهم يتابعون حركة (سامى) وأسلوبه ، وعلاقاته بالمصريين .. شبابًا ورجالاً وكهولاً ، وقدرته المدهشة على جذب بعضهم إلى عالمه القذر ..

وذات صباح استدعى مدير المخابرات (عمر) إلى مكتبه ، وسأله :

ـ هل سنترك ذلك القذر يواصل لعبته طويلاً ؟!..

إنه يتصوّر أن الساحة قد خلت له .

قال (عمر) :

ـ لا يمكننا إلقاء القبض عليه .. الوسيلة الوحيدة هى استدراجه

إلى (القاهرة) ، ومواجهته بكل الصور والأدلة ، التى تمتلكها ضده ، ومحاكمته .

تراجع مدير المخابرات فى مقعده ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، وشرد ببصره وأفكاره لحظات ، وهو يردد فى خفوت :

ـ نعم . لابد من استدراجه إلى (القاهرة) .

كانت أعماق (عمر) تموج بالانفعالات ، وبالرغبة الأكيدة فى الإيقاع بالجاسوس ، ولكنه ظلّ صامتًا ، يتطلّع إلى المدير فى لهفة ، متمنيًا سماع ما يرغب فيه ، حتى اعتدل المدير ، وقال فى حزم :

ـ ضع خطتك لإحضار هذا الجاسوس يا (عمر) .. وبأى ثمن .

وبهذا الأمر المباشر ، الذى أثلج صدر (عمر) ، بدأت العملية ..

عملية (ميونيخ) ..

* * *

فى نفس الوقت الذى كان (هانز) يجلس فيه مع (عمر) ، فى ذلك المقهى الخافت الأضواء ، ويسجل الحديث بينهما كلمة بكلمة ، كان جهاز التسجيل الصغير ، داخل جيب سترة (عمر) السرى ، يسجل بدوره كل ما يحدث ، وآلة التصوير الدقيقة داخل

قداحته الذهبية الأنيقة ، تلتقط عشرات الصور للرجلين (هانز) و(سلمى) ..

وعندما عرض (سلمى) عليه فكرة العقد المشترك ، وشرح له الفوائد التى ستعود عليه منه ، لم يوافق (عمر) على الفور ، وإنما بدا حذرًا مترددًا ، وأعلن أنه سيدرس الأمر بروية أكثر ، فسأله (سلمى) :

ـ ما الذى يقلقك ؟.. يمكنك عرض العقد على محام .

أجابه (عمر) :

ـ وهذا ما سأفعله .. سأعود إلى (القاهرة) صباح الغد ، وأسلم العقد لمحامى المصنع ، وبعدها أرسل إليك ، لتحضر إلى (القاهرة) ، ونوقع العقد ..

وافق (سلمى) بابتسامة جذابة ، لم تخل هذه المرة من علامات اللهفة والجشع ، وأصرّ على دعوته لتناول العشاء مرة أخرى ..

وفى الصباح التالى سافر (عمر) إلى (القاهرة) ، وانتظر هناك خمسة أيام ، ثم أرسل إلى (سلمى) برقية تقول :

ـ « احضر فى أقرب فرصة لتوقيع العقد » .

وعندما تسلّم (سلمى) البرقية ، أسرع يتصل بـ (هانز) ، ويطالبه

بمكافأة إضافية ، لنجاحه فى جذب رجل الأعمال (أحمد عبد الله) إلى عالم (الموساد) ..

وكان هذا ، فى نظر الإسرائيليين ، يُعد عملية ناجحة للغاية ، فسوف يحصلون على كل ما يرغبون فيه من معلومات اقتصادية عن (مصر) دون أن يُدرك رجل الأعمال المصرى نفسه أنه يعمل لحسابهم ..

ولم يمض أسبوع واحد ، حتى وصل (سامى) إلى (القاهرة) ، وهو مصطحب معه صديقين ألمانيين ، لقضاء رحلة سياحية بين آثار (مصر) القديمة ، وفى مطار (القاهرة) تهللت أساريره ، عندما رأى (عمر) بين المنتظرين ، وأسرع إليه يصافحه فى حرارة ، وابتسامته تملأ وجهه ، وهو يهتف :

ـ أحمد ، .. هل أتيت لانتظارى بنفسك ؟!..

أشكرك يا صديقى .. أشكرك كثيرًا .

ولكنه فوجئ به يستقبله فى برود صارم ، ويقول :

ـ اسمى ليس (أحمد) يا (سامى) .. أنا (عمر حماد) .. من المخابرات المصرية وسقط فك (سامى) فى ذهول ، وهوى قلبه بين قدميه ، اللتين ارتعدتا ، وعجزتا عن حمله ، فكاد يسقط فاقدًا للوعى ، لولا أن تلقفه عدد من الرجال ، تحمل عيونهم نفس

النظرة التى تموج بالحزم والاحتقار ..

ولم يستطع (سامى) النطق ، فقد ماتت الكلمات على شفتيه ، وتجمد لسانه ، وغص حلقه بمرارة الهزيمة ، حتى إنه لم ينطق بحرف واحد ، حتى وصل إلى مبنى المخابرات ، فى كوبرى القبة ، وجلس فى إحدى حجراته ..

عندئذ عاودته قدرته على النطق ، وأراد أن ينكر ما نسب إليه ، ولكن رجال المخابرات أخرجوا ما لديهم من صور وتسجيلات وشهود ..

وانهار (سامى) تمامًا ، عندما علم أن (سلوى) أيضًا كانت تعمل لحساب المخابرات المصرية .

وأدلى الجاسوس باعتراف كامل ، وهو يبكى ويرتعش ، ويلعن ذلك اليوم ، الذى سافر فيه إلى (ألمانيا) ، والذى التقى فيه بذلك الضابط الإسرائيلى (هانز) ..

وعندما انتهى (سامى) من اعترافه ، وذيله بتوقيعه ، حمله (عمر) إلى حجرة مدير المخابرات ، وقال وهو يضع الاعتراف كله على مكتبه ، فى ارتياح ظاهر :

ـ الآن فقط انتهت العملية يا سيدى ، عملية (ميونيخ) ..

وكما بدأ الأمر كله بصفعة ، انتهى أيضًا بصفعة ..

وفى هذه المرة ، لم تكن الصفعة على وجه (سامى) وحده ،

بل كانت أيضًا على وجه جهاز مخابرات كامل ..

المخابرات الإسرائيلية ..

* * *

الغيـــرة ..

جرت الاستعدادات على قدم وساق ، في معسكر التدريب الإسرائيلي (اللنبي) ، لاستقبال الجنرال (بيريز) ، الذي قرر القيام بزيارة المعسكر ، وتفقُّد أحواله ، ونظم التدريب والأمن المتبعة فيه ، في ذلك اليوم من أيام فبراير ، عام 1968 ، وكان من الواضح أن نقيب الاحتياط (دان إفرايم) ، مدرب الرماية في المعسكر ، هو أكثر المتحمسين لهذه الزيارة ، إذ ظل يراجع النظام والإجراءات طوال النهار ، وأشرف بنفسه على تنسيق الطوابير ، والاهتمام بنظافة وأناقة الجنود ، في أزيائهم العسكرية ، ثم كان أول المستقبلين للجنرال (بيريز) ، عندما وصل إلى المعسكر ، في العاشرة والنصف صباحًا ، ومرافقه الأساسي طوال جولته الطويلة ، التي لم تنته إلا في تمام الواحدة

ومن المؤكد أن الجنرال قد شعر بالرضا عما رآه ولمسه ، وعما قام به النقيب (دان) ، فقد ربّت على كتفه في حرارة ، بعد انتهاء الزيارة ، وقال له في ارتياح ، وهما يجلسان في مكتب القيادة الدافئ :

ـ مجهود رائع يا (دان) .. كل شيء على ما يرام ، ومن الواضح أنك تبذل جهدًا يستحق الإعجاب ، في تدريب الشباب الإسرائيلي في الرماية .

ثم مال نحوه ، ليسأله في اهتمام بالغ :

ـ ولكن ماذا عن الأمن والسرِّيَّة ؟

ابتسم (دان) ، وهو يريح قدمه اليسرى ، بعد أن آلمته إصابة فخذه القديمة ، وقال في حسم واضح :

ـ كل شيء على ما يرام يا جنرال .. اطمئن .

أومأ الجنرال (بيريز) برأسه في ارتياح ، وهو يتراجع مرة أخرى في مقعده ، قائلاً :

ـ هذا أمر بالغ الأهمية يا (دان) ، فالمفروض أن تحاط نظم وأساليب التدريب عندنا بأقصى درجة من السرِّيَّة ، حتى لا يعرف أعداؤنا وسائلنا .. أنت تعرف أن كشف هذا يساعد المصريين على تطوير أساليب تدريبهم ، بحيث يمكنهم التصدي لكل ما ندرب شبابنا عليه ، أو ابتكار وسائل جديدة لمواجهته .

قال (دان) في حماس :

ـ أعرف هذا بالطبع يا جنرال .

رمقه الجنرال (بيريز) بنظرة إعجاب ، قبل أن ينهض قائلاً :

ـ عظيم .. هكذا نكون قد بلغنا النهاية .

رافقه (دان) فى حماس إلى سيارته ، وصافحه مع قائد المعسكر فى حرارة ، قبل أن يدلف إليها ، فأشار الجنرال بسبابته ، مكررًا نصيحته :

ـ تذكروا دائمًا .. السرِّيَّة .. لا نريد أن يعرف المصريون ما نفعله هنا أبدًا .

اتسعت ابتسامة (دان) ، وهو يقول :

ـ اطمئن يا جنرال .. لن يجد المصريون ثغرة واحدة ، ينفذون منها إلينا .

حملت ابتسامة الجنرال (بيريز) كل ثقته وارتياحه ، والسيارة العسكرية تنطلق به مبتعدة عن معسكر (اللنبى) ، وعقله يراجع تفاصيل زيارته الناجحة ، ويفكر فى أمور شتى ..

ولكن الشىء الوحيد ، الذى لم يفكر فيه الجنرال ، والذى لم يخطر بباله قط ، هو أن المصريين قد نفذوا إلى المعسكر ، من خلال واحد من أقوى عملائهم فى قلب (إسرائيل) .. نقيب الاحتياط (دان إفرايم) .

منذ المراحل الأولى للصراع العربى الإسرائيلى ، أدركت المخابرات العامة المصرية ضرورة وجود عين لها فى قلب

العدو ، وفى مؤسسته العسكرية بالتحديد ، وبعد حرب يونيو بالتحديد ، بات من الضرورى زرع عملاء من طراز خاص ، فى أعماق هذه المؤسسة العسكرية .

وفى معسكرات التدريب الجديد .

ففى تلك الفترة ، لم يكتف الإسرائيليون بتدريب جنود جيشهم النظامى ، والآلاف من ضباط وجنود الاحتياط ، وإنما امتدت تدريباتهم إلى الشباب من الجنسين ، ما بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة من العمر ، حيث يتم تدريبهم لمدة ساعة يوميًا ، فى المدارس والمعاهد ، ولمدة نصف يوم أسبوعيًا فى المعسكرات ، ثم لمدة يوم كامل كل شهر فى معسكر (اللنبى) ، وهناك يتم تدريبهم على الرماية ، وإعدادهم عسكريًا ، عبر برنامج أطلق عليه اسم (الجادنا) ..

ولقد أحاط الإسرائيليون برامجهم التدريبية هذه بنطاق خاص من الأمن والسرِّيَّة ، بحيث يصعب تسرب أساليبهم وطرقهم إلى المصريين ..

وكان من الطبيعى ، والحال هكذا ، أن يجذب الأمر بسرِّيته اهتمام المخابرات المصرية ، التى قررت كسر نطاق الأمن ، واختراق حاجز السرِّيَّة .

ومن أجل تحقيق هذا الهدف ، وكما يحدث دائمًا ، اجتمع مدير المخابرات بعدد من رجالها الأفذاذ لدراسة الموقف وتقييمه ، وبعد استعراض الأمر كله ، قال المدير فى حزم :

ـ من الواضح إذن أن الحصول على معلومات كافية ، حول أساليب ونظم التدريب ، فى معسكر (النبى) ، صار هدفًا أساسيًا فى خطتنا القادمة ، ولابد من دراسة أفضل وأنجح السبل للوصول إليه .

اقترح أحد الرجال القيام بمحاولة لتجنيد أحد الشبان ، الذين يتلقون تدريباتهم فى المعسكر ، ولكن الاقتراح قوبل بالاعتراض ، خشية أن يفلت حماس الشاب فى أى الاتجاهين ، فيسرف فى الحصول على المعلومات والبحث عنها ، على نحو يعرضه لافتضاح أمره ، وكشف العملية كلها ، أو يسارع بالإبلاغ . فنخسر عميلاً قديمًا ، أو نكشف شبكة تجسس ، بذلنا جهدًا ومالاً لنثبت أقدامها فى قلب (إسرائيل) ..

ثم جاء الاقتراح الأكثر جرأة ، بالسعى لتجنيد أحد ضباط التدريب فى المعسكر ..

وعلى الرغم من أن هذا أكثر صعوبة وخطورة ، إلا أن الفكرة لاقت قبولاً من الجميع ، فراحوا يدرسونها من كل الجوانب ، ويناقشون كل الاحتمالات ، ويسدون الثقوب ، أو يرفون التمزقات فيها ،

حتى صارت فى النهاية نسيجًا مكتملاً ، ولاينقصها إلا الأمر بالتنفيذ .

وكانت الساعة قد شارفت الرابعة والنصف صباحًا ، عندما قال مدير المخابرات ، وهو يرتشف قدح القهوة :

ـ السؤال الأخير أيها السادة هو :

من أفضل رجل لنا فى (تل أبيب) ، يمكنه القيام بمثل هذه العملية ؟!

أجابه أحد رجاله فى حماس :

ـ أحد اثنين: إما (رفعت الجمال) ، أو (إميل دوربيه) .

كان الاقتراح وجيهًا ومناسبًا بالفعل ، فالأول مصرى قلبًا وقالبًا ، يحيا فى (إسرائيل) منذ عدة سنوات ، تحت اسم (جاك بيتون) ، وله صلات واتصالات واسعة ، بعدد من رجال وضباط جيش الدفاع الإسرائيلى ، إلى الحد الذى كون فيه صداقة خاصة ، مع وزير الدفاع حينذاك (موشى ديان) ، فى حين كان الثانى عميلاً فرنسيًا ، ولد لأب مصرى وأم فرنسية ، ويعمل كرجل أعمال فى (إسرائيل) ، منذ عامين أو ثلاثة ، ونجح خلال هذه المدة فى تجنيد إحدى العاملات فى مصنع الطائرات ، وحصل من خلالها على معلومات بالغة الأهمية ، كان لها أبلغ الأثر فى تحديد موقع الجيش الإسرائيلى من عملية التصنيع الحربى ..

وبعد مناقشة طويلة ، انتهت مع شروق شمس اليوم التالى ، وقع الاختيار على الفرنسى للقيام بالمهمة ، نظراً لأن موقع (الجمال) بالغ القوة والحساسية ، وبحسن عدم المجازفة بأمنه واستقراره ، واتصالاته الواسعة ، من أجل عملية محدودة ..

وفى السادسة والنصف صباحاً ، أى بعد ما يقل قليلاً عن الساعة من اتخاذ القرار ، تم إرسال برقية شفرية إلى (إميل دوربيه) ، فى قلب (إسرائيل) ، تحدد له موعداً للقاء أحد رجال المخابرات المصرية ، بعد ثلاثة أيام بالتحديد ، فى ميناء (مارسيليا) الفرنسى .

وفى الموعد المحدد ، التقى (إميل) بضابط المخابرات المصرى ، الذى أسند إليه مهمة البحث عن شخص مناسب ، وترشيحه للعمل لحساب المخابرات المصرية ، فى معسكر (اللنبى) للتدريب .

لنقل كل المعلومات اللازمة إلينا ..

ولم يستغرق لقاء (إميل) برجل المخابرات المصرى أكثر من ساعة ونصف الساعة ، افترقا بعدها ، وقضى (إميل) يومين فى (باريس) ، لينجز بعض الأعمال ، التى تبرر سفره إلى (فرنسا) ، ثم عاد إلى (تل أبيب) فى اليوم الثالث ، ليبدأ فى تنفيذ مهمته ولم يمض شهر واحد ، حتى أرسل (إميل) تقريراً ، طلب فيه الإذن بتجنيد نقيب الاحتياط (دان إفرايم) للمهمة ، مع بيانات أولية لهذا الأخير ..

وكما يحدث فى مثل هذه الأحوال ، راح رجال المخابرات يدرسون شخصية المرشح الجديد بمنتهى الدقة والاهتمام ، من خلال المعلومات التى حصل عليها (إميل) ، والتحريات التى قام بها عملاء آخرون فى قلب (إسرائيل) ، لم يلتق أيهم الفرنسى ، أو يتعارفا مرة واحدة فى حياته كلها ..

وجاءت النتائج مشجعة .

فالنقيب احتياط (دان إفرايم) مقامر سيئ الحظ ، عدد مرات خسارته على مائدة القمار الخضراء يفوق عدد مرات ربحه بخمسة أضعاف على الأقل ، وهو لا يكف لهذا عن اقتراض النقود ، مما يثير مشكلات عديدة بينه وبين زوجته البولونية الأصل (ميراشيمن) ، التى فسد الوفاق بينها وبينه منذ زمن ، بسبب علاقته بفتاة تدعى (دبيور أمايزل) ، صديقة (ماجى) التى جندها (إميل) للعمل لحساب المخابرات المصرية .

.. وفى الوقت نفسه ، فإن (دان) شديد النقمة على كل ما هو إسرائيلى ، بعد إصابته برصاصة فى فخذه اليسرى ، فى حرب 1956م ، أثناء هجوم المقاتلات المصرية على ممر (متلا) فى أول أيام المعركة ، مما أدى إلى إصابته بشلل جزئى فى حركة الساق ، وعرج واضح ، جعل بعض زملائه القدامى يطلقون عليه اسم (دان الأعرج) ، وعلى الرغم من هذا فلم يحصل على أية

أوسمة أو مكافآت ، أو حتى شهادة تقدير ، وإنما تم تجاهله تمامًا ، وأعيد إلى الخدمة المدنية فى فبراير 1957 مساعدًا للعمل فى معهد التقنية الإسرائيلى (تكينون) ، ومقره (حيفا) ..

وامتلأت نفس (دان) بالسخط ، ولكنه راح يتقدم بالالتماسات والشكاوى فى إصرار ، حتى تم النظر فى موقفه ، وعين مدربًا للرماية فى معسكر (اللنبى) .. وعندما طرح أمر ترشيح (دان) على مائدة البحث ، فى جهاز المخابرات العامة ، أبدى أحد الضباط اعتراضه ، قائلاً :

ـ مشكلة هذا الرجل أنه مقامر ، ولا يمكننا الركون إلى شخص مثله ، أو ضمان إخلاصه وولائه ، فمن الممكن جدًا أن يخوننا ، مع أول أزمة تعترضه .

ابتسم مدير المخابرات ، وهو يقول :

ـ نقطة ضعفه هذه هى أقوى وسيلة للسيطرة عليه يا رجل ، فكل ما يسعى إليه أى مقامر ، هو المال ، وما دمت تمده به على نحو منتظم ، فسيظل على ولائه لك ، ثم إنه سيتورط معنا ، بعد أول مرة يمدنا فيها بالمعلومات ، ولن يصبح بوسعه التراجع أو التملص ، وهذا سيحكم قبضتنا عليه تمامًا .

تبادل الجميع نظرة مؤيدة لنظرية المدير ، فيما عدا الضابط

المعترض ، الذى أشار بيده ، قائلاً :

ـ مازالت هناك نقطة ضعف بالغة الخطورة ، فى شخصية (دان إفرايم) فله عشيقة يميل إليها ، وهذا يعنى أنه من الممكن والمحتمل أن يتحدث معها يومًا حول عمله لحسابنا ، مما يعرض العملية كلها للخطر .

أدهشتهم تلك الابتسامة الكبيرة ، التى ملأت وجه مدير المخابرات ، وهو يقول :

ـ نفس المشكلة ، التى جالت بخاطرى .

ثم وضع أمامهم برقية تم حل شفرتها منذ قليل ، وتحمل توقيع (إميل دوربيه) ، وهو يستطرد :

ـ والعجيب أن (إميل) أرسل حلها قبل أن نناقشها .

طالع الرجال البرقية فى اهتمام ، ثم تفجرت الدهشة فى أعماقهم ، فقد كان (إميل) يطلب الموافقة على تجنيد (ديبورا) صديقة (دان) أيضًا ..

وبدأت عملية دراسة للمرشحة الجديدة ..

ومن المؤكد أن مثل هذه الأمور تستغرق وقتًا طويلاً ، وتحتاج إلى معلومات وتحريات بالغة الدقة ، وأن الوقت قد لا يصبح العامل

الرئيس فى كثير من الأحيان ، إلى جوار الحرص والحذر ، تطبيقًا للمثل القديم القائل :

« فى التأنى السلامة ، وفى العجلة الندامة » ..

ولهذا لم يصل رد (القاهرة) بالموافقة على تجنيد (دان) و(ديبورا) إلا بعد شهر كامل ..

ولم يكد (إميل) يتلقى الرد ، حتى شرع فى العمل على الفور ، فاستغل صداقة (ماجى) و(ديبورا) ، ليتقرب إلى الأخيرة وصديقها (دان) ، الذى لم يلبث أن وطد صلاته بالفرنسى ، لما رآه عليه من مظاهر الثراء والبذخ ، إلى أن مال على أذنه ذات يوم ، وهو يسأله :

ـ قل لى يا عزيزى (إميل) ألا يمكنك أن تقرضنى مبلغًا بسيطًا ؟

أجابه (إميل) فى حماس :

ـ بالطبع يا رجل .. فيم الأصدقاء إذن ؟!

وابتهج (دان) لهذا المصدر الجديد ، الذى يمكنه الحصول منه على القروض اللازمة ، لاستمرار البقاء على مائدة القمار ..

ولكن ، وكما يحدث مع كل المقامرين ، لم يكن من السهل أبدًا أن يسدد (دان) قروضه ..

.. بل كان من المستحيل أن يفعل ، مع معدلات خسائره المرتفعة

والمستمرة ، مما قفز بالمبلغ الذى اقترضه من (إميل) إلى أرقام خيالية ، راح هذا الأخير يشير إليها باستمرار ، كلما طلب (دان) قرضًا جديدًا ، ثم أخذ يبدى ضيقه وتبرمه ، من عدم قدرة الرجل على الوفاء بديونه ، مما وضع (دان) فى موقف لا يحسد عليه ..

وهنا حانت لحظة المواجهة ..

ولم يكن الأمر صعبًا أبدًا ..

لقد تقبل (دان) الأمر فى بساطة ، وكأنه كان يتوقع طيلة عمره أن يقوم بعمل غير مشروع ، للحصول على المال ، أو أنه لم يكن يعنيه ما يمكن أن يقوم به ، ما دام المقابل سخيًا ..

وهكذا انطوى (دان إفرايم) تحت جناح المخابرات العامة المصرية ، وصار عينًا لها فى قلب جهاز التدريب العسكرى الإسرائيلى ..

واكتملت شبكة (إميل دوربييه) فى قلب (إسرائيل) فاختص (دان) بالموضوعات العسكرية والتصوير ، وتولت (ماجى) أمر مصنع الطائرات ، والدراسات الاقتصادية ، فى حين انحصر عمل (ديبورا) فى جمع المعلومات عن المنظمات النسائية ، وكتابة التقارير حول مشاكل جبهة المعارضة اليهودية فى البلاد .

وفى فبراير 1969 م ، رشح (دان) اثنين فى صف الضباط للعمل لحساب المخابرات المصرية ، أحدهما جاويش فى السلاح

البحرى ، يدعى (أودى بيدلسون) ، والثانى حسناء فاتنة ، تدعى (أستير تالمى) ، تعمل فى سجن (راتون نيرزا) النسائى ..

ولقد وافقت المخابرات المصرية على تجنيد (بيدلسون) ، ولكنها رفضت (أستير) فى إصرار ، أوحى بأنها محاطة بقدر لا بأس به من الشبهات ..

وطوال فترة عمله ، نقل (دان إفرايم) إلى المخابرات المصرية قدرًا هائلاً من المعلومات حول نظم ووسائل التدريب فى معسكر (اللنبى) ، وفى عدد من معسكرات التدريب الإسرائيلية الأخرى ، التى يمكنه دخولها بحكم موقعه ورتبته ، بل والتقط بوسائله الخاصة عشرات الصور ، التى جعلت المصريين كأنهم يقيمون داخل معسكرات التدريب الإسرائيلية ، ويتابعون كل ما يحدث فيها لحظة بلحظة .

وكان لهذا أكبر الأثر ، عندما حدثت المواجهة الكبرى ، فى حرب أكتوبر 1973 م ، عندما فوجئ الإسرائيليون بأن المصريين يعرفون كل وسائلهم ، وأنهم قد استعدوا لها جيدًا ، وأفسدوا مفعولها بمنتهى البراعة والدقة .

ولكن (دان) لم يستمر فى عمله هذا مع الأسف ، لأسباب لا علاقة لها إطلاقًا بأعمال المخابرات أو بصراع العقول المصرى الإسرائيلى ..

بل كانت الأسباب عاطفية محضة ..

ففى ديسمبر 1971 م ، كانت غيرة (ميرا) زوجة (دان) قد بلغت ذروتها ، بعد أن ترك الأخير منزل الزوجية تمامًا ، وأقام بصفة دائمة مع (ديبورا) ، ولم يعد يهتم حتى بطلب النقود منها ، لتعويض خسائره ، فى القمار ، كما كان يفعل من قبل ..

ولأن غيرة المرأة تسبق كل مشاعرها وانفعالاتها ، وحدود المنطق فى أعماقها ، فقد طاردت (ميرا) زوجها فى عناد ، حتى يئست من عودته إليها ، فقدمت ضده شكوى ، زعمت فيها أنه يقوم ببيع الذخيرة المخصصة لتدريب الشباب فى معسكر (اللنبى) .

وفى أول يناير 1972م ، داهمت قوة من رجال الشرطة منزل (ديبورا) ، وراحت تفتشه فى غلظة وفظاظة ، على نحو أسقط قلب (دان) بين قدميه ، وجعله يتصور أن أمره قد انكشف ، ولن يلبث أن ينتهى خلف القضبان ، أو يلقى مصرعه برصاصات فرقة الإعدام ، بعد اتهامه بالخيانة فى زمن الحرب ..

وعلى الرغم من أن التفتيش لم يسفر عن شىء ، وأن الشرطة أطلقت سراح (دان) وصديقته ، إلا أن الرعب الذى ملأ قلبيهما لم يفارقهما قط حتى إن (دان) انتحر فى اليوم التالى مباشرة ،

بشنق نفسه بحبل ، فى مخزن ذخيرة المعسكر ، فى حين اختفت (ديبورا) تماما ، ولم يعثر لها على أثر .

والمدهش أن الإسرائيليين لم يكونوا قد انتبهوا قط إلى أن (دان) يعمل لحساب المصريين ، بل ولم ينتبهوا إلى هذا إلا مع التحقيقات المكثفة ، التى أجريت بعد حرب 1973 م ، لمعرفة سر تسرب معلومات التدريب إلى المصريين .

والمؤكد أن الحيرة ملأت نفوس الإسرائيليين كثيرًا ، عندما توصلوا إلى حقيقة انتحار (دان) ، غير المبرر ، ولكن المؤكد أيضًا أنه لم يخطر ببالهم قط أن السبب وراء هذا كان مجرد انفعال بسيط ، لا يمتُّ لأعمال المخابرات بأية صلة ..

انفعال اسمه (الغيرة) .

* * *

الفرنسى ..

« الإسرائيليون يستعدون لصنع مقاتلة نفاثة .. »

نطق رجل المخابرات المصرى (و) بهذه العبارة ، فى شىء من التوتر ، فاعتدل رئيسه فى بطء ، وقد انعقد حاجباه فى شدة ، وداعب ذقنه بسبابته ، وهو يسأله فى اهتمام ، يشوبه شىء فى القلق ..

ـ من أين أتيت بهذه المعلومة ؟

أجابه (و) ، وهو يلوح بكفه ، وكأنه يشرح ما لديه .

إنها شائعة قوية ، تتداولها الأوساط العسكرية الإسرائيلية ، وتتهامس بها بعض الأنظمة العربية والفلسطينية ، ومعلوماتنا تقول إنها انطلقت من مصنع (بيديك) ، المتخصص فى صناعة الطائرات ، حيث يعمل رجل يدعى (أولشى فيمر) ، يصف نفسه دائما بأنه عبقرى ، يتمتع بعقلية علمية فذة ، ويؤكد أنه المسئول الأول عن ابتكار وتصميم وصنع المقاتلة النفاثة ، التى أطلق عليها اسم (سوبر ميراج) .

ازداد انعقاد حاجبي رئيسه ، وهو يدرس الأمر في عقله جيدًا ، قبل أن يعتدل في مقعده ، ويقول في اهتمام بالغ :

ـ الأمر جد بالغ الخطورة يا (و) ، فهو يتعلق بالموازين العسكرية في المنطقة .. لابد وأن نتيقن من صحة الأمر . نريد معلومات ووثائق مؤكدة ، وليس مجرد شائعات ، تحتمل الخطأ بأكثر مما تحتمل الصواب .

ثم اكتسى صوته بصرامة شديدة ، وهو يستطرد :

ـ نريد معرفة ما يدور في قلب مصنع (بيديك) يا (و) ، وهذا يحتاج إلى عميل خاص ، يمكنه أن يقيم في (تل أبيب) ، ويحصل على ما نريد من معلومات دقيقة ، دون أن تتطرق إليه الشبهات .

ابتسم (و) ، وهو يقول :

ـ أعتقد أن لدينا مثل هذا العميل بالفعل يا سيدي .

تطلع إليه رئيسه في اهتمام ، فأكمل في حزم :

ـ العميل الفرنسي .

وكانت هذه هي البداية ..

* * *

(إميل دروبيه) ، ابن لأم فرنسية ، وأب مصري من أسرة عريقة ، ولد وتلقى تعليمه ودراسته في (فرنسا) ، واكتسب خلال سنوات عمره الست عشرة الأولى ، مزيجًا من الاجتماعية الفرنسية ، والانتماء المصري الخالص ، حتى تُوفي والده فجأة ، ومع وفاته برزت مشكلة ضخمة إلى السطح ..

لقد تبين فجأة ، أن والده كان متزوجًا من سيدة مصرية ، أنجب منها ثلاثة أبناء ، قبل أن يلتقي بوالدة (إميل) ويتزوجها ..

ومع بروز هذه المشكلة ، التي لم يألفها المجتمع الفرنسي ، اضطرت والدة (إميل) إلى النزوح إلى (القاهرة) بصحبة ابنها ، وخوض معركة قضائية ، استغرقت ست سنوات كاملة ، قبل أن يصدر الحكم لصالحها ، ويحصل (إميل) على نصيبه من تركة والده ..

وفي فترة ما ، خلال هذه السنوات الست ، اتصلت المخابرات المصرية بالشاب ، وأقنعته بالعمل لحسابها ..

أو أنه هو الذي اتصل بها بوسيلة ما ، وتطوع للعمل معها ..

لا يمكننا الجزم بهذا أو ذاك ، إذ إن التفاصيل ما زالت تندرج تحت بند السرّية المطلقة ، ولكن المهم أن (إميل) لم يعد إلى (باريس) ، إلا وهو ينتمي قلبًا وقالبًا إلى (مصر) ..

وإلى المخابرات العامة المصرية ، التى حصل فيها على الاسم الرمزى (ببير) ..

وما إن أنهى (إميل دروبيه) دراسته الجامعية فى (باريس) حتى استقل ما ورثه عن والده المصرى ، وما تلقاه من تعليمات جهاز المخابرات ، ليبدأ نشاطه التجارى ، الذى لم يلبث أن قاده ، على نحو بدا منطقيًا تمامًا ، إلى الانتقال إلى (تل أبيب) ، التى لم يكد يصل إليها ، حتى بدأ يتحرك ويتصرف كرجل أعمال ناجح نشيط ، فراح يستعلم عن عناوين مكاتب الاستيراد والتصدير ، والشركات المختصة بصقل وتسويق الماس ، وكميات البوتاس التى يتم استخراجها من البحر الميت ، ومراكز تجارة الموالح ..

وكان مسيو (دروبيه) شابًا أنيقًا رقيقًا للغاية ، يدرك أهمية المظاهر ، بالنسبة لمن يعملون بالتجارة ، ويعقدون الصفقات الكبيرة ، فاتخذ مسكنًا فاخرًا ، بالقرب من مشرب (رولاو) ، أشهر مشارب (تل أبيب) ، وابتاع سيارة حديثة أنيقة ، كان يقودها دائمًا بنفسه ، بزعم أنه لا يثق فى السائقين ، وفى بعض الأحيان كان يقضى أمسياته فى (رولاو) ، أو فى بعض النوادى الفاخرة ، حيث ينفق فى بذخ ، ويحيا وكأنما خلقت الدنيا من أجله ..

وكان من الطبيعى ، والحال هكذا ، أن يصبح (إميل دروبيه) نجمًا

من نجوم المجتمع الإسرائيلى ، وعالم المال والأعمال ، فاتسعت صلاته واتصالاته ، والتف حوله عدد هائل من التجار والسماسرة والمنتفعين ، واستقر به المقام أكثر وأكثر فى (تل أبيب) ، ثم وصلته الأوامر من (القاهرة) ، ليبدأ فى إنجاز المهمة التى جاء من أجلها إلىٰ (إسرائيل) ..

إنشاء شبكة من الجواسيس ، والحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات ..

ولم يكد (إميل) يشرع فى مهمته ، حتى انتشرت شائعة استعداد (إسرائيل) لصنع المقاتلة النفاثة ..

وبسرعة ، وصلت الأوامر الجديدة للفرنسى (إميل دروبيه) ..

لابد من تحديد ما توصل إليه الإسرائيليون فى هذا المضمار ، وبمنتهى الدقة ..

والعجيب أنه ، وبينما كان (إميل) يدرس الأمر ، ويسعى لوضع خطة لتنفيذ التعليمات ، ألقى القدر إليه بالفاتنة (ماجى بشنس) ..

كانت (ماجى) نموذجًا فريدًا للجمال والفتنة ، ولقد التقى بها (إميل) لأول مرة فى مطعم أسماك مُطل على البحر ، فى الثالثة بعد الظهر ، فى أحد أيام الاحاد ، ويومها كانت بصحبة بدين أصلع ، يوحى مظهره بالثراء وفساد الذوق فى آن واحد ،

زعمت انه عمها ، على الرغم من أن حديثها معه وتدللها عليه ، كانا يوحيان بغير هذا تمامًا ..

ولم تكن فتنة (ماجى) وحدها التى جذبت إليها انتباه (إميل) ، وإنما إقبالها الشديد النهم على الطعام ، على نحو جعله يتساءل عما إذا كانت قد تناولت طعامًا من قبل ، فى حياتها كلها !!..

ولم تكد (ماجى) تنتهى من طعامها ، حتى خُيِّل إليه أنها تحولت إلى شخص آخر تمامًا ، فقد تعالت ضحكاتها ، وشملها مرح عجيب ، ثم راحت تختلس النظرات إليه ، وتلوح له بيدها خلسة ، بعدما رأته من اهتمام العاملين الشديد به ، وبذخه الواضح فى الإنفاق ، مع أناقته ووسامته المبهرتين ..

وعندما لاحظ (إميل) اهتمامها به ، أنهى طعامه ، ونهض يعلن لصاحب المطعم فى صوت مسموع أنه سيعود مرة أخرى فى الثامنة ، ويرغب فى تناول عشاء من المحار ، فانتفض صاحب المطعم ، ووعده بأن يكون المحار جاهزًا ، حتى ولو اضطر للغوص فى أعماق البحر بنفسه لصيده ..

وقبل أن ينصرف (إميل) ، وزع هباته السخية على العاملين فى المطعم ، ثم أومأ برأسه للفاتنة (ماجى) ، وانصرف لا يلوى على شىء ..

ولا أحد يدرى ، حتى هذه اللحظة ، لماذا انتقى (إميل) (ماجى) بالتحديد ، ولكن يبدو ، وهذا أميل إلى المنطق ، أنه لم يكن اختيارًا عشوائيًا ، ولم تكن مصادفة محضة ، بل يؤمن البعض ، على الرغم من عدم وجود تأكيدات رسمية ، بأن الانتقاء بتلك الفتاة كان مدبرًا ، بواسطة عميل آخر ، لم يتم الكشف عنه بعد ..

المهم أن (إميل) عاد إلى المطعم بالفعل ، فى تمام الثامنة ، ليجد كل ما أراده فى انتظاره ..

المحار .. و(ماجى) ..

ولم تمض دقائق على وصوله ، حتى كانت تجمعهما مائدة واحدة ، و(ماجى) تطلق ضحكاتها المرحة ، وهى تستعيد تفاصيل ذلك الموعد ، الذى حصلا عليه من خلف ظهر عمها المزعوم ..

وعندما وصل المحار ، تحولت (ماجى) مرة أخرى إلى آلة نهمة للأكل ، وكأنما حرمت الطعام طيلة عمرها ، وبعد أن التهمت أكثر من نصف كمية المحار ، تفجر مرحها الزائد ، وراحت تروى الكثير والكثير عن حياتها ..

واعترفت (ماجى) بأن ذلك العجوز ليس عمها ، وبأنها تنتمى إلى أسرة فقيرة للغاية ، حتى إنها عاشت حياتها كلها تعانى من نقص الطعام ، حتى بعد أن التحقت بالعمل فى مصنع (بيديك)

للطائرات ، الذى تعمل فيه من السابعة صباحًا إلى الواحدة بعد الظهر ، ومن الرابعة حتى السابعة مساءً ، نظير أجر شهرى لا يتجاوز السبعين ليرة ، تدفع منها أربعين ليرة لأسرتها ، مقابل الإقامة والمأكل ، وتنفق عشرين ليرة أخرى على المواصلات ، نظرًا لأن أتوبيس المصنع لا يصل إلى حيث تقيم ، ثم يتبقى لها عشر ليرات ، تكفى بالكاد لشراء ثلاث علب من السجائر الرخيصة ..

والتقط (إميل) كل المعلومات فى صمت ، ودون أن يعلق بحرف واحد ، شأن أى جاسوس محترف ، ثم غادر المطعم مع (ماجى) ، وقضيا معًا ما تبقى من الليل فى جولة بالسيارة على الشاطئ ، انبهرت لها (ماجى) ، وأدركت أنها وقعت على صيد ثمين ، لا يمكنها أن تسمح له بالإفلات منها ، مهما كان الثمن ..

ولم يكتف (إميل) بهذا ..

لقد انتظرها فى اليوم التالى أمام المصنع ، ولم يكد بصرها يقع عليه ، بعد انتهاء نوبة عملها الأولى فى الظهر ، حتى أطلقت صرخة فرح ، وقفزت تتعلق بعنقه ، أمام زميلاتها ، اللاتى انبهرن بذلك الفرنسى الوسيم ، صاحب السيارة الفاخرة ، الذى ينتظر (ماجى) ، ويتعامل معها على هذا النحو ..

ولكن (إميل) كان يعد مفاجأة أكثر قوة ..

لقد اصطحب (ماجى) فى جولة إلى أفخر متاجر الثياب والعطور ، فى قلب (تل أبيب) ، وأظهر كرمًا وبذخًا غير عاديين ، وهو يبتاع لها عددًا من الثياب الأنيقة ، والعطور الغالية ، التى خفق لها قلب (ماجى) ، وسال معها لعابها ، وتضاعف إصرارها على الاحتفاظ برفيقها الجديد ، مهما كان الثمن ..

وعندما أيقن (إميل) تمامًا من أن (ماجى) لم تعد تستطيع الابتعاد عنه ، انتقل على الفور إلى الجزء الثانى من الخطة ..

لقد انتهز يوم عطلة ، صحبها خلاله إلى بعض أماكن التنزه ، ثم تناولا الغداء فى مطعم فاخر يطل على البحر ، وانتهت أمسيتهما بجولة فى الأندية وأماكن اللهو ، قبل أن يستقر بهما المقام فى منزله ، الذى جلس فى شرفته شاردًا ، يتطلع إلى البحر فى صمت ، جعلها تقترب منه ، وتسأله فى شىء من القلق الهامس :

ـ ماذا بك ؟ .. ما الذى يشغل بالك ؟

استعان بكل مهاراته ، ليطلق من أعماق صدره زفرة ملتهبة ، قبل أن يجيب :

ـ أحوالى المالية ليست على ما يرام ، فى الآونة الأخيرة ، بسبب بعض الصفقات الخاسرة ، التى أفقدتنى الكثير من الأموال .

هوى قلبها بين قدميها ، وتسلل الذعر إلى كيانها ، وبكت فى

حسرة ، وهى تتهم نفسها بأنها تجلب سوء الحظ لكل من تعرفهم ، إلا أنه طيب خاطرها ، وهو يقول :

- ليس إلى هذا الحد .. الواقع أننى أدرس مشروعًا ربما يحقق أرباحًا خرافية ، تعوّض كل الخسائر السابقة .

بدت لهفة متسائلة فى عينيها ، فتابع فى خفوت شارد ، وكأنه يتحدث إلى نفسه :

- لا شىء يحقق أرباحًا تفوق تجارة الأسلحة ، ولو أننى تعاقدت مع الحكومة الإسرائيلية لتوريد بعض مستلزمات التسليح ، لحققنا أرباحًا هائلة ، ولكن هناك مشكلة .

سألته فى لهفة :

- أية مشكلة ؟

هز رأسه فى أسى ، وهو يجيب :

- إتمام مثل هذه الصفقات يحتاج إلى مبالغ كبيرة ، وإلى سماسرة يتقاضون نسبًا مخيفة ، ولو أمكننا تجاوز هذا العائق ، ستتم الصفقة على نحو رائع .. لابد وأن نعرف بالضبط ما الذى يحتاج إليه الإسرائيليون ، ونتقدم به ، فتتم الموافقة عليه بسرعة ، دون وسطاء أو سماسرة .

ثم التفت إليها ، مستطردًا بنظرة رجاء :

- وأعتقد أنك تستطيعين مساعدتى فى هذا يا (ماجى) .. أليس كذلك ؟

خفق قلبها فى عنف ، وأدهشها أن يحتاج أى مخلوق إلى مساعدتها ، فى أى يوم من الأيام؛ لذا فقد سألته فى انفعال :

- وما الذى يمكننى أن أفعله لمساعدتك يا (إميل) ؟

تطلع إلى عينيها مباشرة ، وهو يجيب :

- لو أننا حصلنا على قائمة بالمصاعب التى تعترض صناعة الطائرات ، يمكننى أن أتقدم بعرض مناسب ، و... إحم .. أعلم أن المسألة حساسة للغاية ، ولكن ..

وبتر عبارته بغتة ، وتنهد فى عمق ، ثم لوح بيده ، وأشاح بوجهه ، قائلاً :

- آه .. معذرة يا (ماجى) .. لست أدرى لماذا خطرت هذه الفكرة ببالى .. من الواضح أنه لا يمكنك التورط فى أمر كهذا .

هتفت بكل حماسها وانفعالها :

- من قال هذا ؟ .. إننى مستعدة لفعل أى شىء من أجلك .

ثم تراجعت ، وغمغمت مستطردة فى حزم :

- ثم إننى لست غبية كما تتصور ..

وكانت العبارة الأخيرة بالذات تضع النقاط فوق الحروف ..

إنها تعنى أن (ماجى) تفهم حدود الموقف إلى حد ما ..

وأنها مستعدة لأداء كل ما يطلب منها بشأنه ..

وهنا بدأ العمل الحقيقي ..

لقد درس (إميل) الأمر ، ووجد أن الوصول إلى الهدف يستلزم المرور بخطوة جوهرية ، وهى أن يطلع (إميل) على مراسلات المصنع ، ليتفهم احتياجاته الضرورية ، ويتبين كل ما يحتاج إليه من خامات ومواد أساسية ..

وكانت هذه وسيلة جيدة للغاية؛ لتحديد ما إذا كان المصنع يستعد بالفعل لصنع تلك المقاتلة النفاثة ، أم أن هذا لم يبدأ بعد ..

وتطوعت (ماجى) بجلب كل ورقة ، تبدو لها مهمة ، بوسيلة سرية للغاية ، إلا أن هذا الأمر لم يسفر عن أكثر من الحصول على طن من الأوراق عديمة الأهمية ، إذ إنه لم يكن من السهل أبدًا خروج الأوراق والوثائق المهمة من المصنع ، وإن وجدت (ماجى) وسيلة للاطلاع عليها داخله ..

وهكذا كان من الضرورى أن يتم الانتقال إلى خطوة جديدة ..

وفى أول لقاء لهما ، اقترح (إميل) وسيلة للحصول على تلك الوثائق المهمة ، وكانت هذه الوسيلة عبارة عن آلة تصوير دقيقة ، ثبتها فى مقبض حقيبة يدها ، بعد أن لقنها وسيلة التقاط صور الوثائق فى الضوء العادى ..

ومع هذا التطور الجديد ، توقفت (ماجى) لتعلن موقفها ، وهى تقول فى حرص :

ـ لا بأس يا (إميل) .. إننى مستعدة لارتكاب أية حماقات ، وخوض أية مخاطر ممكنة ، ما دام هذا سيعاوننى على تحقيق رغبتى فى الاستقرار ، وإقامة عش سعيد جميل .

أدرك (إميل) ما ترمى إليه (ماجى) على الفور ، فأسرع يعرض عليها الزواج ، وعلى الرغم من سعادتها البالغة بعرضه ، إلا أنها أعلنت خشيتها من إتمام الزواج فى (إسرائيل) ، نظرًا لمشكلات الإنجاب والجنسية ، التى تنشأ مع زواج الأجانب ، وطلبت منه تأجيل زواجهما ، حتى يتم عقده فى (باريس) ، فوافق على الفور ، وأعلنها أنه يكاد يطير فرحًا ، ولا يطيق صبرًا لانتهاء المهمة ، حتى يمكنهما السفر إلى (باريس) ، وعقد قرانهما هناك ..

ومع فرحتها بالاتفاق ، انطلقت (ماجى) تنفذ عملها الجديد فى حماس منقطع النظير ، وراحت تلتقط صورًا ناجحة ، لكل ما يقع تحت يدها من أوراق ورسوم هندسية أو تخطيطية ، أو وثائق توحى بالأهمية أو الخطورة ..

والعجيب أن (ماجى) اندمجت فى عملها هذا بحماس بالغ ، حولها فى أشهر قليلة إلى عميلة محترفة ، لم يعد يشغلها أمر الزواج من (إميل) ، بقدر ما يشغلها النجاح ، وإثبات جدارتها ، والحصول على قدر كاف من المعلومات السرية والبالغة الخطورة ..

وبفضل هذا الحماس ، حصلت (مصر) على جواب السؤال ، الذى تم من أجله تجنيد (ماجى بشنس) ، ودفعها إلى عالم العمل السرى ..

لقد ثبت أن الإنتاج الإسرائيلى لم يكن يتجاوز صنع بعض النماذج البسيطة من طائرات (أرافا) ، وهى طراز متواضع من الطائرة (أطلس) ، لا يصلح إلا لنقل عدد محدود من الأشخاص ، لا يتجاوز العشرين ، أو طنين من البضائع على الأكثر ، وتجديد عدد من طائرات (كومودور) الأمريكية ، التى تم الاستغناء عنها ، بعد سنوات من العمل الشاق ..

وصحيح أنه كان هناك رجل يدعى (أولشى فيمر) ، ويحلم بصنع المقاتلة النفاثة ، إلا أن حلمه هذا كان يفتقر إلى التصميمات الرئيسة ، والتقارير الجادة ، ولم يتجاوز عمليًا مرحلة الحلم بعد ..

وكان الحصول على هذه المعلومة وحدها ، يعنى أن عملية المقاتلة الإسرائيلية ، قد نجحت نجاحًا تامًا ..

إلا أنها لم تكن نهاية المطاف ..

لقد اندمجت (ماجى) فى العمل أكثر وأكثر ، وتم تدريبها بواسطة خبير من خبراء المخابرات المصرية ، وظلت تزود (مصر) بأهم البيانات والقوائم والرسوم التفصيلية ، وخطط الإنتاج الخاصة بصناعة الطائرات فى (إسرائيل) ، طوال ثلاث سنوات كاملة ..

والعجيب أنها لم تتزوج (إميل) قط ..

ولم تعد تطالب بهذا ..

أما (إميل) نفسه ، فقد حصل على تصريح بالإقامة فى (تل أبيب) للمرة الثالثة ، وواصل عقد صفقاته التجارية هناك ، فى نفس الوقت الذى أنشأ فيه واحدة من أقوى وأنجح شبكات التجسس المصرية فى قلب (إسرائيل) ، لحساب المخابرات العامة المصرية ، التى لم تنس أبدًا ذلك العميل ، الذى حقق كل هذه النجاحات بقلب مصرى ، وتحت علم (مصر) ..

العميل الفرنسى .

* * *

اللعبة اليونانية

انهمك (نيقولا جورج كويس) منسق الديكور اليونانى الجنسية ، المصرى المولد ، فى إعداد وتنسيق جناح (مصر) فى معرض (ميلانو) الدولى ، عام 1959 م ، وتحركت أصابعه الماهرة الخبيرة لتضع اللمسات الفنية الأخيرة على عمله ، الذى بدا أنيقًا مبهرًا ، خلب لب العاملين معه وأثار حسد وغيرة أصحاب الأجنحة الأخرى ، وتراجع (نيقولا) ليلقى نظرة شاملة على عمله ، وهو يبتسم فى ثقة وزهو ، عندما سمع تصفيقًا حارًا أنيقًا يأتى من خلفه ، مع صوت يقول بالإيطالية ، رائع .. عمل رائع بحق ..

التفت (نيقولا) إلى صاحب الصوت ، الذى بدا له إيطاليًا ، من قمة رأسه حتى أخمص قدميه ، وهو يواصل فى حرارة :

- أنت موهوب بحق يا (نيقولا) .

سأله (نيقولا) فى دهشة ، وهو يتأمله فى حذر :

هل تعرفنى ؟

مد الرجل يده يصافحه ، قائلاً :

- بالطبع .. من ذا الذى يجهل أبرع منسق ديكور .. أنا (إميليو فرانشيسكو) .. مهندس ديكور ، وأعلم أنك أيضًا منسق ديكور ، فى شركة ملابس الأهرام .. أليس كذلك ؟

أكملا حديثهما فى كافيتريا المعرض ، وأخبره (إميليو) أنه يحتاج إلى من يمثله فى (القاهرة) ، وحدد له موعدًا فى المساء التالى ، ليلتقى بمدير الشركة ، التى يعمل بها ..

وعاد (نيقولا) إلى عمله ، وهو يبتسم فى سعادة ، وانتظر بفارغ الصبر ، حتى جاء اليوم التالى ، وأسرع إلى محل حلوانى فى قلب (ميلانو) ، حيث التقى مرة أخرى بـ (إميليو) ، والذى اصطحب معه هذه المرة مديره المزعوم ، وقدمه إليه باسم (أرمان جالوب) ، وأكد له أنه معجب أيضًا بعمله ، وتبادل الثلاثة أطراف الحديث ، وألقى (أرمان) على (نيقولا) عدة أسئلة ، حول (القاهرة) ، وأحوالها ، وعلاقته بها ، ثم انتهى الحديث ، وانتهى اللقاء ، دون أن يحصل (نيقولا) على العمل ، الذى وعده به (إميليو) ، أو حتى يشير إليه (أرمان) ..

وطوال فترة المعرض ، كان (نيقولا) بالغ التوتر ، يبحث دون جدوى عن (إميليو) أو (أرمان) ، دون أن يجد لهما أثرًا ، أو يعثر على عنوان أحدهما ..

ثم اتصل به (إميليو) فجأة ، وقال :

أنت حسن الحظ يا صاح .. لقد استطلع (أرمان) عنك ، وعلم أنك بارع ونشيط ، ولك اتصالات واسعة ، وهو ينتظرك في (روما) لتوقيع عقد العمل .

قال (نيقولا) في حذر :

وماذا عن النفقات ؟

ضحك (إميليو) وقال :

ـ اطمئن .. سأرسل إليك عشرة آلاف ليرة إيطالية ، وستجد حجرة محجوزة باسمك في (روما) ، في فندق (ديانا) .. وهناك سيتصل بك (أرمان) .

وعندما انتهت المحادثة ، كان (نيقولا) يكاد يطير من فرط السعادة ، في حين كان (إميليو) يسأل (أرمان) ، الذي يجلس إلى جواره في مكتبه .

ـ ما رأيك ؟.. أتظنه يفيدنا كثيرًا ؟

أومأ (أرمان) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بالتأكيد .. لقد درسوا أمره جيدًا في (تل أبيب) ..

هذا لأن (إميليو) و(أرمان) لم يكونا إيطاليين ، على الرغم من هيئتهما ولغتهما .. كانا في الواقع ضابطي مخابرات .. وإسرائيليين ..

* * *

انتهى المعرض ، وسافر (نيقولا) إلى (ميلانو) ، ووجد بالفعل حجرة محجوزة باسمه ، في فندق (ديانا) ، وأرسل إليه (إميليو) عشرة الآلاف ليرة الإيطالية قبيل سفره بالفعل ، ولكن .. لم يظهر (أرمان) أبدًا ..

لقد انتظر (نيقولا) عدة أيام ، دون أن يظهر (أرمان) أو يتصل ، ومبلغ عشرة الآلاف ليرة يتبخر وينكمش ، وأعصاب (نيقولا) تتوتر وتلتهب .

ثم حدث الاتصال ..

لم يكن الذى اتصل هو (أرمان) ، وإنما شخص آخر قدم نفسه باسم (سميث بيترز) ، وقال إنه صديق (أرمان) ، وأنه سيلتقى بـ (نيقولا) فى الصباح التالى ، فى قهوة قريبة من الفندق .

والتقى (نيقولا) ، مع (سميث) الذى بدا له أنيقًا ، قويًا ، يختلف عن (إميليو) و(أرمان) ، بشاربه الأشيب ، ووجهه العريض ، وتحدثا لمدة ساعة كاملة ، أكد (سميث) بعدها أنه سيلتقى به مرة ثانية ، لحسم الأمر ، وتوقيع العقد ..

وفى هذه المرة نفدت نقود (نيقولا) وهوى قلبه بين قدميه ، وانهارت أعصابه ، وهو يضرب أخماسًا فى أسداس ، ويتساءل كيف يحصل على طعامه وشرابه ؟..

بل كيف يعود إلى (القاهرة) ؟..

وعندما تأزمت الأمور ، وبلغت حدها الأقصى ، ظهر (سميث) فجأة ، واتصل هاتفيًا ، وقال إنه سيحضر لزيارة (نيقولا) فى حجرته بالفندق ..

وتنفس (نيقولا) الصعداء ، وانتظر حضور (سميث) فى لهفة ، ولم يكد يلتقى به فى حجرته ، حتى هتف بكل العصبية الكامنة فى أعماقه :

ـ أين كنت يا رجل ؟ كاد القلق يقتلنى .

أزاحه (سميث) من أمامه فى غطرسة ، واتخذ لنفسه مقعدًا بجوار فراش (نيقولا) ، وهو يرفع عينيه إلى هذا الأخير ، ويقول فى بطء :

ـ نريدك أن تعمل معنا .

قال (نيقولا) فى حيرة .

ـ وأنا وافقت وانتظر توقيع العقد .

اعتدل (سميث) ، وتطلع إلى عينى (نيقولا) مباشرة ، وهو يقول :

ـ ولكنك لم تعلم من نحن .. إننا من (الموساد) .. المخابرات الإسرائيلية ..

شحب وجه (نيقولا) وردد الاسم فى ذعر ، وهو يلقى جسده على طرف فراشه ، فى حين تابع (سميث) :

ـ دعنا نتعامل بواقعية يا رجل .. صحيح أنك مصرى المولد ، ولكنك لست مصريًا ولن تشعر بالانتماء إلى (مصر) أبدًا .

غمغم (نيقولا) فى توتر بالغ :

ـ ليست هذه هى القضية ، ولكن ..

قاطعه (سميث) ، وهو يقول :

ـ ستحصل على مئة دولار شهريًا ، مقابل عدد من المعلومات العسكرية ، والسياسية ، والاقتصادية عن (مصر) وسنحيطك برعايتنا واهتمامنا ، على نحو يجعلك آمنًا تمامًا ، ومن المستحيل أن يكشف المصريون أمرك .

ولم يتردد (نيقولا) طويلاً هذه المرة ، أمام إغراء النقود ..

وهوى ..

وفى الأيام التالية ، بدأ خبراء (الموساد) عملية تدريب (نيقولا) على استخدام الحبر السرى ، وأعطوه زجاجة دواء للشعر ، تحوى فى واقع الأمر حبرًا سريًا ودفترًا به أوراق خاصة لكتابة الرسائل السرية ، ومنحوه اسمًا كوديًا وهو (فلاش) ، كما حددوا له مهمته ، وهى جمع كل ما يمكنه من معلومات ، عن مواقع الطائرات المصرية ، والرادارات ، والوحدات العسكرية المهمة ، والحالة الاقتصادية ، والأزمات التموينية ، وعن كل ما يبلغه من معلومات سياسية أو أمنية ..

وفى نهاية فترة التدريب ، أعطاه (سميث) أربعين ألف ليرة إيطالية ، لسداد حساب الفندق ، وتغطية نفقات السفر ..

وعاد (نيقولا) إلى (القاهرة) ، التى ولد وعاش بها ، وهو يُعد نفسه لخيانتها ، ونقل أسرار (مصر) كلها إلى (إسرائيل) ..

وبكل النشاط والحماس راح (نيقولا) يختلط بالمجتمعات ، والناس ، والجيران ، ويشترك بكل نشاط ممكن ، حتى يجمع أكبر قدر ممكن من الأسرار ، ويجوب كل المناطق العسكرية فى (مصر) ، وهو يشحذ بصره وسمعه ، ويستخدم الحبر السرى من زجاجة دواء الشعر ، لينقل كل ما يحصل عليه إلى (سميث) فى (روما) ، ليقوم هذا الأخير بنقله مباشرة إلى (تل أبيب) ..

ثم انتقل (نيقولا) إلى المرحلة الثانية ..

ولقد بدأت هذه المرحلة أثناء حديثه مع صديقه اليونانى أيضًا (جورج ستماتيو) . الذى سأله فى لهفة :

ـ من الواضح أن أعمالك رائجة هذه الأيام يا (نيقولا) .. أليس كذلك ؟

رمقه (نيقولا) بنظرة جانبية ، قبل أن يسأله :

ـ لماذا تتصور هذا ؟

ازدرد (جورج) لعابه ، وهو يجيب :

ـ كل شىء فيك يوحى بهذا .. إنك تنفق ببذخ ، وترتدى أفخر الثياب ، وتقضى لياليك فى الفنادق الفاخرة .

ابتسم (نيقولا) ، وقال :

ـ هل تحب أن تحيا مثلى ؟

ـ هتف (جورج) ، واللهفة تحفر ملامحها فى وجهه بوضوح ، وتمتزج بصوته الأجش :

ـ بالتأكيد .. من ذا الذى يرفض العيش هكذا ؟

ـ وهنا مال (نيقولا) نحوه وقال :

ـ حتى ولو كان يعمل لحساب (الموساد) .

بهت (جورج) لهذا الأسلوب المباشر وتراجع كالمصعوق ، ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه ، وقال فى حزم :

ـ نعم .. حتى ولو أعمل لحساب الشيطان نفسه .

ثم استدرك فى قلق وإحباط :

ـ ولكن كيف يفيد (الموساد) منى ؟.. إننى مجرد جارسون فى محلات (جروبى) .

أفهمه (نيقولا) أن عمله بالغ الأهمية ، لأن زبائن المحال الكبيرة مثل (جروبى) يتحدثون دائمًا فى طلاقة ، ويسردون كل ما لديهم ، دون أن ينتبه أحدهم إلى أن (الجارسون) يستمع ،

ويدخر المعلومات ، ويخزنها فى عقله ، ثم ينقلها إلى الأعداء ..

ووافق (جورج) على العمل لحساب (الموساد) مقابل خمسين جنيهًا مصريًا فى الشهر الواحد ، وأرسل (نيقولا) يخبر (سميث) بالأمر ..

ووافق (سميث) على تجنيد (جورج) ، بعد موافقة رؤسائه فى (تل أبيب) ، وطلب من الرجلين (نيقولا) و(جورج) العمل بكثافة أكبر ، ونقل المزيد والمزيد من المعلومات ..

ونشطت اللعبة اليونانية ..

* * *

كان (نيقولا) فى قمة نشاطه وثقته .. فى ذلك الصباح ، الذى انتهى فيه من إعداد وتنسيق واجهة المعرض الرئيس لشركة (الأهرام) ، حيث يعمل ، وراح يلقى نكاته ودعاباته على من حوله ، واستدعى عامل البوفيه ، وطلب منه إحضار الشاى للجميع على حسابه . فى نفس اللحظة التى وصل فيها شاب طويل القامة ، ممشوق القوام ، يخفى عينيه بمنظار داكن ، لم يلبث أن خلعه ، عندما دخل إلى المكان ، واتجه إلى (نيقولا) مباشرة ، وهو يقول :

ـ أنت (نيقولا كويس) .. أليس كذلك ؟

تطلع إليه (نيقولا) بشيء من الزهو والتعالي، وقد ظنه زبونًا جديدًا، جاء يفاوضه من أجل تنسيق واجهة متجره، أو إضافة لمسة جمالية على معرضه وقال:

- بلى .. أنا هو (نيقولا كويس)، ولكن ينبغي أن تعلم أنني مشغول لشهر كامل، و...

اختنقت الكلمات في صدره وغص بها حلقه، وهو يحدق في تلك البطاقة الصغيرة، التي أبرزها الشاب أمام عينيه، الذي يقول في صرامة وحزم:

- هيا بنا.

ودون أن يضيف الشاب حرفًا آخر، تراجع مفسحًا الطريق أمام (نيقولا) الذي غاب الزهو والغرور عن وجهه تمامًا، وحل محلهما شحوب رهيب، جعل رفاقه يسألونه في جزع:

- ماذا حدث يا (نيقولا)؟.. من هذا الرجل؟

ولم يجب (نيقولا)..

وفي اللحظة نفسها، في محل (جروبي) بوسط البلد، اعترض شاب آخر عريض المنكبين طريق الجارسون (جورج ستماتيو)، وهو يقول:

- (جورج).. سلم ما لديك من إيراد لصاحب المحل، واتبعني.

سأله (جورج)، في ذعر:

- إلى أين؟

أجابه الرجل في حزم مخيف:

- إلى حيث تنضم لزميلك (نيقولا كويس) ثم مال نحوه، مستطردًا:

- لقد ألقينا القبض عليه.

كاد (جورج) يسقط فاقد الوعي، لولا وجود الرجلين اللذين أحاطا به، وكبلا حركته في سرعة، وبمهارة لم تلفت انتباه أي من زبائن المحل لما يحدث، فهتف بصوت مختنق، تمتزج فيه الكلمات بالدموع:

- سأعترف .. سأعترف بكل شيء..

وفي حجرة واسعة، من حجرات مبنى المخابرات، في كوبري القبة، سالت دموع (نيقولا) وهو يسأل ضابط المخابرات الشاب، الذي يجلس أمامه:

- منذ متى تعلمون؟

هز الضابط الشاب كتفيه فى هدوء ، وأجاب :

ـ منذ البداية تقريبًا .

حدق (نيقولا) فى وجهه مشدوهًا ، وردد :

ـ منذ البداية ؟.. كيف ؟

ابتسم الضابط الشاب ، وقال :

ـ إنها ليست أول عملية يقوم بها (إميليو) و(لرمان) ، ونحن نراقبهما منذ زمن ، وعندما التقى بك الأول ، أثناء المعرض ، أثار هذا قلقنا ، وجعلنا نراقبك باهتمام أكبر .

وتنهد قبل أن يستطرد :

ـ وصدقنى .. لقد حاولنا أكثر من مرة تحذيرك بطرق غير مباشرة ، وإنقاذك من الفخ ، الذى يُعدُّه لك الإسرائيليون ، ولكن شهوة المال غلبتك ، وأعمت عينيك عن الحقيقة ، ثم إنك لم تحترم البلد ، الذى منحك المأوى والعمل ، والذى ولدت على أرضه .

ثم قست ملامحه ، وهو يضيف فى صرامة :

ـ لذا فأنت وصديقك تستحقان المصير الذى ينتظركما ..

وانهار (نيقولا) و(جورج) تمامًا .

انهارا ، ولكنهما اعترفا كتابيًا بكل ما نسب إليهما ، وذيلا اعترافهما بتوقيعهما ، وعبارة (سميث بيترز) تدوى فى أذنى (نيقولا) ..

ـ سنحيطك برعايتنا واهتمامنا ، على نحو يجعلك آمنًا تمامًا ، ومن المستحيل أن يكشف المصريون أمرك ..

ظلت هذه العبارة تتردد فى أذنى (نيقولا) .. طوال الفترة التى استغرقتها التحقيقات والتى تمت خلالها محاكمته مع (جورج) أمام المحكمة العسكرية ، التى قدّم إليها رجال المخابرات المصرية كل ما لديهم ، من شرائط ، وصور وتسجيلات ، تدين الرجلين .

بل قدموا زجاجة دواء الشعر ، ودفتر الأوراق ، اللذين كانا مفاجأة حقيقية لمنسق الديكور ، الذى تصور على الرغم من سقوطه أن أحدًا لن ينتبه أبدًا إلى أن زجاجة الدواء تحوى فى الواقع حبرًا سريًا .

وهنا ، وقبل أن يصدر حكم المحكمة بالأشغال الشاقة المؤبدة لكليهما ، أدرك (نيقولا) و(جورج) أن أمرهما قد انتهى وأنهما قد خسرا الشوط الأخير من اللعبة ..

اللعبة اليونانية ..

* * *

ألمانى تحت علم مصر

من المؤكَّد أن هذا الجاسوس بالذات لم يكن أبدًا عاديًا ، أو تقليديًا ..

لقد حقق نجاحات مدهشة ، أثارت حيرة وإعجاب كل من تعامل معه ..

وفشل فشلاً ذريعًا ، أحنق حتى من يميلون إليه ، خالف كل النُّظم ، وحقق انتصارات رائعة ..

وكسر كل القواعد ، وارتكب أخطاء قاتلة ..

ولكنه فى النهاية أدى خدمات جليلة ، لا يمكن نسيانها أو إنكارها ، لجهاز المخابرات العامة المصرية ولـ (مصر) كلها ، فى فترات شديدة الحرج فى تاريخها الحديث ..

إنه (مايكل سميث) الألمانى المولد ، المصرى الانتماء ..

وقصة (مايكل سميث) كلها عجيبة ، بدءًا من مولده فى (ألمانيا) ، عام 1921م ، فقد مات أبوه بعد أيام من ولادته ، ولم تلبث أمه أن لحقت به بعد شهر واحد ، وتركاه يتيم الأبوين ، فى دولة عنصرية ، اندحرت فى الحرب العالمية الأولى ، فانكمشت على نفسها ، ولعقت جراحها ..

وتبنت (سميث) أسرة ألمانية ، تحمل اسم (مولر) وتبنت معه طفلاً يهوديًا ، يحمل اسم (إدوار) ..

ونشأ (سميث) فى تلك الأسرة ، وهو يتعامل مع طفل يهودى ، ويثير خلافات دائمة مع زملاء دراسته ومدرسيه ، وحتى أبناء الجيران ، دون أن ينجح أبواه بالتبنى فى تقويمه ، أو تخليصه من روح العنف فى أعماقه .

ثم التحق (سميث) بالجيش ، وأظهر شيئًا من العنف ، مع الكثير من الجرأة والتفوق ، مما أهَّله للالتحاق بالفرقة الخاصة ، وحصل على عدد من أرفع الأوسمة ، وأبلى بلاءً حسنًا ، على الرغم من انغماسه الشديد فى حياة اللهو ، وإقباله المبالغ فيه على الحياة ..

وفجأة ، سقط (سميث) أسيرًا فى أيدى الأمريكيين خلال الحرب العالمية الثانية وبدا وكأنه قد استسلم لمصيره ..

واستكان لحياة الأسر ، إلا أنه لم يلبث أن فاجأ الجميع بهروبه ، واختفى دون أن يعثر له أحد على أثر ، حتى انهزمت (ألمانيا) ، وانتهت الحرب أو كادت ، فأدرك (سميث) أن الأوسمة التى حصل عليها من قبل ، ستكون هى نفسها المسامير الحادة ، التى تدق فى نعشه وقرر أن يجد لنفسه وسيلة للإفلات من المصير المحتوم ، الذى ينتظر كل النازيين القدامى ..

وفى حركة جريئـة ، اختطف (سميث) طبيبًا ألمانيًا هاربًا ، واقتاده إلى خندق صغير ، وناوله شفرة حلاقة قديمـة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ أريدك أن تجرى لى عملية سريعة . عملية ختان .

كان الطبيب مضطربًا بشدة ،

ولكنه لم يكن يملك سوى الإذعان ..

وبصـلابة نادرة ، احتمـل (سميث) تلك العملية ، دون مخدر أو مطهر ، والطبيب يرتجف أمامه فى هلع ، دون أن يدرك الهدف من إجراء تلك العملية العجيبة ، فى هذه الظروف المعقدة ..

ولكن (سميث) كان يعلم كل شىء ، ويدرك هدفه جيدًا ..

ففى اليوم التالى ، كان (سميث) يتقمص شخصية يهودى هارب من الاضطهاد ، ويهرع إلى أحد معسكرات اللاجئين فى (ميونخ) ، حيث انتحل اسم (ميخائيل زوسمان) ، وصنع لنفسه قصة مأساوية مدروسة ، تقول : إن النازيين قد ذبحوا أباه وأمه بلا رحمـة ، وأنه هرب منهم بأعجوبة ..

ولاقت القصة قبولاً وتعاطفًا ، فى أوساط اليهود ، الذين شجعوه على المضى حتى النهـاية ، فلم يلبث أن سجل اسمه فى الوكالـة اليهودية ، مع رغبته فى الهجرة إلى (إسرائيل) ..

وبسبب خلاف بين اليهود والبريطانيين ، اضطر (سميث) لقضاء أربعة أعوام فى (قبرص) ، قبل أن يصل إلى (إسرائيل) ..

ومع وصوله إلى هناك ، حقق (مايكل سميث) ، ما اعتبره رجال المخابرات أشبه بالمعجزة ..

لقد دفن تاريخه القديم كله ، ومحاه من الوجـود ، وراح ينشر قصته الملفقة ، حتى مد جذوره فى تربـة المجتمـع الجديد ، وتغلغل فيه حتى النخاع ، بل واستقر إلى الحد الذى جعلهم يضمونه إلى صفوف الجيش الإسرائيلى ، حيث أخفى خبراته السابقة ، وشق طريقه بسرعة ، وحصل على رتبة (ملازم) ..

والعجيب أن (سميث) لم يشعر قـط بالفـارق ، بين المؤسسـة العسكرية النازية ، وقرينتهـا الإسرائيلية ، فكلتاهمـا ـ على حد قوله ـ كانت تقوم على نظرية واحدة ..

نظرية التوسع الاستعمارى ..

وأنهى (سميث) فترة الخدمـة العسكرية ، واختـار مستعمرة (أناتيم) موطنًا له ، حيث عمل فى الزراعة ، وصنع لنفسه عالمًا جديدًا ..

وعاد إليه إقباله العنيف على الحياة ..

وذات ليلة ، وفى أحد الملاهى الليلية ، التقطته عين (رفعت الجمال) .. العميل المصرى ، الذى زرعته المخابرات المصرية فى قلب (إسرائيل) تحت اسم (جاك بيتون) ، وبقى فيها قرابة ربع القرن ، دون أن ينكشف أمره ..

ولا أحد يدرى كيف أدرك (رفعت الجمال) ما يُخفيه (مايكل سميث) !!

ولا كيف كشف أمره ..

ولكن الطيور على أشكالها تقع ..

ولم يحاول (رفعت الجمال) تجنيد (مايكل سميث) ، أو حتى مناقشته فى الأمر ، أو التلويح إليه من بعيد ، فمهمته كانت تقتصر ـ طبقًا لأوامر المخابرات العامة المصرية ـ على ترشيحه ، ودفعه إلى السفر إلى (باريس) ، بطريقة تبدو عادية ، وغير مثيرة للشبهات ، ثم ينسى الأمر برمته ، ويقطع كل علاقاته به للأبد ..

وهنا بدأت مهمة المخابرات المصرية ..

وفى (باريس) ، عرف (مايكل سميث) أنه سيعمل لحساب المخابرات المصرية ، وأبدى استعداده التام لهذا ، وحذره رجل المخابرات المصرى ، الذى عمل على تجنيده ، قائلاً :

ـ ينبغى أن تبدل كل حياتك السابقة يا (سميث) .. لا خمر ، ولا نساء ، ولا مقامرة ..

هتف (سميث) دون تردُّد :

ـ ومن ذا الذى يعود إليها بعد الآن ؟

وبدأ عمله على الفور ..

وتفوق فيه ..

لقد نجح فى تزويد (مصر) بمعلومات بالغة الدقة والخطورة ، وشديدة الأهمية والخصوصية ولكنه كان يستخدم من الأساليب أكثرها جرأة وخطورة ، ويقدم على بعض الأعمال فى التجارية مدهشة ، ليُحقق معها نتائج رائعة ..

ولكنه لم يف بوعده ..

لقد عاد إلى كل ما حذّره منه رجل المخابرات المصرى ، وارتبط مرة ثانية بفتاة إسرائيلية وعاد يعاقر الخمر ويرتاد أماكن اللهو والقمار ..

ولأن العبث بالقواعد لا يؤدى ـ فى عالم المخابرات ـ إلى النجاح ، فقد وقع (سميث) فى خطأ فادح .

لقد أطلع فتاته على صورة له، في زى قوات الصاعقة الألمانية، وتباهى بأنه كان مقاتلاً ألمانيًا وبسرعة غير متوقعة، دفع (سميث) الثمن ..

لقد أطبقت عليه الشرطة الاسرائيلية قبل بزوغ الشمس، بعد أن وشت به الفتاة، وتعرض لاستجوابات قاسية عنيفة، حاول خلالها إقناع المسئولين بأنه اعتنق اليهودية عن اقتناع، إلا أن أحدًا لم يصدقه، فتم طرده من (اسرائيل)، وصودرت كل ممتلكاته ..

ولم تمض أيام معدودات، حتى وجد (سميث) نفسه وحيدًا في (جنوة)، بلا نقود، أو عمل، أو جنسية، فهرع إلى القنصلية المصرية، وبدا شديد الثقة، وهو يقول:

- أريد مقابلة أحد المسئولين هنا.

سأله موظف الاستقبال بلهجة مهذبة.

- هل يوجد سبب محدد ؟

أجابه في خيلاء وهو يتصور نفسه نجما شهيرًا، في سماء (مصر):

(نعم .. إنهم يعرفونني أنا صديق قديم).

غاب الموظف طويلاً، ثم عاد يعتذر في أدب، ويعلن (سميث) أن أحدًا لا يعرفه، ولا يرغب في مقابلته ..

وثار (سميث)، وهاج وماج، ولكنه اضطر في النهاية إلى الانصراف ..

ومع توتره الزائد، شعر (سميث) بشخص يتبعه في إلحاح، فاستدار يواجهه في عنف، ورفع قبضته ليضربه، ولكن الرجل احتفظ بهدوئه، وهو يقول:

- أنت قادم من قبل أصدقائك المصريين

- المصريون ؟!. ولكنهم رفضوا استقبالي ..

ابتسم الرجل، وقال:

- أبدًا. كل ما حدث هو أنك أخطأت الباب الذى تطرقه ..

ولم تمض ساعة واحدة، حتى كان (سميث) يتناول وجبة فاخرة، ويدس جسده تحت أغطية فراش وثير، وينام ملء جفنيه، ولكنه لم يكد يستيقظ في الصباح، ويأخذ حمامًا ساخنًا، ويتناول وجبة شهية، ويرتدى ثيابا جديدة نظيفة، حتى وجد أمامه رجل المخابرات المصرى، الذى قام بتجنيده، وهو يرمقه بنظرة صارمة، قائلاً:

- ألم أحذرك من كل هذا ؟

وبعد فاصل طويل من التأنيب والتقريع سلم رجل المخابرات (سميث) جواز سفر باسمه الحقيقى، وعشرة آلاف مارك،

وطلب منه السفر إلى (فرانكفورت) ، وأخبره أنه سيحصل على عشرة آلاف مارك أخرى ، ولكن بعد عام كامل ..

وسافر (سميث) إلى (فرانكفورت) ، وعمل فى متجر للثياب ، ولكنه أنفق عشرة الآلاف مارك فى أربعة أشهر فحسب ، وحاول الحصول على سلفة من عشرة الآلاف الأخرى ، ولكن أحدًا لم يستجب لطلبه ، حتى أصابه السأم ، وكره العمل مع أخيه بالتبنى (إدوار) ، صاحب متجر الثياب ..

وهنا كانت المفاجأة ..

لقد عاد إلى منزله يومًا ، ليجد ضيفًا مصريًا فى حجرته ، استقبله فى هدوء ، وطلب منه فى حسم افتعال مشاجرة مع صاحب العمل ، ثم السفر إلى (روما) ، ومنها إلى (القاهرة) ..

ولم يُصدق (سميث) نفسه ..

لقد طلب أكثر من مرة السفر إلى (القاهرة) ، ولكن أحدًا لم يستجب له ..

لذا فهو لم يتردد لحظة ..

لقد ترك العمل بالفعل ، وسافر إلى (روما) ، ومنها إلى (القاهرة) حيث عرف لأول مرة مزية صداقته للمصريين ، حيث أحسنوا استقباله ، ومنحوه شقة مريحة أنيقة فى (مصر الجديدة) ، وراتبًا ضخمًا ، وعددًا من العلاقات الجيدة ..

وفى (القاهرة) وتحت اسم (روبرت دونر) ، راح (سميث) يُعد ملفًا ضخمًا ، يضم تقارير وخرائط المنشآت العسكرية الإسرائيلية ، ومعسكرات التدريب ، والمطارات ، والوسائل الدفاعية ، وغيرها ، كما اشتهر بتدريس نظم الحياة فى (إسرائيل) لرجال المخابرات العامة ، المسئولين عن هذا الجانب ، وتعليم اللغة العبرية لرجال الصاعقة والكوماندوز ..

وتحوّل (مايكل سميث) إلى شخصية أخرى .. لقد صار أنيقًا ، رصينًا ، وقورًا ، مرحًا ..

ولكن أعماقه لم تخضع لهذا التغيير طويلاً ..

اشتعل فى أعماقه حب الحياة مرة أخرى ، فراح يتردد على أماكن اللهو والمرح ، وانغمس مرة أخرى فى حياة لاهية ، أدت فى النهاية إلى إصابته فى حادث سير عنيف ، كاد يودى بحياته ، لولا أن أنقذوه فى اللحظة الأخيرة ، وتم إسعافه بما يشبه المعجزة ..

وهنا تم إيقاف عمله فى المخابرات ، وتلقى فاصلاً جديدًا من التأنيب ، ونقل إلى عمل مكتبى بحت ، لم يحتمله طويلاً ، فاتجه ذات يوم إلى حجرة مدير المخابرات ، وقال :

ـ سيدى المدير .. أريد أن أتقدم باستقالتى ..

نظر إليه المدير لحظة، ثم أجابه:

ـ فليكن .. تقدم بطلب رسمى، مرفق بتقرير كالمعتاد ..

وعلى الرغم من دقة التقرير وأناقة أسلوبه، إلا أنه لم ينته بطلب الاستقالة، كما توقع مدير المخابرات، وإنما بطلب آخر، أكثر غرابة وإثارة للحيرة ..

لقد طلب (مايكل سميث) العودة الى (إسرائيل) ..

ولما كانت القاعدة المتبعة، فى عالم المخابرات، تنص على عدم استخدام الجاسوس، الذى سبق كشف أمره، فى نفس المكان، فقد اعترض بعض رجال المخابرات العامة على فكرة إعادة (سميث) إلى (إسرائيل)، ولكنه أصر على تحدى القاعدة.

واجتمعت لجنة من كبار خبراء المخابرات العامة لدراسة هذا المطلب العجيب، وأصر بعض رجالها على أن الرجل معتوه

ولكن مدير المخابرات قال فى حسم:

ـ ربما كانت غرابة الفكرة هى نفسها سر نجاحها، فالإسرائيليون أيضًا لن يتصوروا أن يعود اليهم رجل كشفوا أمره من قبل ..

وهكذا تم اتخاذ قرار عودة (سميث) الى (إسرائيل) ..

ولكن الأمر لم يتم بهذه البساطة ..

لقد أجريت له عدة عمليات جراحية، لاستئصال بعض الأجزاء من شحمتى أذنيه، وتم شد جفنيه إلى أعلى، وتعديل عظمة أنفه، وفكه، حتى إن (سميث) نفسه شعر بالدهشة، وهو يتطلع إلى وجهه فى المرآة، بعد أن اكتسب شكله الجديد

وهكذا سافر (سميث) إلى (مارسيليا)، ومنها الى (مدريد) ثم إلى (مارسيليا) مرة ثانية، ومن هناك استقل الباخرة مباشرة إلى (حيفا)، التى وصل إليها وهو يحمل جواز سفر باسم (دافيد روكمان) ..

وفور وصوله إلى هناك، بدأ (سميث) مهمته مباشرة، من فندق بجبل (الكرمل) فراح يلتقط الصور للميناء والتحصينات، والدشم، والسفن ..

والعجيب أنه كان يعمل فى وضوح تام، وبجرأة مدهشة، فآلة التصوير تتدلى من كتفه طوال الوقت، وابتسامته لا تفارق شفتيه، وأفلامه يتم تسليمها إلى شركة سياحية فى شارع (بيريز) فى (تل أبيب)، فترسلها الشركة مباشرة إلى فرعها فى (باريس)، ومن هناك إلى (القاهرة) ..

وكانت خبرته السابقة فى (إسرائيل)، تمنحه ثقة لا حد لها، وتجعله يتحرك فى هدوء وبساطة، ويتصرف كأى مواطن إسرائيلى عادى، ثم يقضى جزءًا من الليل فى تحضير أخباره السرية بنفسه ..

وراح سيل من المعلومات والصور يتدفق على المصريين ، الذين شعروا بمزيج من الدهشة ..

وكان من الممكن أن يصبح (سميث) أشهر جاسوس فى العالم ، لو أنه واصل عمله على هذا النمط حتى النهاية ، واتقى المحاذير نفسها ..

ولكنه ـ مع الأسف ـ لم يفعل ..

لقد عاد إلى نهمه العجيب للحياة .. وراح يعب الخمر عبًا ، ويرتاد أماكن اللهو ، وهو يتصور أنه سيحطم قاعدة النجاح الفريدة فى عالم المخابرات ..

لا خمر .. لا نساء .. ولا قمار ..

ولم ينجح (مايكل سميث) فى تحطيم القاعدة ، بل هى اكتسحته فى طريقها كالمعتاد ، عندما تجول مخمورًا حول واحد من معسكرات الجيش الإسرائيلية ، وهو يحمل آلة التصوير ثم تشاجر مع جنود الحراسة ، فتم إلقاء القبض عليه ، وتحميض الأفلام التى يحملها ..

وكانت الكارثة ..

لقد انكشف أمره على الفور ، وراح الإسرائيليون يستجوبونه طوال عدة أسابيع ، ويخضعونه لوسائل تعذيب عنيفة وقاسية ..

وبكلمات مرتجفة توحى بالانهيار ، قص (سميث) على الإسرائيليين قصة أنيقة ، تقول :

ـ إنه أحب فتاة مصرية فى (مارسيليا) ، فورطته مع المخابرات المصرية ..

وصدق الإسرائيليين قصته ، خاصة أن بصمات أصابعه التى تم تغييرها أثناء عمليات التجميل لم تتوافق مع بصمات أصابع (ميخائيل زوسمان) ، الجاسوس الذى كشف أمره سابقًا ..

وهكذا صدر الحكم على (سميث) بالسجن سبع سنوات ، سافر بعدها إلى (فرنسا) ثم إلى (القاهرة) ومنها إلى (برلين) ، حيث افتتح بمكافأة تقاعده شركة كبيرة هناك ..

وفى ملفات المخابرات ، بقيت شخصية (سميث) غامضة محيرة ، يعجز الكثيرون عن تحديد موقعها ، بين عالمى النجاح والفشل ، ولكنه ، وعلى الرغم من كل هذا ، كان يستحق الإشادة به ، ونشر قصته على الجميع ، فيكفيه أن كان يعمل من أجل (مصر) ..

وتحت علم (مصر) ..

* * *

المستحيل

انخفضت درجة الحرارة على نحو غير عادى ، فى العاصمة اليونانية (أثينا) ، فى تلك الفترة من شتاء عام 1968م ، وبدت الشوارع خالية من المارة تقريبًا ، مع اقتراب منتصف الليل ، إلا من عدد قليل من المارة ، الذين تحتم عليهم ظروف عملهم العودة إلى منازلهم ، فى تلك الساعة ..

ووسط هذا المناخ المزعج ، غادر شاب مصرى أحد الفنادق ، داخل معطف طرى سميك ، ارتفعت ياقته لتخفى نصف وجهه ، واشتركت مع تلك الكوفية الصوفية ، التى أحاط بها عنقه ، مع غطاء الرأس الأوروبى ، فى إخفاء النصف الآخر ، بحيث بات من المستحيل تقريبا تعرف الشاب ، الذى تجاهل سيارته الصغيرة ، المتوقفة أمام المنزل ، وسار فى خطوات واسعة سريعة ، متجاوزًا الشارع كله ، قبل أن ينحرف فى شارع جانبى ، ويقطعه بنفس الخطوات المتوترة حتى نهايته ، حيث تنتظره سيارة كبيرة ، فتح بابها فى عصبية ، وقفز داخلها ، وهو يغمغم :

- مساء الخير يا (إبراهيم) ، ألم تجد موعدًا أفضل من هذا اللقاء ؟

تجاهل (إبراهيم) ، مندوب المخابرات الإسرائيلية السؤال ، وهو يقول :

- وستعود غدًا إلى (مصر) .. لقد تلقيت كل التدريبات اللازمة ، وتعرف المطلوب منك .. أليس كذلك ؟

ازدرد الشاب لعابه ، وهو يقول :

- بلى .. ولكن حكاية الحبر السرى هذه .

قال (إبراهيم) فى برود :

- ماذا عنها ؟

تردد الشاب لحظة ، قبل أن يندفع قائلاً :

- قد يكشف المصريون أمرى بسبب رسائل الحبر السرى هذه .. إنهم ليسوا أغبياء ..

ابتسم المندوب الإسرائيلى فى سخرية ، وهو يقول :

- لا تفكر حتى فى هذا .. اسمع يا (جمال) .. ربما كان المصريون أذكياء ، ولكن مهارتهم لن تبلغ أبدًا نصف مهارتنا ، ثم إن الحبر السرى الذى تحمله معك صناعة أمريكية ، ومادته ما تزال مجهولة بالنسبة للمصريين ، ومن المستحيل أن يتنبهوا إليه ، أو يكشفوا أمرك .. هل تفهم ؟.. هذا مستحيل ..

واسترخى الجاسوس المصرى فى مقعده فى ارتياح ، وذهنه لا يحمل سوى تلك الكلمة الأخيرة .. كلمة (المستحيل) ..

* * *

(جمال حسنين يوسف) .. شاب مصرى من مواليد (القاهرة)، عاش فيها مع أسرته المكونة من والديه وثلاثة أشقاء، وحصل على الشهادة الإعدادية، ثم التحق بمدرسة المساحة، وتفوق فيها على نحو ملحوظ، وأجاد لعبة كرة القدم، ومارس العديد من النشاطات، حتى صار عضواً فعالاً فى الاتحاد الاشتراكى العربى، قبل أن يتجاوز العشرين من العمر ..

ثم تخرج (جمال)، وحصل على وظيفة فى مصلحة المساحة ..

ومن هنا بدأت المشكلة ..

فطموح (جمال) كان أضخم من أن تحتويه وظيفة محدودة الدخل، ومع استغراقه فى أحلام الثراء، بغض (جمال) وظيفته واحتقرها، وراح يسعى لتحسين وضعه بأية وسيلة، حتى إنه صار يعتبر تجار الشنطة من النماذج الناجحة للثرية، وتمنى لو استطاع السفر إلى (أوروبا) مثلهم، والعودة بحقائب الثياب الفاخرة، ورزم الدولارات، ولم يطل به الوقت، حتى قرر تحويل أحلامه إلى حقائق، فتقدم إلى رئيسه فى مصلحة المساحة، بطلب لمنحه إجازة بدون مرتب، لمدة ستة أشهر، للسفر إلى الخارج ..

وما إن حصل (جمال) على الإجازة، حتى طار فرحاً، وسافر إلى (بيروت) فى محاولة للعمل كتاجر شنطة، وتحقيق الثراء المأمول ..

وعلى الرغم من أن حقائبه كانت تكتظ بمنتجات (خان الخليلى)، التى بذل جهداً خرافياً لبيعها بأكبر ثمن ممكن، إلا أن أحلام الثراء راحت تذوب وتتلاشى، وتتحطم على صخور الواقع فى (بيروت)، مع ارتفاع مستوى المعيشة، والنفقات، والليرات التى تتطاير من بين أصابعه بأسرع مما يربحها ..

ولم يعد هناك مفر من العودة إلى (القاهرة)، التى وصلها (جمال) محبطاً يائساً، وقضى فيها عدة أشهر، محاولاً هضم هزيمته الفادحة فى بلاد الشام، إلا أن حلم الثراء لم يلبث أن استيقظ فى أعماقه، وصوّرت له نفسه أنه أخطأ فى اختيار محطة الوصول، وأنه كان من المفروض أن يسافر إلى (أوروبا) مباشرة، وليس إلى (لبنان)، فأسرع يقدم طلباً لمد الإجازة لعام آخر، تمهيداً للسفر إلى (اليونان) ..

ولكن رئيسه رفض ..

وحاول (جمال) إقناع رئيسه، أو استمالته، أو حتى رشوته، للموافقة على مد الإجازة، إلا أنه فشل فى هذا تماماً، فلم يجد أمامه سوى أن يتقدم باستقالته، التى لم يكد قبولها يتم، حتى كان هو على ظهر باخرة، تنطلق به عبر البحر الأبيض المتوسط إلى أرض أحلامه ..

إلى (اليونان) ..

وعندما رست به الباخرة فى ميناء (بيريه) ، اكتشف (جمال) أنه ليس الوحيد الذى يحمل حلم الثراء ، فقد غرق وسط خضم من الباحثين عن العمل ، من المصريين وغيرهم ، وبدا له من الواضح أن الأمور لن تسير ببساطة ويسر كما كان يتوقع ..

وفى فندق صغير بسيط متواضع ، قضى (جمال) لياليه مع زملائه الباحثين عن العمل ، ونقودهم تنكمش مع أحلامهم ، وتتقلص يومًا بعد يوم ، حتى إنه لم يعد يحلم بالثياب أو السيارات الفاخرة ، وإنما اقتصرت أحلامه على الحصول على ما يقيم أوده ، وأخيرًا حصل (جمال) على عمل ..

كان عملاً مرهقًا ، يضطره للاستيقاظ فى الخامسة صباحًا ، والعودة فى السابعة مساءً ، مقابل ما لا يزيد على سبعة جنيهات مصرية فى الأسبوع ..

وفى مرارة ، قال (جمال) لزملائه فى العمل ذات يوم :

ـ كل أحلامى تحطمت .. استقلت من وظيفتى ، وتركت عملى ، وأنفقت كل نقودى ، ولم أحقق شيئًا مما أتيت من أجله ..

سأله أحد العمال العرب فى حيرة :

ـ لماذا لا تعود إلى (مصر) إذن ؟!.. بلدك فيه من الخير الكثير!

جفف (جمال) دموعه ، وهو يقول :

ـ ولماذا أقول لأسرتى وأصدقائى ؟!.. هل أخبرهم أننى تركت كل هذا ، حتى أعود إليهم معدمًا ؟.. إننى مستعد للقيام بأى عمل ، ولو لحساب الشيطان نفسه ، لو أن هذا يحقق لى الثراء الذى أحلم به ..

والتقطت العبارة أذن أحد العمال ، الذين يرتادون مثل هذه الأماكن لأغراض أخرى ..

إنه شخص من ذلك النوع ، الذى يطلق عليه اسم (صياد الجواسيس) ، والذى تقتصر مهمته على اختيار العناصر الصالحة للتجنيد ..

وبعد ساعات محدودة من هذا الحديث ، كانت العيون الإسرائيلية ترصد (جمال) ، وتلاحقه ، وتحصى حركاته وسكناته ، وتدرس موقفه ، ومدى صلاحيته للعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية ..

وفى ليلة تالية ، التقى (جمال) بشاب فى مثل عمره تقريبًا ، قدم نفسه إليه باعتباره فلسطينيًا ، جاء ليشاركه حجرته ، توفيرًا للنفقات ، واسمه (سمعان) ..

ولم تمض أيام معدودة ، حتى ارتبط (جمال) بصديقه الجديد (سمعان) الذى سأله ذات يوم :

- ألم تحصل على وظيفة مناسبة بعد ؟

هزّ (جمال) رأسه فى أسى ، وقال :

- هذا ليس سهلاً .. إننى أبذل قصارى جهدى ، ولكن ..

ابتسم (سمعان) ، ومال يربت على كتفه ، وهو يقول :

- اطمئن يا صديقى .. (سمعان) سيجد لك العمل المناسب .

لم يهتم (جمال) كثيرًا بعبارة صديقه ، واعتبرها مجرد مجاملة غير مسئولة . ولكنه فوجئ به يستقبله بعد أيام قليلة هاتفًا :

- أبشر يا صديقى .. لقد حصلت لك على العمل ، الذى سيحقق لك كل أحلامك ..

تهللت أسارير (جمال) ، ولم يصدق نفسه ، وحصل من (سمعان) على عنوان المكتب ، الذى سيوفر له العمل المنشود ، وانطلق إليه فى الصباح الباكر ..

وكانت المفاجأة ..

فذلك المكتب لم يكن مكتبًا عاديًا ، وإنما كان أحد مكاتب العمل الإسرائيلية ، التى تحمل لافتتها وبكل وضوح ، رسمًا بارزًا لنجمة (داود) ، مع عبارات عبرية واضحة ..

وكان على (جمال) أن يتخذ قراره ، أمام هذا الموقف الواضح ..

كان بوسعه أن يتراجع عند هذه النقطة ، وأن يرفض دخول المكتب الإسرائيلى ، كما ينبغى أن يفعل أى مواطن شريف ، فى ذلك الحين ، ولكنه قرر أن يتخلى عن وطنيته بإرادته ، وهو يندفع إلى المكان ..

وبابتسامة عذبة ، استقبلته موظفة إسرائيلية ، وسألته عما يبتغيه ، فمال على أذنها ، وهمس متوترًا :

- جئت من طرف (سمعان) .

تراجعت الإسرائيلية الشقراء فى حركة حادة ، ثم أشارت إليه قائلة :

- تفضل بالجلوس .. سأعود إليك بعد قليل .

غادرته لدقائق معدودة ، بدت له أشبه بدهر كامل ، قبل أن تدعوه إلى مكتب آخر ، استقبله فيه رجل هادئ ، سأله عن نوع العمل الذى يريده ، وعندما أجابه (جمال) بأنه مستعد لأى عمل ، تأمله الرجل طويلاً فى هدوء ، ثم مال نحوه بغتة ، قائلاً :

- سنمنحك أى عمل تريد ، مقابل شرط واحد .

سأله (جمال) فى حذر :

- وما هو هذا الشرط ؟

صمت الإسرائيلي لحظات ، ثم تراجع مرة أخرى في مقعده ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يجيب :

ـ أن تبيع لنا جواز سفرك .

بهت (جمال) في البداية ، وأبدى خوفه من بيع جواز سفره ، ولكن الإسرائيلي أقنعه بأنه يستطيع الإعلان عن فقد جوازه ، بكل الطرق الرسمية ، ويحصل على وثيقة سفر ، وبعد قليل من المحاورات ، سلم (جمال) جواز سفره ، وهو واثق تمامًا من أنه مسلول إسرائيلي ..

وكانت هذه هي الخطوة الثانية من مستنقع السقوط ..

وبعد أن دوّن (جمال) في استمارة خاصة ، كل بياناته وبيانات أسرته ، وأقربه وأصدقائه ، ووظائفهم ، واتصالاتهم ، وحتى أسماء النوادي التي يشتركون فيها ، أعطاه الإسرائيلي ما يوازي ثلاثة جنيهات مصرية ، وطلب منه العودة إلى الفندق والانتظار ..

وفي الفندق ، التقى (جمال) بصديقه (سمعان) ، وروى له ما حدث ، فابتسم الأخير في ارتياح وأدرك أنه ما دام (جمال) قد وافق على بيع جواز سفره للإسرائيليين ، فلن تكون هناك مشكلة في تجنيده للعمل لحسابهم ..

وهذا يعني أن دور (سمعان) قد انتهى ..

وبالفعل ، وفي اليوم التالي مباشرة ، أعلن (سمعان) أنه سيغادر (اليونان) في مهمة خاصة ، ثم رحل ، ولم يره (جمال) بعدها أبدًا ..

وطوال أسبوع كامل ، انتظر (جمال) رد الإسرائيلي في لهفة وتوتر ، حتى اتصل به شخص قدّم نفسه باسم (يوسف) وطلب أن يلتقي به ..

وفي لقائهما الأول ، ادعى (يوسف) أنه رجل دين أردني ، وأنه يعقد دراسة مقارنة بين الدين الإسلامي والدين اليهودي ، ثم لم يلبث الحديث أن امتد بشكل بدا طبيعيًا ، إلى مشكلة الشرق الأوسط ، والصراع العربي الإسرائيلي ، وانتقل بغتة إلى مميزات العمل مع المخابرات الإسرائيلية ، وإلى وفرة النقود وسهولة التعاملات ..

ووسط حديثهما ، توقفت أمامهما سيارة فارهة ، تقودها شقراء فاتنة ، هبطت تصافح (يوسف) في حرارة ، وتسأله عن صديقه ، فقدّم لها (يوسف) (جمال) المبهور ، وتركها تصافحه في دلال مدروس ، وعيناها تتطلعان إلى عينيه مباشرة ، في جرأة لم يعتدها الشباب العربي قط .

وبابتسامة خبيثة ، ولهجة هادئة ، قال (يوسف) :

ـ هل تعجبك السيارة ؟

هتف (جمال) :

- ليس السيارة وحدها .

أطلقت الفتاة ضحكة عابثة واثقة ، فاستطرد مبهورًا :

- بل وصاحبتها أيضًا .

وكانت هذه هى الخطوة الحاسمة ، ليخوض (جمال) مستنقع الخيانة ..

بل ، وليغوص فيه حتى أذنيه ..

ومع تعدد لقاءات (جمال) بالإسرائيلى (يوسف) وزميلته (ليا) ، أدرك الإسرائيليون أنه لم تعد هناك مشاكل قط فى تعامله معهم ..

وهنا حان دور (إبراهيم) ..

كان (جمال) يرتبط بموعد مع (يوسف) ، ولكنه فوجئ بالآخر (إبراهيم) أمامه ، يُخبره أنه صديق (يوسف) ، وأنه يعرف عنه كل شىء ، منذ وصل من (مصر) وحتى هذه اللحظة ..

ومع (إبراهيم) انكشفت الأوراق فى وضوح ..

وعرف (جمال) أنه سيعمل مع المخابرات الإسرائيلية ، ولكنه لم يتراجع هذه المرة على الرغم من الحوار الذى دار بينه وبين (إبراهيم) ، الذى سأله لماذا تصر على العمل فى (أوروبا) ؟

أجابه (جمال) فى حماس :

- هذا يمكن أن يحقق لى كل طموحاتى .

ابتسم (إبراهيم) ، قائلاً :

وماذا لو أنك تستطيع تحقيق كل هذا فى بلادك ؟

سأله (جمال) فى دهشة :

- وكيف يمكن هذا ؟

شرح له (إبراهيم) طبيعة العمل المطلوب منه فى (القاهرة) ، ثم منحه مائتى دولار دفعة واحدة ، ونقله من الفندق المتواضع إلى فندق آخر أنيق ، ثم اختار له شقة خاصة للتدريب ..

وبدأت مرحلة إعداد الجاسوس ..

لقد تدرب (جمال) على الكتابة بالحبر السرى ، وتمييز الأسلحة المصرية ، ومعرفة أنواع الطائرات ، والدبابات ، والمدافع الثقيلة ، والخفيفة ، ورسم الخرائط العسكرية ، وتحديد مواقع تكنات الجيش والمطارات ، ومعرفة المعلومات المطلوبة ، وكيفية إخفاء أدوات التجسس .

ومع انتهاء فترة التدريب ، استعد (جمال) للعودة إلى (القاهرة) ، ودعه (إبراهيم) فى ميناء (بيريه) ، وأعطاه مائتى دولار أخرى ، وأعاد على مسامعه تعليمات المخابرات الإسرائيلية ، وطالبه بالحرص والحذر ..

ووصل (جمال) إلى (مصر) ، ولم يكد يستقر فى (القاهرة) ، حتى أرسل بطاقة سياحية إلى عنوان محدد فى (روما) ، ليُعلن عن وصوله ، وأن كل شيء يسير على ما يرام ، ثم حمل آلة التصوير ، وبدأ يخرج لجمع المعلومات ..

ومع الأسف ، لم تكن مهمة (جمال) شاقة أو عسيرة ، فالناس تثرثر فى كل مكان ، وتلقى ما لديها من معلومات على مسامع الجميع ، مهما كانت خطورتها ، وبدأ الجاسوس يشعر بالأمان والارتياح والاسترخاء ..

وفجأة ، وبينما كان يكتب واحدة من رسائله بالحبر السرى ذات صباح سمع دقات هادئة على باب شقته ، ففتح الباب ، بعد أن أخفى زجاجة الحبر السرى ، ووجد أمامه وجهًا مألوفًا لرجل يبتسم ، قائلاً :

ـ صباح الخير يا (جمال) .. هل أزعجتك ؟

ولثوان ، حار (جمال) فى تذكُّر صاحب الوجه ، ثم لم يلبث أن هتف :

ـ آه .. صباح الخير .. أنت (حامد سليمان) .. أليس كذلك ؟ . لقد كنت تقيم فى نفس الفندق ، الذى أقيم فيه فى (أثينا) ..

هزَّ الرجل رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ معلوماتك صحيحة يا (جمال) ، ولكن اسمى ليس (حامد سليمان) ؟ . أنا (...) .. من المخابرات العامة المصرية ..

شحب وجه (جمال) ، وارتجفت أطرافه ، وعجزت قدماه عن حمله ، فانهار فوق أقرب مقعد إليه وهو يردد :

ـ المخابرات العامة ؟! ولكنك كنت .. كنت أحد النزلاء ، الذين ..

قاطعه رجل المخابرات المصرى ، وهو يدلف إلى الشقة ، ومن خلفه عدد من رجال المخابرات ، والنيابة وخبراء فحص الأدلة :

ـ إننا نراقبك منذ فترة طويلة يا (جمال) ولدينا كومة من الصور لك فى مكتب العمل الإسرائيلى ومع (يوسف) و(سمعان) و(إبراهيم) و(ليا) .. إننا نعرف كل شيء يا (جمال) كل شيء ..

كاد الجاسوس يفقد الوعى وهو يقول متشبثًا بآخر أمل :

ـ ليس لديكم دليل واحد .. كل الصور يمكن تلفيقها .

ابتسم رجل المخابرات فى هدوء والتقط زجاجة الحبر السرى التى تشبه زجاجة عطر شهير وقال وهو يلتقط الرسالة :

ـ هذا هو الحبر السرى .. أليس كذلك ؟

هتف (جمال) :

ـ كلا .. إنها زجاجة عطر عادية .. مجرد زجاجة عطر ..

تجاهله رجل المخابرات تمامًا وأشار إلى أحد الخبراء فتقدم من الرسالة ومسحها بسائل خاص ظهرت بعده الكتابة واضحة ، فاتسعت عينا (جمال) فى ذهول وارتياع وهو يهتف :

ـ ولكن هذا مستحيل! .. لقد أخبرونى أن هذا الحبر السرى صناعة أمريكية وأنكم تجهلون كل شىء عنه .

التقط رجل المخابرات المصرى الرسالة بسبابته وإبهامه وهو يبتسم فى سخرية ويلقى نظرة عليها قائلاً :

ـ وهل صدقت ما أخبروك به ؟

وهنا لم يستطع (جمال) الاحتمال ..

لقد انهار تمامًا وطلب الإدلاء باعتراف تفصيلى كامل ودموع الندم تغرق وجهه ..

ولكن بعد فوات الأوان ..

الآن فقط شعر بعمق المستنقع الذى غرق فيه ولفظ أنفاس وطنيته فى أعماقه ..

والآن فقط أدرك أنه لن يستطيع أبدًا خداع جهاز المخابرات المصرية ..

هذا هو المستحيل ..

* * *

الهــــاوية ..

« هناك جاسوس إسرائيلى بالغ الخطورة ، فى قلب (مصر) .. »

بهذه العبارة المثيرة ، بدأ واحد من أهم اجتماعات المخابرات العامة المصرية ، فى تلك الفترة من أواخر خمسينات القرن العشرين ..

وعلى الرغم من خطورة ما تحمله العبارة من معان ، ظلّ الرجال ، المجتمعون حول مائدة الاجتماعات الرئيسة ، محتفظين بهدوئهم وتماسكهم ، وعيونهم متعلقة بمديرهم ، الذى واصل حديثه ، قائلاً فى حزم:

ـ أحد جواسيسنا المزدوجين ، الذين يعملون لحسابنا ، ويوهمون العدو بأنهم من رجاله ، تلقى ثلاث حوالات بريدية بما مجموعه مائة جنيه مصرى ، على صندوق بريده مباشرة ، من قلب (القاهرة) ، والمعنى الوحيد لهذا ، هو أن الإسرائيليين قد أرسلوا أحد جواسيسهم إلى هنا؛ لمتابعة عمل جاسوسنا المزدوج ، وتمويله ، والإشراف على تطورات مزمعة قادمة .

ولأن جميع من حضروا الاجتماع ، كانوا من أفضل عناصر المخابرات المصرية ، ومن المتابعين لقضية ذلك الجاسوس المزدوج الشاب ، فقد انبرى بعضهم على الفور بطرح مجموعة

من الأسئلة ، حول هوية ذلك الإسرائيلى ، والحجة التى دخل بها إلى البلاد ، والسمة التى يتخفى خلفها ، و ... ، و ....

وجاء الجواب حاسمًا حازمًا ، على لسان المدير:

ـ كل هذا مجرد أسئلة . مطلوب منكم إيجاد الأجوبة لها .. وبأسرع وسيلة ممكنة ..

كان تكليفًا مباشرًا بالقيام بمهمة ، قد تبدو للوهلة الأولى مستحيلة تمامًا ، لولا نقطة واحدة ..

أن هؤلاء الرجال من طراز خاص جدًا ..

طراز لا يعرف المستحيل! ..

فقبل مرور ساعة واحدة ، على انتهاء الاجتماع ، كان الرجال قد انقسموا بالفعل إلى عدة فرق ، مهمتها ، وبكل اختصار ، أن تمشط (مصر) تمشيطًا ، للعثور على جاسوس ، لا توجد عنه أية معلومات واضحة محددة ..

وفى نشاط منقطع النظير ، وبأسلوب مدروس عبقرى ، قدر الفريق الأول أن ذلك الجاسوس قد دخل البلاد خلال الأشهر الستة الأخيرة على أقصى تقدير ، وأنها ليست المرة الأولى ، التى يصل فيها إلى (مصر) ؛ نظرًا لما درسه خبراء المخابرات

المصرية ، من أساليب وطرق المخابرات الإسرائيلية ، التى تتميز بالحذر الشديد ، وتعتمد على توطين الجاسوس لفترات متقطعة ؛ لدراسة ردود الأفعال المصرية تجاهه ، وللتأكد من استيعابه لإمكانيات المغادرة ، أو الفرار بأقصى سرعة ، إذا ما دعت الحاجة إلى هذا ..

وبناءً على المعلومتين ، تمت مراجعة كشوف أسماء كل الأجانب ، الذين تنطبق عليهم تلك الشروط ؛ لتقليل أعداد المشتبه فيهم ، وحصر دائرة البحث فى قائمة محدودة ..

فى الوقت ذاته ، كان الفريق الثانى يضع الحوالات البريدية تحت البحث ، ويجرى كل التحريات الممكنة ، حول كيفية ووسيلة إرسالها ، وهوية مرسلها ، فى سرية بالغة ، حتى لا ينتبه الجاسوس لما يحدث ، فيبادر بالفرار ، قبيل الإيقاع به ..

أما الفريق الثالث ، فقد استعان بالقائمة المصغرة ، التى وضعها الفريق الأول ، مع تقرير دقيق للخبراء ، حول أماكن السكن المثالية للجواسيس ، والتى تناسب احتياجهم لتلقى التعليمات ، عبر وسائل الاتصال اللاسلكى ، كما تتيح لهم إمكانيات كشف المراقبة فى الوقت ذاته ، ومزج كل هذا بقاعدة ذهبية ، تؤكد أن الجواسيس نادرًا إن لم يكن من المستحيل أن يميلوا إلى الإقامة فى الفنادق العامة ، أو الأماكن التى تفرض نظمًا خاصة ،

وأن طبيعة عملهم تدفعهم إلى اختيار الأماكن الخاصة ، التى يمكنهم السيطرة عليها تمامًا ، وإخفاء أدوات التجسس وأجهزته فيها ، دون أن يخشوا فضول أحد الخدم ، أو عمال النظافة ، أو أية احتمالات أخرى غير متوقعة ..

وهنا أصبحت دائرة البحث محدودة للغاية ، فالمطلوب شخص أجنبى الجنسية ، دخل البلاد أكثر من مرة ، ويقيم فى إحدى الشقق المفروشة على الأرجح ..

ومن هذا المنطلق ، بدأت عملية البحث الدقيق عن الهدف ..

واقتصرت الدائرة على خمسة أفراد فحسب ، تنطبق عليهم الشروط الثلاثة ، على نحو يجعلهم المشتبه فيهم الأكثر احتمالاً ..

وبدأت عملية مراقبة دقيقة للمشتبه فيهم الخمسة ..

دقيقة لدرجة أن التقارير الرسمية يمكن أن تحوى عدد خطواتهم ، وتردد أنفاسهم ، وكل لمحة لمحتها خلجاتهم ، طوال فترة المراقبة ..

ولأن الجاسوس المنشود هو محترف بكل المقاييس ، كان من العسير أن يقع فى أى خطأ يكشف أمره ، حتى إنه كان من الممكن أن تشتعل الحيرة فى نفوس الرجال طويلاً ..

لولا لمحة واحدة ..

هوائى بسيط ، معلق فى شرفة منزل مواجه للبحر ، فى مدينة (الإسكندرية) ..

وذلك الهوائى ، الذى ورد ذكره فى تقرير المراقبة ، الخاص بأحد المشتبه فيهم الخمسة ، توقف عنده رجال المخابرات ، وطلبوا التقاط بعض الصور الواضحة له ، وعرضها على خبراء الاتصال اللاسلكى بالجهاز ..

وجاء تقرير الخبراء بسرعة مدهشة ، ليحسم الأمر تمامًا ..

ذلك الهوائى ، الموجود فى شرفة شقة الدور العلوى ، فى المنزل رقم (8) ، فى شارع الإدريسى فى (جليم) (الإسكندرية) ، تنطبق عليه شروط الهوائيات المستعملة ، فى استقبال وإرسال البث اللاسلكى ، وإن موقع الشقة ، المطل على البحر ، يرجح وجود جهاز اتصال لاسلكى داخلها ..

وهنا ، تحولت الجهود كلها نحو ذلك الهولندى ، المقيم بتلك الشقة ، والذى يدعى (مويس جود سوارد) ..

وبسرعة ونشاط ، يعجز العقل العادى عن استيعابهما ، بدأت عملية تطويق الجاسوس ، وسبر أغواره فى الوقت ذاته ، ففى نفس الفترة ، التى استأجر فيها بعضهم ذلك المحل الصغير ، عند ناصية الشارع ، ووضع فوقه لافتة متهالكة ، تشير إلى أنه

متخصص فى إصلاح أجهزة الراديو القديمة ، ونقل إليه بعض الأدوات ، وأجهزة الراديو الضخمة ، التى تخفى أدوات الرصد والاعتراض اللاسلكى ، على مسافة أمتار قليلة من منزل الجاسوس ، كان رجال المخابرات المصرية يجمعون كل ما يمكنهم جمعه من معلومات ، عن (مويس سوارد) هذا ، من قلب وطنه نفسه .

والمدهش أنه خلال ثلاثة أيام فحسب ، وصل أحد عملاء المخابرات المصرية من (امستردام) ، مع ملف كامل عن الجاسوس ..

اسمه (مويس جود سوارد) ، مولود فى (امستردام) ، فى يوليو 1892م ، والذى عمل بالتجارة فى (هولندا) ، من عام 1929م ، وحتى عام 1942م ..

وفى الفترة من 1942م ، وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، ترك العمل بالتجارة؛ ليتفرغ للعمل السرى ، ضد الاحتلال النازى ..

ومع انتهاء الحرب ، عاد (مويس) إلى مزاولة نشاطه التجارى ، وسافر عام 1952م ، إلى جنوب أفريقيا ، إلا أنه لم يستطع تحقيق أى نجاح يذكر ، فعاد إلى (هولندا) فى أوائل عام 1955م ، وقد ساءت أحواله المادية ، مما أدى إلى مشكلات عنيفة ، بينه وبين زوجته ، ثم طلاقه منها فيما بعد ، مما ضاعف من سوء أحواله المادية ، ومن موقفه العام أيضًا ..

ولأنه صار لقمة سائغة مثالية ، فقد وجدت المخابرات الإسرائيلية سبيلها إليه ، فالتقى بأحد رجالها ، فى منتصف عام 1957م ، داخل القنصلية الإسرائيلية نفسها ، وقَبِل القيام بأعمال جاسوسية فى (مصر) ، لصالح (إسرائيل) ، مقابل ثلاثمائة جنيه شهريًا ، بخلاف أجور السفر ، وكل المصاريف التى يتم إنفاقها ، أثناء المهمة ..

وفى (باريس) ، بدأت عملية تدريب (مويس سوارد) ، على استخدام أجهزة الاتصال اللاسلكى ، للإرسال والاستقبال ، وترجمة الشفرة ، وكتابة وإظهار الحبر السرى ، وتصوير المستندات ، والتصوير بصفة عامة ، وطرق إخفاء الأفلام فى أماكن سرية بالطرود ، وتمييز الأسلحة والمعدات الحربية بصفة عامة ، والبحرية بصفة خاصة ..

وفى نهاية نوفمبر 1957م ، جاء (مويس) إلى (مصر) ، مع أوامر بإجراء معاينة كاملة لمدينة (القاهرة) ، والحصول على سكن مناسب للاتصالات اللاسلكية ، مع ادعاء تنفيذ بعض العقود التجارية الهولندية فى (مصر) ..

وفى (القاهرة) ، استغل (مويس) ما لديه من توكيلات تجارية ، للاتصال ببعض الشركات المصرية ، وأجرى بعض الاتصالات اللاسلكية ، ولكنه لم يتلق ردًا عليها ، ووصلته بعض الخطابات بالحبر السرى ، ولكنه فشل تمامًا فى إظهارها ،

فوصله أمر بالعودة ، فى أواخر إبريل 1958م ، ليسافر مع كل معداته إلى (أمستردام) ، فى 1958/4/28م ..

ومرة أخرى ، راح (مويس) يتلقى تدريبات مكثفة ، لفشله فى الاتصالات ، فى المرة الأولى ، واستمرت عملية تدريبه ، حتى 1958/7/15م ، بعد أن اطمأن مدربوه إلى أنه قد أجاد عمله بالفعل هذه المرة ..

وفى هذه المرة ، عاد (مويس) إلى (القاهرة) ، مع كل معداته ، فى نهاية يوليو ، من العام نفسه ، ولكن لم يقض وقتًا طويلاً ، إذ وصلته إشارة لاسلكية ، جعلته يعود إلى (أمستردام) ، بكل معداته وأدواته السرية ، فى نهاية مارس 1959م ..

فى تلك الفترة ، كان ذلك العميل المزدوج الشاب ، الذى يعمل لحساب المخابرات المصرية ، قد بدأ - بإيعاز منها - يلح على تلقى تمويله ، وعلى سرعة وصول راتبه ، وعلى ضرورة زيادة مكافآته ، وأبدى غضبًا وتبرمًا ، خشيت معه المخابرات الإسرائيلية أن تفقده ، وأن تفقد معه سيل المعلومات الخطيرة ، التى يرسلها إليها بانتظام ، فما كان منها إلا أن أعلمت (مويس) إلى (مصر) ، عن طريق البحر ، ليصل مع كل أدواته ومعداته السرية إلى (الإسكندرية) ، فى منتصف يوليو 1959م ..

وكان ما كان ..

وبعد كشف أمر الجاسوس ، بدأت عملية مراقبته بتركيز أكثر ، ودقة أشد ، مع حرص شديد على ألا يشعر بهذا أبدًا ، ولو حتى عن طريق الشك أو الحذر ..

ومن الواضح أن الرجال ، الذين قاموا بالمهمة ، كانوا خبراء بحق ، فالجاسوس المحترف لم يشعر بمراقبتهم له لحظة واحدة ، حتى وهو يسافر إلى (القاهرة) ، ويقيم فى فندق (سميراميس) ، ثم يجرى اتصالاته بالجاسوس المزدوج ، من فندق (هيلتون) للتمويه ..

ومن خلال مراقبة (مويس) ، اعترضت المخابرات المصرية كل اتصالاته اللاسلكية ، وكل ما يستقبله من بث ، وحلله خبراؤها ، وتوصلوا إلى طبيعة الشفرة المستخدمة ، بل وقرأوا كل ما أرسله إلى رؤسائه فى (تل أبيب) ، من الرسائل المكتوبة بالحبر السرى ، وكل ما وصله منهم بالوسيلة نفسها أيضًا ..

وكان (مويس) قد انتحل هوية عالم آثار بريطانى ، ووضع بعض التحف فى شقته للتمويه ، وكان شديد الحذر ، بحيث لا يفتح باب الشقة ، إلا إذا تأكد من هوية القادم أولاً ، وذلك حسب تعليمات المخابرات الإسرائيلية ، حتى يمكنه تدمير بعض الوثائق التى تدينه ، أو التخلص من جهاز الاتصال اللاسلكى ، لو حاصره رجال الأمن بوسيلة ما ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد تم اتخاذ قرار ، فى التاسع من نوفمبر 1959م ، بإنهاء العملية ، وإلقاء القبض على (مويس جود سوارد) ، نظرًا لقرب انتهاء تأشيرته السياحية ، وخشية أن يغادر البلاد فجأة ، فتفشل مع رحيله العملية كلها ..

وفى الساعة الثانية إلا عشر دقائق ظهرًا ، تم استخدام أحد معارف (مويس) لطرق الباب . وما إن تأكد من هوية الطارق ، وفتح باب الشقة ، حتى انقض عليه رجال المخابرات المصرية كالأسود ، وسيطروا عليه فى لحظات ، وكبلوا حركته ، حتى لا يمكنه لمس أى أداة من أدواته ..

وبدأت عملية تفتيش دقيقة للغاية ، أسفرت عن ضبط كل أدوات التجسس ، فى شقة (مويس) ... جهاز الاتصال اللاسلكى ، وزجاجات الحبر السرى ومظهره ، وأدوات التصوير ، والأفلام البحرية التى التقطها ، وكذلك آخر رسالة وصلته بالحبر السرى ، من قلب (تل أبيب) ..

وعلى الرغم من كل هذا ، فقد ثار (مويس) ، وهاج ، وماج ، وطالب بإبلاغ السفير الهولندى ، وأنكر كل صلاته بما عثر عليه رجال المخابرات ، فى وجود النيابة العامة ، وأكد أنه يخص الساكن السابق للشقة ، وأنه لم يدرك ماهيته ، عندما استأجرها للسكنى ، و ... و ...

وفى هدوء ، ودون أن يلتفت إلى ثورته الزائفة ، اتجه ضابط المخابرات إلى منضدة قريبة ، تراصت فوقها مجموعة من الكتب ، والتقط من بينها كتابًا بعينه ، وهو رواية (ذهب مع الريح) ، والتفت إلى (مويس سوارد) ، قائلاً بابتسامة ذات مغزى:

- قل لى يا سيد (مويس): هل تعتقد أننا يمكن أن نجد فى هذه الرواية ما يفيدنا ؟!

ولم ينبس (مويس جود سوارد) بحرف واحد ، ولكن ملامحه حملت كل الإحباط واليأس والانهيار؛ فالرواية التى التقطها رجل المخابرات ، والتي انتقاها بالذات ، من بين كل الروايات الأخرى ، كانت كتاب الشفرة ، المستخدم فى بث واستقبال الاتصالات اللاسلكية ..

وكان هذا يعنى أن الرجال يعرفون ، ويدركون ، وليست لديهم ذرة من الشك ، يمكن استغلالها لتمييع الموقف ، بأى حال من الأحوال ..

وفى استسلام تام ، طلب (مويس) بعض الأوراق وقلمًا ، وجلس يكتب اعترافًا تفصيليًا بكل ما حدث ، منذ لقائه الأول برجال المخابرات الإسرائيلية ، وحتى لحظة سقوطه ..

بل واعترف بالاصطلاحات الخاصة ، التى ينبغى أن يستخدمها فى رسائله واتصالاته ، فى حال إلقاء القبض عليه ، واضطراره للعمل تحت سيطرة الدولة التى ذهب ليتجسس عليها ..

وهنا ، تم اتخاذ قرار حاسم ، باستمرار العملية تحت سيطرة المخابرات المصرية ، وإجبار (مويس) على مواصلة اتصالاته مع الإسرائيليين؛ كوسيلة لكشف أى عملاء جدد ، قد يُطلب من الجاسوس الاتصال بهم أو تمويلهم ، والتعرف على احتياجات وأهداف المخابرات الإسرائيلية ، فى المرحلة التالية ..

وبناءً على هذا ، تم نقل (مويس) ، من (الإسكندرية) إلى (القاهرة) ، وهناك بدأ أول اتصالاته المحاصرة مع العدو ، ليبرر انقطاعه عن التراسل ، خلال اليومين السابقين ، متعللاً بإصابته فى حادث سيارة خفيف ، وبخضوعه للعلاج فى مستشفى (المواساة) لبعض الوقت ..

ولقد ابتلع الإسرائيليون الطعم ، وأرسلوا يتمنون له الشفاء والصحة ..

واستمرت اتصالات (مويس) مع المخابرات الإسرائيلية ، حتى يوم 26 فبراير 1960م ، وكان يتلقى بعض الأوامر ، لجمع بعض المعلومات العسكرية ، حيث راح أحد ضباط المخابرات المصرية يتعامل معهم ، متظاهرًا بتنفيذ أوامرهم ، ومنفذًا بعض تعليماتهم ، بنفس الأسلوب والإمكانيات ، التى ساعدت على خداع الإسرائيليين تمامًا ، فلم يكشفوا سيطرة المخابرات المصرية على الموقف لحظة واحدة ، بدليل أنهم واصلوا كشف عملائهم فى (القاهرة) ، من خلال تعليماتهم لجاسوسهم (مويس) ..

ورويدًا رويدًا ، حصلت المخابرات المصرية على قائمة بأسماء مجموعة من أخطر جواسيس العدو الإسرائيلى فى (مصر) ..

كان معظمهم من الأجانب المقيمين ، والعاملين فى (مصر) ، مع قلة من المصريين ، الذين أغواهم الشيطان ، فنسوا ما أرضعتهم به أمهاتهم من ماء نيل (مصر) ، وسعوا بكل الطمع والجشع والشر لخيانتها ، وبيع أمنها وأمانتها للعدو ، مقابل حفنة من النقود ..

وانطلق رجال المخابرات خلف أهدافهم ..

وتساقط الجواسيس كالذباب ..

شبكة هائلة من جواسيس العدو ، تساقطت فى قبضة المخابرات المصرية ، فى وقت واحد تقريبًا ، وهو نفس الوقت الذى استقبل فيه رجال المخابرات الإسرائيلية رسالتهم الأخيرة ، من جاسوسهم الهولندى (مويس جود سوارد) ..

« تعاونكم معنا ، خلال الفترة السابقة ، كان مثمرًا بحق ، ومنحنا أكثر بكثير مما كنا نحلم به... مع شكرنا وتحياتنا .. المخابرات المصرية .. »

وجن جنون الإسرائيليين ، وانهار رئيس مخابراتهم ، وتم استدعاؤه للمساءلة ، أمام مجلس الوزراء الإسرائيلي ، حيث اضطر لتقديم استقالته ، والخروج من الخدمة مكللاً بالعار ، فى نفس الوقت الذى كان رجال المخابرات المصرية يتلقون فيه خالص التهنئة ، على نجاحهم المدهش ، فى هذه العملية المتقنة ، التى ألقت الإسرائيليين وجواسيسهم فى أعماق الهاوية ..

هاوية الهزيمة ..

والعار .

* * *

انتحار جاسوس

لم تكن عقارب الساعة قد تجاوزت السابعة والنصف صباحًا بعد ، عندما غادر طبيب مكتب صحة (مصر الجديدة) منزله ، فى طريقه إلى مقر عمله ، فى ذلك الصباح ، من صيف عام 1962م ، ولقد بدا له ذلك الصباح عاديًا ، لا يختلف كثيرًا عن أيام عمله الرتيبة ، وعلى الرغم من هذا ، فقد قطع الطريق فى نشاط جمّ ، ووقف ينتظر الأتوبيس ، الذى اعتاد أن يستقله يوميًا ، و ...

« سيادتك الدكتور (محمد ....) طبيب مكتب الصحة ؟!... »

أدهشه السؤال ، الذى ألقاه شخص ما بلهجة هادئة مهذبة للغاية ، والتفت يتطلّع لحظة إلى ذلك الشخص ، الذى لم يلتق به فى حياته من قبل ، ثم أجاب فى شىء من الحذر :

ـ نعم .. أنا هو .. أية خدمة ؟

جذبت اللهجة الهادئة المهذبة انتباهه مرة أخرى ، والرجل يُجيب : لدينا حالة وفاة ، نحتاج إلى شهادة طبية وتصريح دفن .

تضاعفت دهشة الدكتور (محمد) ، وهو يقول : لا بأس .. هذا جزء من عملى ، ولكن استخراج شهادة الوفاة وتصريح الدفن ، يحتاج إلى فحص الجثة أولاً ، وإلى الأوراق الرسمية اللازمة ، وختم النسر ، و ...

قاطعه الرجل بلهجته المهذبة ، التى لم تخل من الحزم هذه المرة ، وهو يقوده إلى سيارة بسيطة ، تقف بالقرب من محطة الأتوبيس ، قائلاً :

ـ لا تقلق .. لقد أحضرنا كل شىء .. تفضل ..

لم يدر الدكتور (محمد) لِمَ لمْ يعترض ، على الرغم من دهشته الشديدة ، وهو يركب السيارة ، إلى جوار الرجل ، ثم وهو يجد أدواته الطبية ، وأوراقه ، وحتى كاتب مكتب الصحة ، الذى يحتفظ بختم النسر داخلها ، وحتى وهى تنطلق بالجميع إلى جهة يجهلها !!..

لقد لاذ بالصمت بضع دقائق ، وقد امتلأت نفسه بالرهبة ، ثم لم يلبث أن اندفع ، قائلاً فى شىء من الحدة ، وبلهجة عصبية واضحة :

ـ سأدوّن فى الشهادة سبب الوفاة الحقيقى .

كان يتوقع رد فعل عنيف ، أو نظرات صارمة ولهجة جافة قاسية . لذا فقد أدهشه أن أجابه الرجل فى سرعة وحسم ، وبنفس اللهجة المهذبة :

ـ بالطبع يا دكتور (محمد) .. اكتب ما يُرضى ضميرك .. ليس لدينا ما نخفيه .. ثم إننا نريد الأمر رسميًا وسليمًا تمامًا ..

تراجع الدكتور (محمد) ، فى مقعده ، وقد تضاعفت دهشته ، وراح يتساءل فى حيرة عما يخفيه كل هذا الغموض ، ما دام المطلوب منه هو استخراج شهادة طبية عادية !..

ولم تطل دهشة الطبيب وحيرته ، فما هى إلا دقائق معدودة ، ووصل الجميع إلى فيلا صغيرة من طابقين ، استقبلهم عندها رجل أمن ، وقادهم إلى الطابق الثانى ، حيث حجرة نوم أنيقة ، رقد على فراشها رجل عادى الملامح ، أشار إليه الرجل الذى اصطحبه ، قائلاً :

ـ مستر (ريتشارد كليفورد) موظف إنجليزى ، مات أثناء نومه ، ونريدك أن تفحصه جيدًا ، قبل أن نستخرج شهادة الوفاة .

ثم تنهّد ، مستطردًا : لا نريد مشكلات مع عائلته أو سفارته .

خُيّل للدكتور (محمد) عندئذ ، أنه قد فهم الأمر كله ، فنفض عن نفسه دهشته وحيرته ، وارتدى طبيعته الطبية ، وراح يفحص الرجل بمنتهى الدقة والاهتمام ، قبل أن يقول فى حسم :

ـ إنها نوبة قلبية عادية .. إنه لم يتألم بالتأكيد .

سأله الرجل فى اهتمام :

ـ ألم تجد ما يستوجب استدعاء طبيب شرعى ؟

هزَّ الدكتور (محمد) رأسه نفيًا فى حزم ، وهو يوقع شهادة الوفاة ، قائلاً :

ـ مطلقًا .. الوفاة طبيعية تمامًا .. البقاء لله .

كان يشعر بالارتياح والاطمئنان ، وهو يُسلم شهادة الوفاة للرجل المهذب ، دون أن يدرك أنها لم تكن أول شهادة وفاة لذلك الراقد على الفراش ..

ولم يتصوَّر أن خبر الوفاة الأولى له قد ملأ الصفحات الأولى لكل الصحف فى حينه ..

هذا لأن مستر (كليفورد) هذا كان فى الواقع جاسوسًا ..

أخطر جاسوس إسرائيلى فى عصره...

* * *

كانت البداية فى عام 1954م ، عندما كان جهاز المخابرات العامة المصرى في طور التكوين ، وكانت هناك مجموعة من الضباط ، المشهود لهم بالحنكة والكفاءة ، يصلون الليل بالنهار ، فى محاولة لإنشاء جهاز مخابرات قوى ، يمكنه منافسة أجهزة المخابرات القائمة بالفعل ، فى تلك الفترة ، مثل جهاز المخابرات المركزية الأمريكية ، والمخابرات السوفيتية ، والمكتب السادس البريطانى والموساد ، وغيرها ..

وفى نفس الوقت ، الذى انهمك فيه هؤلاء الضباط فى عملهم ، كانت المخابرات الإسرائيلية ترسل عددًا من خيرة رجالها إلى (مصر) ، لتكوين وإدارة شبكة تخريبية من اليهود المصريين ، مهمتها الرئيسة هى تخريب عدد من المؤسسات الأمريكية ، فى (القاهرة والإسكندرية) ، وكل ما يمكنهم الوصول إليه ، من منشآت القاعدة البريطانية العسكرية ، فى (قناة السويس) ! وذلك لتدمير العلاقات المصرية الإنجلو أمريكية ، والتشكيك فى قدرة النظام الجديد على حماية أمنه الداخلى ..

ولقد تكوَّنت هذه الشبكة بالفعل ، تحت اسم (الوحدة 136) ، وانقسمت إلى قسمين ، أحدهما فى (القاهرة) ، بقيادة الطبيب اليهودى (موسى مرزوق) ، والثانى فى (الإسكندرية) ، بقيادة اليهودى (فيكتور ليفى) ، والقسمان تحت إشراف ضابط مخابرات إسرائيلى يحمل اسم (إبراهام دار) ..

أما أداة الاتصال بين القسمين ، فكانت يهودية حسناء ، اتخذت لنفسها اسم (مارسيل) ، فى حين كان اسمها الحقيقى هو (فيكتورين نينو) ..

والعجيب أن المخابرات الإسرائيلية قد ارتكبت خطأً فادحًا ، فى هذا الأمر ، فاليهودية الحسناء كانت على الرغم من قلة خبرتها ، تعرف جميع أعضاء الشبكة ، وحتى رئيسها ومقره ..

والأكثر خطورة، أنها كانت تعرف أيضًا ضابط المخابرات الإسرائيلى (م.ب)، الذى وصل إلى (مصر)، عندما اكتمل التنظيم، واستعد لبدء نشاطه، ليشرف على الشبكة بأكملها، ويقودها بخبرته وبراعته..

ولقد وصل (م.ب) إلى (مصر) متخفيًا تحت شخصية وكيل شركة بريطانية للأطراف الصناعية، وكان خبيرًا محنكًا بحق، ولقد ولد لأب يهودى وأم مسيحية، فى (كولونيا) بألمانيا الغربية، وهاجر مع أسرته إلى (فلسطين)، ثم انضم إلى عصابة (الهاجاناة)، على الرغم من عمله مهندس كهرباء، ثم لم يلبث الحماس أن جرفه، فتحول من مهندس إلى طيّار مقاتل، بعد حرب عام 1948م، واستمر فى عمله الجديد هذا، حتى حصل على رتبة رائد، ثم انتقل إلى خدمة المخابرات الإسرائيلية..

ولقد سطع نجم (م.ب) فى هذا المجال، وأثبت موهبة وتفوقًا، جذبا إليه الانتباه والاهتمام، حتى إن البعض أكّد أنه كان أهم شخصية فى المخابرات الإسرائيلية، وأفضلها حتى الآن..

وبسبب تفوقه هذا، وملامحه التى تجمع بين الغرب والشرق، تم إرسال (م.ب) عام 1951م إلى (ألمانيا)، حيث عمل هناك لبعض الوقت، ثم انتقل منها إلى (العراق)، وكيلاً لشركة بترول أجنبية، ومنها إلى (مصر)، ليتسلم قيادة الشبكة..

وتحت قيادته، بدأت الشبكة التخريبية عملها، وانفجرت عدة قنابل بدائية الصنع فى أماكن متفرقة، من (القاهرة) و(الإسكندرية)، لكن أحد عملاء الشبكة أخطأ حساب توقيته ذات مرة، فاشتعلت القنبلة فى جيبه، أمام سينما (ريو) فى (الإسكندرية)، فأسرع إليه بعض جنود الشرطة، فى محاولة لإطفاء النيران، ولكن العميل تصوّر أن أمره قد انكشف، فانهار، واعترف بالعملية كلها..

وبسرعة مدهشة، وبراعة تستحق التقدير والإعجاب، حاصرت المخابرات المصرية الموقف كله، وأثبتت أن التكوين الجديد نشأ وولد عملاقًا، على نحو لم يتوقعه الخصوم قط أو يتصورونه..

ففى خلال ساعتين فحسب، من هذه الواقعة، كان ستون من رجال المخابرات، وكلهم أو معظمهم حديث العهد بالخدمة، يباغتون كل أعضاء الشبكة بزيارات مفاجئة، ويصطحبونهم إلى الأماكن المعدة لاستقبالهم، دون إعداد أو تخطيط مسبق، فى (القاهرة) و(الإسكندرية) معًا، ودون أن يشعر المحيطون بهم قط بما يحدث..

ولم تكد (فيكتورين نينو) تجد نفسها فى قبضة رجال المخابرات، حتى أشعلت سيجارتها فى توتر شديد، وهى تقول:

ـ ماذا تريدون منى؟!.. سأخبركم بكل شىء..

وفى طلاقة مدهشة ، وبعد أن امتلأت المنفضة أمامها بأعقاب السجائر ، على نحو شف عن كل ما تعانيه ، كانت (فيكتورين) قد أدلت بكل ما لديها بالفعل ، واعترفت دون مواربة بأن (م .ب) هو الرئيس الفعلى المراقب للشبكة ، ثم ألقت قنبلتها الكبرى مستطردة :

- وهو واحد من كبار الضباط ، فى المخابرات العسكرية الإسرائيلية ..

ومع هذه المعلومة البالغة الخطورة ، انطلق جهاز المخابرات المصرية للعمل بكل سرعته وقوته ..

وخلال ساعة واحدة ، كان (م .ب) قد وقع فى قبضة المصريين ..

ومن المؤكد أن المفاجأة كانت صاعقة ، بالنسبة لرجل المخابرات المحنك (م .ب) ، فهو لم يتصور أبدًا أن يكون المصريون بهذه البراعة ، ولا أن يتحركوا بهذه السرعة والحنكة ، ولقد أعرب عن هذا فى وضوح ، وهو يجلس فى أحد المبانى التابعة لجهاز المخابرات ، وأضاف فى هدوء مدهش :

- أعتقد أنكم تنتظرون الكثير منى .

تراجع ضابط المخابرات المصرى ، المسئول عن استجوابه ، فى مقعده بهدوء مماثل ، وهو يقول :

- ماذا كنتم ستفعلون ، لو تبدلت الأدوار ؟

ابتسم (م .ب) فى شىء من المرارة ، وهو يجيب :

- كنا سنبتر أطراف ضابطكم ، لو اقتضى الأمر ، لنعتصر ما لديه من معلومات ، فكلانا يعلم أن ضابط مخابرات محترف ، يحمل فى أعماقه طنًا من الأسرار ، القادرة على تغيير خريطة حربنا السرية تمامًا ..

سأله الضابط المصرى بنفس الهدوء :

- وما الذى ستضطرنا إليه ، لنحصل على كل ما لديك ؟

تنهد (م .ب) فى عمق ، قبل أن يجيب :

- إننا محترفان ، وكلانا يعلم أن هناك ألف وسيلة ووسيلة ، للحصول على المعلومات من قلب الحجر ، فلماذا نضيع الوقت ؟!..

دعنا نتعاون دون خسائر للطرفين .

كان عرضًا لا يمكن إهماله ، أو التظاهر حتى باللامبالاة إزاءه ، لذا فقد اعتدل الضابط المصرى فى اهتمام ، وهو يجيب :

- هذا أفضل بالتأكيد .. كلى آذان مصغية لك يا رجل ..

ولا أحد يدرى لماذا قرر (م .ب) الاستسلام بهذه السرعة .

هل أدرك بالفعل عدم جدوى الخداع والمناورة ؟..

أم إنه اتخذ قرارًا فوريًا بالانضمام إلى المعسكر الرابح ؟..

وأيًا كان السبب ، فقد كان ما أدلى به (م . ب) بالغ الأهمية والخطورة ، إلى حد لا يمكن تصوره ..

ولمَّا كان الصيد أكبر مما انتظره الرجال ، فقد اجتمعوا معًا ، وراح الضابط المسئول يقول فى اهتمام كبير:

ـ الرجل فند الهيكل التنظيمى لجهاز المخابرات الإسرائيلى ، وحدد إداراته ، ونوعيتها ، وأساليب العمل والمتابعة فيها ، وطرق الحصول على الأسرار والمعلومات ، ومنحنا قائمة بأسماء العملاء والضباط ، وصفاتهم ، بل ومنحنا الكثير من المعلومات ، عن سلاح الطيران الإسرائيلى ، وما زال لديه الكثير والكثير ليمنحه .

التقط رئيس الجهاز نفسًا عميقًا ، وهو يقول :

ـ ولكن كل هذه المعلومات قد تغدو عديمة القيمة ، عندما يكشف الإسرائيليون أنه منحنا إياها ، هذا لو كانت صحيحة بالفعل ، فسيبذلون قصارى جهدهم ، لتغيير نظمهم وأساليبهم ، وحتى نوعيات إداراتهم ، والمسئولين عنها .

واندفع ضابط مخابرات آخر ، يقول :

ـ بل سيعمدون إلى هذا ، لمجرد وجود أحد كبار ضباطهم فى قبضتنا .. هذا نفس ما سنفعله نحن ، فى ظروف مماثلة .

قال الضابط المسئول فى حماس :

ـ وعلى الرغم من هذا ، فلا يمكننا التفريط فى هذا الكم الهائل من المعلومات ، الذى يمكننا الحصول عليه من ضابط مخابرات إسرائيلى مثله .

أشار رئيس الجهاز بيده ، قائلاً :

ـ المعلومات تصبح عديمة القيمة ، عندما يعرف خصمك أنك قد حصلت عليها .

قال الضابط المسئول :

ـ لهذا لا ينبغى أن يدرك الإسرائيليون ، أننا قد حصلنا على هذه المعلومات ..

هزَّ الضابط الآخر رأسه قائلاً :

ـ ما دام رجلهم فى قبضتنا ، فسيعرفون حتمًا .

اعتدل الضابط المسئول ، وهو يقول فى حزم :

ـ لذا فمن الضرورى أن يعرفوا أن ضابطهم لم يعد فى قبضتنا .

تطلَّع إليه الجميع فى اهتمام وتساؤل ، حوَّله الرئيس إلى لغة مسموعة ، وهو يقول :

- وكيف السبيل إلى هذا ؟

تنحنح الضابط المسئول عن (م . ب) ، قبل أن يجيب :

- فى هذا الشأن ، لدىّ خطة ، تحتاج إلى المناقشة .

استمعوا إليه جميعًا فى اهتمام ، وهو يشرح خطته ، التى بدت عجيبة ومدهشة فى البداية ، ثم لم تلبث أن جذبت انتباههم حتى أنهم انهمكوا فى مناقشتها وتعديلها ، حتى اتفقوا على شكلها النهائى ، مع مولد فجر اليوم التالى ، الذى انطلق أذانه من المسجد الصغير فى ساحة مبنى المخابرات ، فنهضوا إلى صلاة الفجر جماعة ، وقد استقر رأيهم على موضع التنفيذ .

وفى صباح اليوم التالى ، خرجت الصحف كلها ، وهى تحمل فى صدرها صورة (م . ب) مُلقى أرضًا ، مع خبر يؤكّد انتحاره الليلة السابقة ، وبيان رسمى مقتضب يعلن أمر الشبكة ، وإلقاء القبض عليها ، وانتحار رئيسها ..

ولما كانت الصورة ، التى تنقل وجه (م . ب) بلا مشاعر أو انفعالات ، واضحة جلية ، والبيان المصاحب لها واضحًا ومباشرًا ومقتضبًا ، فقد تأكّد الإسرائيليون أن ضابطهم كان بطلاً ، وأدرك أنه لا ريب مدل بما لديه من أسرار للمصريين ، إن عاجلاً أو آجلاً ، فآثر الانتحار على خيانة جهازه ووطنه ..

ولكن هذا لم يمنع تلك الهزة السياسية والعسكرية العنيفة ، التى أصابت الإسرائيليين وقيادتهم ، بسبب الشبكة التى سقطت فى قبضة المصريين ، بسبب استهتار وسوء تصرف المخابرات الإسرائيلية ، وبراعة وحنكة المخابرات المصرية ، وتم نشر الوقائع كلها ، تحت اسم (فضيحة لافون) ، نسبة إلى (بنحاس لافون) ، وزير الدفاع الإسرائيلى فى ذلك الحين ، وصاحب فكرة تكوين (الوحدة 131) والأمر بها ..

ولقد قضت الفضيحة على مستقبل (لافون) قضاءً مبرمًا ، وتسببت فى تشقق حزب الأغلبية (المباى) ، وكانت الدافع الأول لعزل (بن جوريون) ، وأرقت الحياة السياسية فى (إسرائيل) لعشر سنوات كاملة ..

وطوال كل هذه الفترة ، لم يشك شخص واحد ، فى القيادة الإسرائيلية كلها ، وجهاز مخابراتها المتبجح ، فى أن (م . ب) مازال حيًا يرزق ، فى قلب (القاهرة) ..

لم يتصور أحدهم قط ، أن الصورة التى نشرتها الصحف كانت لشخص تحت تأثير مخدر قوى ، وليس لضابط مخابرات منتحر ..

بل ولم يدرك عبقرى واحد ، من عباقرة المخابرات الإسرائيلية ، أن ذلك الشخص المجهول ، الذى عاش طوال السنوات التالية ، فى فيلا صغيرة من طابقين ، فى (مصر الجديدة) ، تحت حراسة مشددة ، ومحاطًا بأقصى درجات السرية ، والتى تحكم تحركاته واتصالاته ، هو نفسه (م . ب) ، الذى أعلن انتحاره رسميًا ..

وطوال السنوات التالية ، امتلأ الملف الخاص بالرجل (م . ب) بكمية هائلة من الرسوم اليدوية للمنشآت المموهة ، وأسراب الطائرات الإسرائيلية ، والبيانات البالغة السرّية ، حول تنظيم إدارات المخابرات الإسرائيلية ، ونظم العمل ونقل الأوامر ، فى أفرعها وأقسامها ، ومراتب وشخصيات رؤسائها ..

بل ووسائل تدريب العاملين الجدد ، وعناوين المراسلات السرية فى (أوروبا) و(أمريكا الجنوبية) و(آسيا) ..

وعلى الرغم من أنه من غير المنطقى ، أن نقول : إن رجلاً واحداً كان له تأثير واضح ، فى التطور الطبيعى لأجهزة ونظم المخابرات ، إلا أنه من المنصف أيضاً أن نشير إلى أن المعلومات البالغة الأهمية والخطورة ، والتى راح (م . ب) يدلى بها ، طوال سنوات اعتقاله ، كان لها أبلغ الأثر ، فى تكوين وتطوير وسائل التعامل مع العدو ، واكتساب خبرات مدهشة فى الحرب الخفية معه ..

والفضل فى هذا يعود ـ بعد الله (سبحانه وتعالى) ـ إلى تلك الخطة الرائعة ، التى أنتجتها قريحة الرجال ، فى الأيام الأولى لمولد جهازهم ..

خطة انتحار الجاسوس ..

الانتحار الزائف .

* * *

أوتار الخطر

غرق مبنى المخابرات العامة المصرية فى صمت شبه تام ، فى تلك الليلة ، من ليالى مايو عام 1969م ، على الرغم من النشاط الجمّ ، الذى يحدث خلف الأبواب المغلقة ، وتحرك شابان عبر الأروقة فى سرعة وخفة ، والحماس يملأ وجهيهما ، ثم توقفا أمام حجرة فى نهاية الممر ، وطرق أحدهما بابها فى هدوء ، وانتظر حتى سمع صوتاً يدعوه مع زميله للدخول ، فدفعا الباب ، ودلفا إلى الحجرة فى آن واحد تقريباً ، وتركز بصرهما على الرجل الجالس خلف مكتب كبير ، والذى استقبلهما بابتسامة مشجعة ، وهو يقول :

(عاطف) و(حسين) .. أليس كذلك ؟

لم يكن هذان اسميهما المدونين فى بطاقتيهما ، ولكنهما اسمان يستخدمان داخل المبنى ، طبقاً لمقتضيات الأمن ، لذا فقد أجاب الشابان بلسان واحد :

ـ بلى .

كانا يشعران بشىء من الانفعال ، وهما يقفان أمام ذلك الشخص ، الذى يُعد واحداً من أبرز رجال المخابرات ، والذى استدعاهما شخصياً إلى مكتبه لأول مرة ، منذ أنهيا تدريباتهما

فى القسم (3 ج أ) الخاص بالتعامل والتعايش فى المجتمعات الإسرائيلية ، وكان هذا يملؤهما بمزيج من الحماس والانفعال والرهبة ، جعلهما يلوذان بالصمت تمامًا ، والرجل يفحصهما ببصره بعين خبيرة ، وكأنما يقيمهما بسرعة ، قبل أن يقول :

- لقد اجتزتما تدريباتكما بنجاح ، وأظنكما تستطيعان خوض تجربة فعلية .

كان هذا يعنى سفرهما إلى (إسرائيل) نفسها ، فى تلك الفترة ، التى بلغت فيها الأمور ذروتها ، وتوترت أوتار الطرفين ، (مصر) و(إسرائيل) ، إلى أقصى حد ، بعد نكسة يونيو ، واستعدادات (مصر) القوية لخوض معركة منتظرة ، ولكن هذا لم يمنع الشابين من القول فى حماس :

- نحن رهن إشارة (مصر) يا سيدى ، ولن نتردد لحظة واحدة فى التضحية بحياتنا من أجلها ..

ابتسم رجل المخابرات المحنك ، وهو يقول :

- عظيم .. سنرسلكما بالفعل إلى قلب (إسرائيل) ، وبالتحديد إلى (تل أبيب) ، فى مهمة عاجلة للغاية ..

سأله أحدهما فى فضول ولهفة :

- هل سنحضر بعض المعلومات السرية ، أم ننقذ عميلاً يتعرض للخطر ؟! اتسعت ابتسامة الرجل ، وتراجع بمقعده إلى الخلف ، وشبك أصابع كفيه أمامه ، وهو يجيب بلهجة ملؤها الغموض :

- بل سيكون عليكما إحضار شىء من هناك .

ثم اعتدل ، وتطلع إلى عيونهما ، مستطردًا :

- إنه جيتار .. جيتار عادى جدًا .

واتسعت عيونهما فى دهشة ، وابتسامته تزداد اتساعًا ، و ... وغموضًا ..

قبل شهر واحد من هذا اللقاء ، وبالتحديد فى العشرين من أبريل ، دخل شاب هادئ الملامح إلى مكتب الاستعلامات الإسرائيلى (توريسرائيل) ، فى المبنى رقم (59) ، فى شارع (جيمس) (بلندن) ، وهو يحمل جيتاره الخشبى البسيط فى يده ، وجربندية بسيطة على كتفيه ، وبدا مظهره واضح الفقر ، وهو يسأل موظف المكتب ، فى لهجة مهذبة ، وبلغة إنجليزية ركيكة ، تشوبها لكنته الفرنسية الواضحة :

- قل لى يا سيدى .. كم يكلفنى السفر إلى (إسرائيل) ، والإقامة فيها لبعض الوقت ؟

رمقه الموظف الإسرائيلى بنظرة باردة، تشف عن الجفاء واللامبالاة، قبل أن يجيبه فى استهتار، وهو يلقى نظرة على جواز سفره:

- ليس كثيرًا، فبوصفك من (فرنسا)، لن تحتاج إلى تأشيرة دخول إلى (إسرائيل)، ويمكنك السفر بحرًا، بالخط الملاحى الذى يربط (إسرائيل) (بمارسيليا)، وما دمت قد قضيت أربعين يومًا هنا، فلن تكون فى حاجة إلى شهادة تطعيم.

قال الفرنسى، فى لهجة تحمل نبرة خجل:

- هذا عظيم يا سيدى، ولكن ماذا عن الإقامة هناك؟

هزّ الموظف كتفيه، وهو يقول:

- هناك العديد من بيوت الشباب، وستجد مكتبًا لبحث مشكلات المستجدين، فى 24 شارع الملك (جورج).. إنه مكان يُعرف باسم برج (شالوم ماير) فى (أورشليم).

بدا الارتياح على وجه الشاب، وراح يتم إجراءاته فى المكتب، ثم انصرف وهو يحمل جيتاره البسيط، ويلقى التحية فى احترام كبير على موظف المكتب..

وعندما غادر الشاب المكتب الإسرائيلى، تحرك فى خطوات سريعة

واسعة، دون أن يلتفت خلفه مرة واحدة، وسرعان ما ذاب وسط زحام العاصمة البريطانية التى ابتلعته مع جيتاره، فاختفى وسطها، وصار من العسير على أى شخص أن يقتفى أثره، أو يعرف وجهته..

وقبل أن نمضى فى قصتنا، يَحسُن أن نبدأ فى استعراض حقيقة ذلك الشاب الفرنسى، الذى يحمل جواز سفره الصادر من (باريس) اسم (إميل فرانسوا)، فالواقع أن (لى) هذا ولد فى (مصر)، من أب صينى مسلم، يدعى (لقمان)، وأم مصرية مثقفة ترتبط أسرتها بروابط مصاهرة قديمة مع الصين..

والأهم، أنه يعمل لحساب المخابرات العامة المصرية.

فمنذ بلغ العشرين من عمره، انضم (لى تاو) إلى جهاز المخابرات المصرى، الذى أخضعه لتدريبات طويلة ومكثفة، ثم أرسله فى رحلة طويلة، طاف خلالها أرجاء شرق (آسيا)، وزار (هونج كونج)، وقضى فيها فترة من الوقت، ليدرس عادات وتقاليد أهلها، وطُرق التعامل والعيش والمواصلات فيها، قبل أن تُكلفه المخابرات المصرية بالسفر إلى (لندن)، ليتخذ طريقه إلى قلب (إسرائيل)، فى مهمة خاصة، أُحيطت بسرية مطلقة..

وكانت مهمة بالغة الأهمية والخطورة بالفعل..

ففى ذلك الوقت ، كانت (إسرائيل) تمتلك وسيلة قوية ، من وسائل الدفاع الجوى ، تتمثل فى قواعد صواريخ (هوك) ، التى تسعى المخابرات المصرية لجمع كل المعلومات الممكنة عنها ..

ولقد نجحت المخابرات فى هذا ، إلى حد كبير ، فقد توصلت ، عن طريق عملائها ، إلى معرفة قواعد هذه الصواريخ ، ومنشآتها ، ووسائل تمويهها ، ونُظم حراستها ، وإعدادها ، كما حصلت على خريطة توضح مواقع منصات إطلاقها ..

ولكن بقى الصاروخ نفسه ..

كانت المعلومات المتوافرة عن الصاروخ نفسه ، لا تتجاوز بيانات معاهد الدراسات الإستراتيجية العالمية ، والمقالات العسكرية ، وبعض الصور المأخوذة لمراحل إطلاقه المختلفة ، ومشاهدات بعض الطيارين المصريين ، الذين تمكنوا من الإفلات من صواريخ (هوك) بطُرق خاصة ..

وبات من الضرورى أن تبذل المخابرات المصرية قصارى جهدها ، للفوز بتصميمات صاروخ (هوك) ، بأى ثمن ..

وفى السابع من مارس ، عام 1969م ، تلقت المخابرات برقية عاجلة وسرية ، من واحد من أخطر عملائها فى (إسرائيل) ، يُعلنها فيها أنه نجح بوسيلة شديدة التعقيد ، فى الحصول على

كراسة خاصة ، تحوى كل تفاصيل وتصميمات ، ونظريات عمل صاروخ (هوك) ، وأنها تتضمن صورًا واضحة ، ورسومًا فنية وحسابات رياضية معقدة ، تشرح طريقة عمل وتشغيل الصاروخ ، وطُرق التعامل معه ..

وعلى الفور ، تشكلت لجنة لدراسة هذا التطور المفاجئ ، واتخاذ القرارات المناسبة بشأنه ..

ولم تكن مهمة هذه اللجنة سهلة أو يسيرة . فالكراسة كبيرة الحجم ، تقع فى مئة واثنتين وأربعين صفحة ، فى الحجم المتوسط ، وتحمل على غلافها شعار الجيش الإسرائيلى ، مع عبارة (سرى للغاية) ، مما يجعل عملية نقلها محفوفة بمخاطر جمّة ، حتى داخل (إسرائيل) نفسها ..

ولقد اقترح أحدهم ـ على نحو تقليدى ـ تصوير الكراسة بالميكروفيلم ، وإرساله إلى (القاهرة) ، ولكن الوثيقة كانت نادرة للغاية ، ولم يكن باستطاعة العميل الاحتفاظ بها طويلاً ، نظرًا لما يُمثله هذا من خطورة بالغة عليه ، واحتمالات لكشف أمره ، كما أنه من المحتمل أن يتعرض الميكروفيلم إلى التلف أو الضياع ، أثناء عملية تهريبه ونقله ، من (إسرائيل) إلى (مصر) ..

وهكذا تم اتخاذ قرار خاص ، يندر اتخاذه فى مثل هذه العمليات ..

لقد تقرر أن يقوم العميل (0.006) بتصوير الكراسة ، ثم يحتفظ بالميكروفيلم ، حتى يأتى من يتسلم الكراسة منه ، وعندئذ يُرسل الميكروفيلم بالوسائل المتعارف عليها إلى (القاهرة) ، بحيث يضمن هذا الازدواج وصول المعلومات بأى من الصورتين إلى المخابرات المصرية ، التى أولت هذه العملية اهتمامًا بالغًا ، إلى الحد الذى طلبت فيه من العميل (0.006) أن يتوقف تمامًا عن أى نشاط سرى ، وأن يُصمت جهاز اللاسلكي الخاص به ، حتى تخْرج الكراسة والفيلم من حوزته .

وبعد بحث دقيق للغاية ، ودراسة استغرقت عدة ليال بطولها ، وقع الاختيار على (لى تاو) ، للقيام بالمهمة ..

وقد كان ..

وفى الثانى من مايو ، وصل (لى) إلى (إسرائيل) ، وراح يتسكع داخلها دون هدف ، فى انتظار الموعد الذى تم تحديده لبدء مهمته ، فى السادس عشر من الشهر نفسه ..

ولم يكن هذا الانتظار عبثًا ، فقد اتُخذت المخابرات المصرية احتياطاتها ، حتى تتفادى أية محاولات مراقبة أو شكوك ، قد تُحيط بالصينى ، قبل بدء عمليته ..

ولم تكن هذه الفترة وردية بالنسبة للصينى ، فلم يكد يتصل ببيوت

الشباب فى (القدس) فى رقم 22073 ، الذى ما زال مستخدمًا حتى الآن ، حتى أعلمه المسئولون هناك أنهم لايستطيعون قبوله ، لأنه تجاوز الخامسة والعشرين من عمره ..

وكانت صدمة صغيرة للشاب ، الذى لم يكن يحمل من النقود ما يكفى لحياة البذخ ، لذا فقد أجهد قدميه طويلاً ، حتى عثر على فندق متواضع ، فى أحد الشوارع الخلفية الصغيرة فى (القدس) يناسب إمكانياته البسيطة ..

وفى حماس راح الشاب يسعى للبحث عن عمل ، وهو يحمل جيتاره الصغير ، حتى أمكنه الاتفاق على إحياء عدد من الحفلات ..

وعند بركة القوارب ، التى تقع أمام فندق (هولى لاند) فى (القدس) ، قدّم (لى تاو) إحدى حفلاته ، وجرت أصابعه على أوتار جيتاره ، لتعزف ألحانًا عذبة ، راقت كثيرً للحاضرين ، وبالذات لفاتنة إسرائيلية من أصل أسبانى ، صفقت له فى حرارة ، عندما انتهى من عزفه ، ثم وثبت على خشبة المسرح لتقبل وجنتيه ، وتصافحه فى حرارة ، وعندما عادت أدراجها ، كان هو محمر الوجنتين ، وأصابعه تقبض فى قوة على ورقة صغيرة ، لم يكد يعود إلى حجرته حتى رفعها إلى وجهه فى سرعة ، وقرأ عليها :

ـ (تل أبيب) .. منزل (بروديتسكى) .. الرابعة بعد ظهر الغد ..

وتبعًا لما تلقاه (لى تاو) من معلومات ، أحرق الورقة ، وانتظر حتى تحولت بأكملها إلى رماد أسود ، ألقاه فى الحوض ، وترك المياه تحمله بعيدًا ، ثم حمل هو جيتاره ، وسافر فى اليوم التالى مباشرة إلى (تل أبيب) ، وهناك اتجه إلى منزل (بروديتسكى) ..

ويقع منزل (بروديتسكى) هذا فى قلب (تل أبيب) ، فى منطقة تتميز بالهدوء ، وهو عبارة عن مبنى من ثلاثة طوابق ، على شكل زاوية منفرجة ، وصل إليه (لى) فى الثالثة والدقيقة الخمسين ، واتجه إلى شجرة وحيدة ، على مسافة ستة أمتار منه ، فجلس تحتها صامتًا ، وهو يحمل جيتاره على ركبته .

وفى الرابعة تمامًا ، وصلت الإسرائيلية ، وأشارت إليه ، فلحق بها فى سيارتها ، التى انطلقت بها إلى منزلها فى شارع (مندل) ..

وطوال الطريق ، لم تتبادل معه الفاتنة كلمة واحدة ، والتزم هو الصمت بدوره ، كأى جاسوس ملتزم مُطيع ، حتى صعدا إلى شقتها فى الدور الثانى ، فأخرجت مفتاحها ، ودسته فى ثقب الباب ، ولكنها لم تفتحه مباشرة ، وإنما مررت أصابعها أولاً على الحافة الخشبية للباب ، حتى لامست أصابعها شعرة رأس دقيقة ، فانتزعتها من مكانها فى دقة ، شأن أية جاسوسة مُدربة ، تتبع إجراءات الأمن بمنتهى الدقة ، ثم فتحت الباب ، ودعت الشاب للدخول ..

كانت الشقة بسيطة ، أنيقة الأثاث ، ولقد ألقى الشاب جسده فوق أوّل مقعد قابله ، ولهث فى قوة ، فابتسمت الفتاة ، وهى تسأله :

ـ هل تشعر بالإرهاق ؟

هزّ رأسه نفيًا ، قبل أن يُجيب :

ـ بل هو الانفعال ..

أطلقت ضحكة قصيرة ، ثم أشارت إليه ، قائلة :

ـ سواء أكان الأمر إرهاقًا أم انفعالاً ، فسأطالبك بالنهوض من هذا المقعد ..

نهض (لى) فى ارتباك ، وهو يقول :

ـ آه .. معذرة .. كان ينبغى أن أستأذن أولاً ..

ضحكت مرة أخرى ، وهى تقول :

ـ أسأت الفهم ثانية .

ثم انحنت نحو المقعد ، وضغطت مسنده ، ثم دفعته جانبًا فى قوة ، ودست يدها فى الفراغ الرقيق ، بينه وبين وسادته الأفقية ، ثم جذبتها وهى تحمل كراسة مواصفات الصاروخ (هوك) ..

وطوال أربع ساعات كاملة ، انهمك الاثنان فى انتزاع شريحة

فى ظهر الجيتار ، ثم دسا الكراسة فى الفجوة الناشئة ، وأعادا لصق الشريحة فوقها ..

ولقد واجهتهما صعوبات جمّة ، حتى نجحا فى هذا . فالكراسة لم تستقر فى موضعها ، إلا بعد وضعها فى كيس من النايلون ، ولصقه بإحكام فى باطن الجيتار ..

وبينما استغرق (لى) فى نوم عميق ، نهضت الفتاة إلى حجرة مكتبها ، وأرسلت رسالة لاسلكية إلى (القاهرة) ، لتُعلن الرجال هناك أن الكراسة قد خرجت من حوزتها ، وأن الميكروفيلم قد تم إرساله منذ عدة ساعات إلى (القاهرة) ، ضمن حركة نقل منتظمة ، تمر بعدة أماكن ، عبر عدد من العملاء ، من جنسيات مختلفة ..

وفى الصباح ، استيقظ (لى تاو) ، وكان من المفروض أن يسافر إلى (القدس) ، ليستقل منها طائرة إلى (هونج كونج) ، ومنها إلى (القاهرة) ، ولكنه لم يكن يملك نقودًا كافية ، فطلب من الفتاة أن تدبر له هذا ، ووعدته الفتاة أن تفعل ، وطلبت منه أن يقابلها فى مشرب بشارع (فورش) ، ليحصل على النقود ، ثم يتوجه مباشرة لمكتب شركة (العال) ، ليحجز تذكرة السفر ..

وحمل (لى تاو) جيتاره بحرص أكبر هذه المرة ، وغادر منزلها ، وراح يتجوّل بعض الوقت فى شوارع (تل أبيب) ، ثم اتجه إلى المشرب قبل موعده بنصف الساعة ، واتّخذ مائدة فى أحد أركانه ، ووضع جيتاره على المقعد المجاور ، وأسند عنقه على ركبته ، وجلس ينتظر الفتاة ..

ولكن الرياح لا تأتى دائمًا بما تشتهى السفن ..

فعلى المائدة المجاورة له ، جلست أسرة يهودية مغربية ، تتبادل النكات والضحكات بصوت مرتفع ، لم يرق لرواد المائدة المقابلة ، من اليهود الروس ، فاعترضوا على الأمر بأسلوب فظ ، استفز المغاربة ، الذين بادروهم بسيل من الشتائم والسباب ، ثم قذف أحدهم بصلة ، أصابت وجه أحد الروس ، الذين انقضوا على المغاربة ونشبت بين الطرفين معركة عنيفة ..

وهنا ارتكب (لى تاو) أكبر خطأ فى مهنته .. لقد تدخل لفض النزاع ، وحاول أن يفصل بين المتصارعين ، فلم يكن من أحدهم إلا أن ضربه بجسم ثقيل على رأسه ، فسقط فاقدًا للوعى ..

وعندما وصلت الإسرائيلية إلى المكان ، كان يكتظ برجال الشرطة الذين ألقوا القبض على المتشاجرين ، ورجال الإسعاف ، الذين انهمكوا فى نقل المصابين ، ومن بينهم (لى تاو) ..

وكان الجيتار قد اختفى تمامًا ..

وأصيبت الإسرائيلية بالذعر، فأسرعت عائدة إلى منزلها، ونقلت جهاز الإرسال الى مكان آخر بعيد، ومن هناك أرسلت إلى (القاهرة)، لتبلغهم أن الجيتار قد اختفى وبداخله كراسة الصاروخ (هوك)..

أما (لى تاو) فقد أصيب بارتجاج في المخ، مع كسر بقاع الجمجمة، وقضى في المستشفى قرابة الشهر، وعندما غادرها سلمته الشرطة كل الحاجيات، التي تم العثور عليها في المشرب، والتي ثبت أنها تخصه، ولكن أحدًا لم يعثر على أدنى أثر للجيتار، على الرغم من أنه مسجل ضمن ما تم العثور عليه بعد المشاجرة..

والعجيب أن (لى تاو) عثر وسط متعلقاته على تذكرة سفر الى (هونج كونج) تحمل اسمه، مع تاريخ سفر مفتوح..

وبعد ثلاثة أيام وصل (لى تاو) الى (هونج كونج)، وسافر في صباح اليوم التالي الى (القـ[illegible]، وهناك استقبله اثنان من الرجال في [illegible] مبنى المخابرات العامة، حيث استقبله أحد رجالها بابتسامة كبيرة، قائلاً:

- مرحبًا بك يا بطل.. حمدًا لله على سلامتك

نكس (لى تاو) رأسه في أسف، وهو يقول:

- ولكنني فشلت في مهمتي مع الأسف

ضحك رجل المخابرات، وهو يقول:

- لا يمكن أن تفشل أبدًا، ما دمت تعمل لحساب المخابرات المصرية، ثم نهض إلى دولابه، مستطردًا:

- وبالمناسبة.. عندي شيء يخصك هنا.

ووثب (لى) من مقعده بانفعال عنيف، عندما أخرج رجل المخابرات الجيتار من دولابه، وناوله إياه..

واختطف (لى تاو) الجيتار في لهفة، وضمه إليه في حنان، وهو يهتف:

- إذن فأنتم الذين أخذتموه؟!!

ابتسم رجل المخابرات، وهو يقول:

- لقد احتفظنا به لك، ولكننا استعدنا كراستنا من قاعه بالطبع

أطلق (لى تاو) ضحكة مرحة، مفعمة بالارتياح، وهو يقول:

- كان ينبغي أن أتوقع هذا.. كان ينبغي أن أتوقعه.

اتسعت ابتسامة رجل المخابرات، وهو يربت على كتفه، قائلاً:

حمدًا لله على سلامتك يا بطل.

امتلأت نفس (لى تاو) بالارتياح، وضم جيتاره إليه في سعادة ظافرة، ثم انطلقت أصابعه تداعب تلك الأوتار، التي عشقها طويلاً..

أوتار الخطر

* * *

بئر الخيانة ..

أطل صيف عام 1969م على (القاهرة) حاملاً موجة حارة مبكرة ، لهثت لها الأنفاس المكروبة ، والقلوب المنغمسة فى حرب الاستنزاف ، التى بلغت أوجها فى تلك الفترة ، والمصريون يصلون بكامل جهدهم ، لإقامة حوائط الصواريخ على الضفة الغربية لقناة (السويس) ، ضمن خطة شاملة لتعزيز الدفاعات الجوية ، والاستعداد للثأر من الإسرائيليين ، الذين احتلوا (سيناء) ، بعد نكسة يونيو 1967م ، وضاعفت الحرارة الزائدة فى متاعب الرجال وإرهاقهم على الجبهة ، وهم يقيمون منصة جديدة للصواريخ ، و ...

وفجأة ، ظهرت الطائرات الإسرائيلية فى الأفق ..

كانت تحلق على ارتفاع منخفض ، وهى تنقض على موقع المنصة الجديدة مباشرة ، على نحو يشفّ عن تحديدها لهدفها بدقة ، وانطلقت صواريخها تنسف الموقع وتطيح بعدد من العاملين المدنيين فيه ، فى حين اندفع العسكريون يمطرونها بنيرانهم ، ونجحوا فى إصابة إحدى الطائرات الإسرائيلية ، التى واصلت طريقها هاربة ، لتسقط فى قلب (سيناء) ، فى حين فرت الطائرات الأخرى ، بعد أن أتمت مهمتها ، ودمرت منصة صواريخ جديدة ..

ولم تمض ساعة واحدة على الحادث ، حتى كانت مائدة الاجتماعات الخاصة ، فى مبنى المخابرات العامة المصرية تضم عدداً من أبرع الخبراء فى هذا المجال ، ومدير الجهاز يواجههم فى حسم واهتمام بالغين ، ويشير بيده ، قائلاً :

ـ إنها ليست المرة الأولى ، التى يهاجم فيها الإسرائيليون إحدى منصات صواريخنا أثناء تنفيذها ، وهذا يعنى وبكل وضوح ، أن للإسرائيليين جاسوساً ، ينقل إليهم تفاصيل ومواقع ورسوم المنصات .

قال أحد الرجال بسرعة :

ـ لقد درسنا هذا الاحتمال في اجتماعنا السابق وبناء عليه ، قمنا بعدد من التحريات حول العاملين في المواقع ، والمسئولين عن بنائها ، وواضع الرسوم والتصميمات الهندسية الخاصة بها ، وكل من يتصل عمله بالأمر ، على نحو أو آخر ، وراجعنا وسائل الهجوم الجوى على المواقع ، بالاستعانة بعدد من الخبراء العسكريين فى الطيران ، وتوصلنا بعد كل هذا إلى نتيجة حاسمة ، تثير فى نفسنا الكثير من القلق .

مال مدير المخابرات إلى الأمام ، وهو يسأل فى اهتمام مشوب بالقلق :

ـ وما هى ؟

التقط رجل المخابرات نفسًا عميقًا ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ الإسرائيليون ، لا يمكنهم مهاجمة مواقع الصواريخ بهذه الدقة ، إلا لو كانت لديهم الرسوم التفصيلية الكاملة لها .

وفجرت العبارة قنبلة من الصمت فى المكان ، فقد كانت تعنى ، وبكل وضوح أن الخائن ، الذى يمد الإسرائيليين بالرسوم الهندسية للمواقع ، واحد من كبار المهندسين أو المسئولين ، فى شركة المقاولات الضخمة الشهيرة ، التى أسندت إليها عملية بناء حائط الصواريخ .

ودون أدنى تردد أمر مدير المخابرات رجاله بمواصلة تحرياتهم على أعلى مستوى ، للتوصل إلى الخائن ، وحماية عملية بناء حائط الدفاع الجوى المصرى والعاملين فيه

أو بمعنى أدق حماية أمن (مصر) كلها

ولم يمض أسبوع واحد على هذا الاجتماع ، حتى طلب أحد الرجال مقابلة مدير المخابرات لأمر عاجل ، ولم يكد يلتقى به ، حتى قال فى انفعال واضح :

ـ توصلنا إلى الخائن ، فى قضية حائط الصواريخ .

رفع المدير عينيه إليه فى لهفة ، وهو يسأل

ـ ومن هو ؟

دفع الرجل ملفًا كبيرًا أمام المدير ، وهو يجيب

ـ ابن شقيقة رئيس مجلس إدارة شركة المقاولات الشهيرة اسمه (بهجت حمدان) ..

وكانت مفاجأة ..

منذ بدايته ، كان (بهجت) فاشلاً ، لم يحقق نجاحًا فى حياته الدراسية أو العملية ، كما أنه نشأ مستهترًا لامباليًا ، تمتلئ نفسه بسخط لا مبرر له ، وبطموح سلبى ، لا يرتبط فى أعماقه بضرورة العمل ، أو حتمية الكفاح لبلوغ المآرب ..

ولأنه ابن شقيقة المهندس (ع .أ .ع) ، فقد حصل بضغوط من والدته على شقيقها ، على عمل فى شركة المقاولات الشهيرة ، يتناسب إلى حد ما ، مع ضعف كفاءته ، ومحدودية خبرته وقدرته ..

وعلى الرغم من أن الحصول على مثل هذا العمل ، يُعد فرصة عظيمة نادرة لشاب مستهتر محدود القدرات مثل (بهجت) ، إلا أنه لم يقتنع به قط ، وإن لم يبذل أدنى جهد للحصول على عمل أفضل ، وإنما راح يبدى تبرمه باستمرار ، ويصطدم برؤسائه ، ويهمل فى عمله ، اعتمادًا على قرابته لرئيس مجلس إدارة الشركة ، لذا فقد كانت صدمته عنيفة للغاية عندما أصدر المهندس (ع ا ع) شخصيًا قرارًا بطرده من العمل ..

وثارت الشقيقة وغضبت ، وحزنت واعترضت إلا أن شقيقها لم يتراجع عن قراره قط، وأعلن فى وضوح أن (بهجت) لا يصلح لأى عمل جاد ، وأنه غير مستعد لإعادته إلى العمل ، بعد كل ما سببه له من متاعب ومشكلات لا حصر لها ..

وغضب (بهجت) من خاله ، وقرر أن يثبت له أنه ناجح وكفء ، فغادر (مصر) كلها إلى (أوروبا) ، واختار (ألمانيا) بالتحديد لبدء نشاطه وإثبات وجوده ..

ولكن الوضع فى (ألمانيا) لم يكن يختلف كثيرًا عنه فى (مصر) ، إذ أن العمل ، فى أى مكان فى العالم ، يتطلب النشاط والحماس والكفاءة ، و(بهجت) يفتقر بطبيعة الحال إلى كل هذا ..

وكما يحدث لكل شخص فى مثل وضعه ، تنقّل (بهجت) بين عدد من المهن والأعمال ، التى فشل فى تحقيق أى نجاح فيها ، حتى انتهى به الأمر فى وظيفة بسيطة متواضعة ، فى مطبخ أحد فنادق الدرجة الثانية ، تكفى بالكاد لإقامة أوده ، ونفقاته الضرورية للغاية ..

وفى تلك المرحلة بالتحديد ، التقى بـ (أدهم) ..

كان هذا فى ليلة من ليالى السبت بعد أن انتهى (بهجت) من عمله ، وانطلق كعادته إلى بار قريب ، ليقضى فيه سهرة متواضعة ،

بجزء كبير من راتبه الأسبوعى ، لم يكن يكفى إلا لتناول كأس من الخمر ، والاكتفاء بمراقبة الفتيات حتى منتصف الليل .

ثم وقع بصره على (أدهم) ..

كان شابًا وسيمًا ، يحتل مع رفيقاته مائدة كبيرة ، يراق فوقها الخمر أنهارًا ، بمبلغ يساوى ما يمكن أن يربحه (بهجت) من عمله فى عام كامل ، وينفق فى سخاء واضح ، كما لو أنه يخفى فى جيبه مطبعة خاصة لطبع الماركات الألمانية ، وسال لعابه ليغرق لهفته كلها ، والحسد يعتصر كل مشاعره بلا رحمة ..

ولكن فجأة التقطت أذناه كلمة عربية ، نطقها الشاب الوسيم بلهجة مصرية خالصة ، وهو يطلق ضحكة عالية مجلجلة ..

وبكل اللهفة فى أعماقه هتف به (بهجت) :

- أنت مصرى ؟!

التفت إليه (أدهم) وهو يقول :

- بالطبع .. مرحبًا بك يا رائحة الأحباب .

ودعاه فى حماس لمشاركته المائدة ، فلم يتردد (بهجت) لحظة واحدة ، وانضم إلى (أدهم) ورفيقاته ، وراح ينهل مما حوله فى نهم ، والشاب يراقبه فى اهتمام ، ويتحدث معه عن (مصر)

وأحوالها ووضعها بعد نكسة يونيو ، ثم لم يلبث الحديث أن تطور إلى حوار حول حرب الاستنزاف ، ومحاولة (مصر) لإعادة بناء جيشها ، وهنا تراجع (بهجت) فى مقعده ، ورفع سبابته فى حكمة مصطنعة ، قائلاً :

ـ ولكن هذا يتكلف ثروة طائلة ..

حائط الصواريخ وحده يستنزف الكثير والكثير ، وسيحتاج بناؤه إلى جهد هائل .

ضحك (أدهم) وهو يقول :

ـ تتحدث وكأنك عليم ببواطن الأمور .

هز (بهجت) كتفيه ، وأجابه فى لا مبالاة .

ـ هذا أمر طبيعى فأنا ابن شقيقة المهندس (ع .أ .ع) ، وكنت أعمل فى شركته .

وكانت الخمر قد لعبت برأسه ، حتى إنه لم ينتبه إلى ذلك البريق ، الذى أطل من عينى (أدهم) عند سماعه العبارة ، ولا إلى حركته الحادة ، وهو يميل إلى الأمام ، ويتطلع إليه فى اهتمام شديد ، وكأنما يستشف صدق عينيه .

وانتهت السهرة فى ساعة مبكرة من الصباح التالى ، ولم يدر

(بهجت) حتى كيف عاد إلى منزله ، ولكنه استيقظ ظهراً ، وهو يعانى من صداع شديد ، ونسى كل ما يتعلق بأدهم وسهرته طوال أسبوع العمل التالى ، إلا أنه لم يكد يدلف إلى البار فى ليلة السبت ، حتى وجد نفسه يهتف فى حماس ، وهو يندفع نحو مائدة (أدهم) الحافلة :

ـ أهلاً .. أهلاً بصديقى العزيز .

وفى هذه المرة ، استقبله (أدهم) فى حماس منقطع النظير ، وأغدق عليه فى سخاء ، وهو يسأله عن أحواله ، وعمله ، وقرابته للمهندس (ع أ .ع) ثم لم يلبث أن عرض عليه أن يبحث له عن عمل آخر ، فوافق (بهجت) على الفور ، دون أن يسأل عن طبيعة العمل ونوعه ، وعندما نبهه (أدهم) إلى هذا ، تراجع (بهجت) وهو يحمل كأسه ، وأجاب بلهجة لا تقبل الجدل :

ـ اسمع يا صديقى .. أنا مستعد للعمل مع الشيطان نفسه ، لو أنه يدفع بسخاء .

والتقط (أدهم) العبارة ، وابتسم وهو يغمغم :

ـ مبدأ رائع يا صديقى .

ومن المؤكد أن هذا الرد قد تمت دراسته بدقة بالغة ، من قبل الرجال الذين يعمل (أدهم) لحسابهم ، وأنهم أضافوه إلى كل

ما جمعوه من معلومات حول (بهجت) وماضيه، وطبيعته، وآراء زملاء العمل فيه. فقد اتخذوا قرارًا عجيبًا، أبلغوه إلى (أدهم) الذي اتصل هاتفيًا ببهجت في عمله، وطلب منه مقابلته في بار آخر صغير عند أطراف المدينة. وعندما التقيا، قال (أدهم):

عندي لك عمل جيد. ستحصل منه على مرتب كبير ومكافآت سخية تفوق كل ما حلمت به طوال عمرك.

أجاب (بهجت) في سرعة، واللهفة تلوح من كل حرف ينطق به:

- وماذا تنتظر؟.. هيا بنا إليه يا رجل.

سأله (أدهم)، وهو يتطلع إلى عينيه مباشرة.

- ألا ترغب في معرفة طبيعة العمل أولاً؟

هتف (بهجت):

- وما الذي يعنيني في هذا؟.. إنه عمل مربح، وهذا يكفي.

صمت (أدهم) لحظة، ثم مال إلى الأمام، ونفذ ما أمره به رؤساؤه، وهو يقول:

- ستعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية.

لم تكن هذه المواجهة المباشرة أبدًا طبيعية أو مألوفة، أو حتى منطقية في عالم المخابرات إلا أنه من الواضح أن دراستهم لشخصية (بهجت) أنبأتهم أنه لا يتورع عن القيام بأي عمل كان، أو التردد إلى أدنى مستوى، ما دام سيحصل نظير هذا على المال الوفير..

ولقد كانوا على حق، فكل ما فعله (بهجت) هو أن انتفض لحظة، وتسمر لثوان محدودة، ثم لم يلبث أن مال نحو (أدهم)، وسأله في لهفة، أوضحت موافقته غير المشروطة:

- وكم سيدفعون؟

وكانت هذه هي البداية، فقد تلقى (بهجت) عددًا من التدريبات الخاصة بالتجسس، على يد بعض خبراء المخابرات الإسرائيلية لتنتعش أحواله المالية، مما يحصل عليه من المال من الإسرائيليين، حتى إنه تزوج ألمانية جميلة، وقضى معها بعض الوقت، قبل أن يصدر إليه الأمر بالعودة إلى (القاهرة)، لبدء مهمته هناك..

وعاد (بهجت) إلى (مصر)، تحت ستار أنه يعمل لحساب شركة ألمانية لتوريد السلاح، وبدأ اتصالاته ببعض المسئولين للحصول على عقود توريد للشركة المزعومة، في نفس الوقت الذي عاد فيه إلى شركة المقاولات الشهيرة بحجة لقاء زملاء العمل السابقين..

والعجيب أن (بهجت) ، الذى كان يفتقر طيلة عمره إلى النشاط والحيوية ، فى كل عمل شريف التحق به ، قد تحول إلى شعلة منهما ، وهو يبذل قصارى جهده فى محاولة إغراء بعض العاملين بالشركة للحصول على الرسوم الهندسية لمواقع الصواريخ ، التى تبنيها شركة المقاولات لحساب الدولة ، ليرسلها إلى الإسرائيليين .

ومن خلال محاولاته المستمرة ، ذهب (بهجت) لزيارة خاله المهندس (ع.أ.ع) ليثبت له نجاحه فى العمل فى (ألمانيا) ، وليبحث فى الوقت نفسه عن وسيلة للحصول على الرسوم المطلوبة .

وأخيرًا ، عثر (بهجت) على بغيته ..

كان أحد مساعدى خاله ، وقد ألهب (بهجت) طموحه ، وأقنعه بقدرته على إيجاد عمل له فى الشركة الألمانية ، فسال لعاب الرجل ، وراح يمد (بهجت) بالرسوم الهندسية ، طمعًا فى هذا العمل الوهمى ..

وعندما بدأ رجال المخابرات العامة تحرياتهم حول الأمر ، لم يكن الحصول على النتائج سهلاً أو هينًا ، مما دفعهم لبذل جهد خرافى ، فى وقت محدود للغاية ، حتى لاحظوا اهتمام (بهجت) الشديد بزيارة الشركة ، وتوطيد صلاته بالعاملين فيها ، على الرغم من أنه لم يعد ينتمى للمهنة أو العمل ..

وفى دقة وبراعة ، بدأ رجال المخابرات تحرياتهم حول الشركة ، التى يعمل لحسابها (بهجت) هذا ، ونشط عملاء المخابرات فى (ألمانيا) لجمع أكبر قدر من المعلومات عنها ..

وجاءت النتيجة مدهشة ..

فالشركة الألمانية لم تكن سوى ساتر للمخابرات الإسرائيلية ، ويرأسها ثلاثة من الألمان يعملون لحساب (الموساد) ، مباشرة ..

وهنا تأكد الأمر ، وبدأ الرجال فى إعداد خطة إلقاء القبض على الخائن .

وفى تلك الفترة كان (بهجت) يستعد للعودة مع زوجته الألمانية إلى (ألمانيا) ، حاملاً مجموعة من الرسوم الهندسية ، التى تركها لدى والدته ، فى منزله فى منطقة (غمرة) ، فى حين كان يقيم هو فى فندق (النيل هيلتون) ، لذا فقد أعد رجال المخابرات خطتهم ، بحيث ينقض فريقان من الرجال على المنزل والفندق فى آن واحد ..

وفجأة ، وبينما كان (بهجت) فى ذروة إحساسه بالنجاح والتفوق ، على الرغم من غضب زوجته ، التى علمت بما يفعله ، وثارت على خيانته لوطنه ، باغته رجال المخابرات فى حجرته ، وأعلنوا هويتهم ، فاتسعت عيناه عن آخرهما ، فى مزيد من الذعر والذهول ، قبل أن ينهار على أقرب مقعد إليه ، وهو يقول :

ـ لست أدرى كيف فعلتم هذا ..

لقد كنت حريصًا للغاية ، وقد أكدوا لى أنه لن يمكنكم كشف أمرى أبدًا .

أجابه ضابط المخابرات المصرى فى هدوء :

- كانوا مخطئين .

زفر (بهجت) فى مرارة ، وهز رأسه فى ألم ، قائلاً :

- نعم .. كانوا مخطئين ..

ورفع عينيه البائستين إلى ضابط المخابرات ، مستطردًا :

- اسمح لى بتحية المخابرات المصرية .

بكت زوجته كثيرًا ، وهى تصف لرجال المخابرات رفضها لما فعله زوجها ، ومحاولاتها الفاشلة فى تقويمه ، وإعادة الروح الوطنية إليه ، وأقسمت أنه لا شأن لها بكل هذا ، ولقد أكد لها رجال المخابرات المصرية أنهم يعلمون هذا ، ثم أضافوا بلهجة مهذبة للغاية أنه يؤسفهم ألا يمكنهم السماح لها بالعودة إلى (ألمانيا) مؤقتًا ، لأن العملية لم تنته أو تحسم بعد ..

ولم تفهم الزوجة الألمانية ما يعنيه هذا ، إلا عندما قدم الرجال لزوجها رسالة معينة ، وطلبوا منه نسخها بخطه ، وإرسالها إلى الشركة الألمانية ..

وكانت الرسالة متقنة للغاية ، حتى إنها دفعت (أدهم) إلى القدوم إلى (مصر) ، ولم يكد يضع قدمه على أرضها ، حتى وقع فى قبضة المخابرات المصرية ..

وهكذا حقق المصريون انتصارهم الساحق ، فى عملية التجسس على بناء حائط الصواريخ واستنزاف الاقتصاد المصرى ..

ولقد استخدموا (أدهم) فى عملية تبادل ، حصلنا من خلالها على عدد من جواسيسنا ، الذين سقطوا داخل (إسرائيل) .

أما (بهجت) فقد صدر ضده الحكم بالإعدام ، فى حين حصل مساعده فى شركة المقاولات على حكم بالسجن لخمسة عشر عامًا ..

وبقى حائط الصواريخ ، ونما ، واكتمل ، وأصبح واحدًا من أقوى أسلحة الدفاع فى حرب أكتوبر 1973م .

وعندما التف حبل المشنقة حول عنق (بهجت) لتنفيذ حكم الإعدام ، أدرك فداحة الخطأ الذى ارتكبه فى حق نفسه ووطنه ..

وأدرك أن طموحه غير الشريف لبلوغ القمة ، قد أدى به إلى بلا بلا قرار ..

* * *

ثم احترق العميل ..

ارتسمت ابتسامة على شفتي مسئول (الموساد) الإسرائيلي ، وهو ينهض لاستقبال صديقه (جاك بيتون) في مكتبه في (تل أبيب) وشدّ على يده وهو يقوده إلى مقعد وثير ، قائلاً :

ـ مرحبًا بك يا عزيزي (بيتون) .. أية رياح طيبة دفعتك لزيارتي هنا ؟

رسم (جاك بيتون) الذي أطلق عليه المسلسل التليفزيوني الشهير اسم (رأفت الهجان) على شفتيه تلك الابتسامة الهادئة الجذابة عادة ، وهو يلوح بكفه ، قائلاً :

ـ يمكنك أن تقول : إنها زيارة عمل .

رفع مسئول (الموساد) حاجبيه في دهشة ، وهو يقول :

ـ زيارة عمل ؟!.. ما الذي يدور في ذهنك بالضبط يا عزيزي (بيتون) ؟.. هل قررت العمل لحسابنا ؟

ضحك (بيتون) ، وهو يقول :

ـ ليس إلى هذا الحد .

ثم انعقد حاجباه في جدية شديدة ، وهو يستطرد :

ـ الواقع أنني أتيت للإبلاغ عن جاسوس

ومرة ثانية ، ارتفع حاجبا مسئول المخابرات الإسرائيلي ، وهو يقول في دهشة بالغة :

ـ جاسوس ؟!.. ماذا لديك بالضبط يا رجل ؟!.. أفصح بسرعة !

ـ اعتدل (جاك بيتون) في جلسته ، وهو يقول :

ـ الحقيقة أنها مجرد شكوك ، ولكنها تقلقني بشدة ، وواجبي يحتم على إبلاغكم بها . ثم إن الشخص الذي أتحدث عنه ليس عاديًا أبدًا .. إنه ضابط وموجه سياسي ، في وحدة (بالماخ) ، ويقيم عددًا من الندوات ، تحوز إعجاب وانبهار الجميع ، والمحرك الأول لكل حماسهم ووطنيتهم ، حتى إنه ليدهشني أن يكون جاسوسًا مصريًا .

بدا اهتمام بالغ على وجه مسئول (الموساد) ، وهو يسأله :

ـ من تقصد بالضبط ؟

أجابه (جاك) على الفور :

ـ (بولين) .. (بولين ألكسندر) .

انعقد حاجبا المسئول الإسرائيلي في شدة ، وهو يستمع إلى هذا القول ، ولو عرف الحقيقة كاملة ، لامتزج حاجباه بعينيه الجاحظتين ، وسقط فاقدًا للوعي .

ولكنه لم يعرفها ـ لحسن حظ الجميع ـ إلا بعد سنوات طوال ..

وعندما عرفها ، كاد بالفعل يفقد وعيه من فرط الدهشة .. ليس لأن (جاك بيتون) كان أيضًا عميلاً للمخابرات المصرية ، وإنما لأنه لم يجد جوابًا شافيًا للسؤال :

لماذا أبلغ عميل مصرى عن عميل مصرى آخر؟! .

لماذا ؟

كان (بولين ألكسندر) شابًا هادئًا ملتزمًا ، لا يدخن ولا يشرب الخمر ، أو يخالط النساء .. بل كان دائمًا يهوديًا متعصبًا ، دائم التردد على المعابد ، كما اشتهر فى كل الأوساط ، بأنه متحدث جيد مثقف ، يمتلك مقدرة فذة على التأثير فى مستمعيه ، ويقطن منزلاً أنيقًا فى (بئر سبع) يطل على طريق ميناء (إيلات) وشمال صحراء (النقب) ..

ولكنه لم يكن يشعر بالسعادة أو الارتياح .. وبالذات فى الآونة الأخيرة ..

لقد انتابته حالة اكتئاب شديدة فى العام الأخير ، بعد أن تساقط عدد من رفاقه فى الحرب ، وشاهد تجار الدعارة والانتهازيين والأدعياء ينتشرون فى المجتمع الإسرائيلى ، ويتاجرون بكل شىء .. حتى بمعاناة ودماء الشباب ، ثم يستطيعون ـ أو بعضهم على الأقل ـ القفز إلى أعلى المناصب فى السلطة .

وكمحاولة للتخلص من هذه الحالة ، خرج (بولين) فى جولة سياحية ، فى عدد من دول (أوروبا) ، حيث استقر بعد فترة فى فندق متوسط فى (زيورخ) واتخذ لنفسه نظامًا دقيقًا محكمًا ، طوال فترة إقامته هناك ، يطالع أحد كتبه حتى موعد الغداء ، الذى يتناوله وحده ، فى ركن منعزل ، ويعاود القراءة حتى المساء ، ثم يصعد إلى حجرته ، التى تظل أنوارها مضاءة ، حتى ما بعد منتصف الليل ..

ولكن حالة الاكتئاب لم تفارقه قط ..

كان من العسير عليه أن يتقبل كل ما يحدث فى وطنه ، وهو يشعر بالعجز والضعف على هذا النحو .

وفجأة ، وفى ليلة عاصفة ممطرة ، فوجئت صاحبة الفندق (ماريا) بنزيلها (بولين) يرتدى معطفه ، ويندفع لمغادرة الفندق ، فهتفت به :

ـ إلى أين يا (بولين) ؟

أجابها فى توتر واقتضاب بالغين :

ـ لدىّ أمر عاجل .

قالت فى دهشة :

ـ فى مناخ كهذا ؟!

ولكن (بولين) لم يجب تساؤلها ، وهو يرفع ياقة معطفه ، ويغادر الفندق فى سرعة ، فاكتفت برفع حاجبيها وخفضهما ، ثم عادت تزاول عملها بلا مبالاة ..

أما (بولين) نفسه ، فكان يرتجف من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ، لأن ذلك الأمر العاجل ، الذى أراد أن ينجزه بسرعة ، كان أخطر مما ينبغى . بل كان - فى حقيقة الأمر - أخطر منعطف ، فى حياته كلها ..

لقد قرر (بولين ألكسندر) أن يحارب فساد دولته بوسيلة خاصة وعجيبة للغاية ..

بنقل أسرارها إلى الخارج ..

وفى البداية ، اتصل (بولين) بضابط فى المخابرات السوفيتية ، إلا أن المصريين التقطوا هذا الخيط ، وقرروا تحويل الفائدة إليهم .

وفى الأيام القليلة التالية ، لاحظت (ماريا) تحولاً واضحًا فى نهج (بولين) ، فقد بدا شديد التوتر والاكتئاب ، كثير الاعتزال فى حجرته ، كما اتصلت به امرأة مجهولة مرتين ، مرة طلب بعدها سيارة أجرة ، وخرج إليها حاملاً حقيبة صغيرة ، وعاد ليعتزل مرة أخرى فى حجرته ، والمرة الثانية أسرع خارجًا ، وهو شديد المرح .

وأيقنت (ماريا) أن الشاب يمر بتجربة حب جديدة ، ولكن أدهشها أنه عاد يعتزل تمامًا فى حجرته ، وفى اليوم التالى زاره رجل ممشوق القوام ، عريض المنكبين ، استقبله (بولين) فى لهفة ، وقضى معه فى حجرته ما يقرب من الساعة ، ثم هبط معه إلى البهو ، وودعه ، والتفت بسرعة إلى الهاتف ، وطلب تذكرة سفر إلى (قبرص) .

ولم يكد (بولين) يصل إلى (قبرص) حتى اختفى تمامًا ، وتحول إلى رجل آخر ، يحمل اسم (فريتز) ، وملامح مختلفة جديدة ، ويقيم فى فندق (فلوكسونيا) ..

وبعد أسبوع واحد ، سافر (فريتز) بجواز سفر جديد ، على متن واحدة من طائرات شركة (مصر للطيران) ، إلى آخر مكان يمكن أن يتخيله أقرانه ومعجبوه فى (إسرائيل) ..

إلى (القاهرة) ..

* * *

فى شقة خاصة ، فى شارع (فؤاد) فى قلب (القاهرة) ، وصل خبير التنكر فى المخابرات المصرية ، وبدأ عمله لإزالة تنكر (بولين) ، الذى استعاد ملامحه الحقيقية ، التى لا تشبه أبدًا صورته فى جواز السفر ، الذى جاء به إلى (القاهرة) ، واتجه مباشرة إلى مبنى المخابرات العامة المصرية ، حيث التقى بمدير المخابرات

شخصيًا ، ودار بينهما حديث سرى للغاية ، انتهى بقول مدير المخابرات :

ـ والمعلومات التى سترسلها إلينا ، ليست أكثر ، ما يهمنا ، فنحن نريدها لتحول دون نشوب حرب فى المنطقة ، وإنما مايهمنا بالفعل هو سلامتك .. حاول أن تحافظ عليها بقدر الإمكان ، ولو كان هذا على حساب المعلومات .

وخرج (بولين) من حجرة مدير المخابرات وهو من أشد المتحمسين للعمل مع المصريين ، الذين منحوه الرعاية والاهتمام الكافيين ، حتى إنه تناول إفطاره فى اليوم التالى ، وسط مجموعة من شباب المخابرات ، يتوسطهم ضابط برتبة كبيرة ، ثم اصطحبه بعض هؤلاء الشباب إلى جولة سياحية فى (القاهرة) ، انبهر (بولين) خلالها بالآثار المصرية القديمة وتوقف طويلاً أمام الهرم الأكبر ، قبل أن يقول :

ـ عظماء هم أجدادكم ، الذين أقاموا هذا الصرح الضخم ، ليذكركم دائمًا ، بأنكم كنتم يومًا سادة هذا العالم .

وقبل عودته إلى (إسرائيل) تسلم (بولين) جهاز الاتصال اللاسلكى ، وآلة تصوير صغيرة ، وأحبارًا سرية ، ثم غادر (القاهرة) إلى (أثينا) ، ومنها إلى (قبرص) ، حيث استعاد شخصيته الحقيقية ، وجواز سفره الإسرائيلى ، وعاد إلى بيته فى (بئر سبع) .

وكانت مرحلة خصبة للغاية ، فى تاريخ المخابرات المصرية ، إذ إن موقع منزل (بولين ألكسندر) ودرايته الواسعة بالشئون والمعدات العسكرية ، وجاذبيته المعروفة ، واتصالاته الواسعة ، كانت كلها عوامل مناسبة ، لمنح (مصر) جلوسًا على أعلى مستوى .

وكانت كل التحركات العسكرية الإسرائيلية تجاه (إيلات) ، تبلغ المخابرات العامة المصرية ، حتى قبل أن تصل القوات إلى مواقعها هناك .

وعلى الرغم من أن (بولين) لم يتلق طوال حياته ـ سوى عشرين ألف دولار من المخابرات المصرية ، إلا أنه كان يعمل فى حماس شديد ، لاقتناعه الشديد بمبدأ السلام ، ومنع اندلاع الحروب ، الذى تحدث فيه مع مدير المخابرات المصرية .

ولكن الأمر لم يستمر بهذه الروعة إلى النهاية ..

لقد ارتكب (بولين ألكسندر) خطأً واحدًا ، ولكنه كان أكبر خطأ فى حياته كلها ، عندما سعى لتجنيد عريف إسرائيلى يدعى (شالوم) للعمل معه .

وكان هذا (الشالوم) أحد رجال المخابرات الإسرائيلية ..

وفوجئ المصريون ببرقية شفرية من (بولين) ، يخبرهم فيها بعملية التجنيد هذه ، على الرغم من أنهم لم يطلبوا منه القيام بذلك .

والأدهى أن (بولين) صارح (شالوم) بأنه يعمل لحساب المصريين بل وبلغ حدًا في الثقة بالنفس ، جعله يرفض تحذيرات المصريين له ، ويتهمهم بالمبالغة في الشكوك والحذر .

أخيرًا ، أرسلت إليه المخابرات المصرية أحد مندوبيها ، الذي حاول إقناعه بخطأ تصرفه وخطورة موقفه ، وعندما عجز عن هذا ، جذبه إلى نافذة منزله ، وقال في حدة :

ـ انظر جيدًا إلى نهاية الطريق ، وستجد سيارة واقفة لتراقبك طوال الوقت لقد كشف (الموساد) أمرك يا رجل ، والأفضل أن تبادر بالفرار ، قبل أن يطبقوا عليك .

ولكن (بولين) سخر من هذا ، وقال :

ـ هذه السيارات تطوف (إسرائيل) كلها ، ووجودها هنا لا يعني أبدًا أنهم يشكون في أمري .

ثم أضاف في حزم :

ـ كما أنني أثق في (شالوم) تمامًا .

وهنا أدركت المخابرات المصرية أن (بولين ألكسندر) لم يعد يصلح للعمل ..

لقد أصبح مجرد ورقة محترقة ، كشف (الموساد) أمرها ، وأصبح من المحتم إخراجها من اللعبة ، في أقرب فرصة .

ولكن فجأة ، سافر (بولين) إلى (اليونان) وأرسل برقية إلى المصريين ، الذين تجاهلوا أمره ظاهريًا ، وتركوا رجال (الموساد) يتعقبونه في كل مكان في (اليونان) ، ثم أرسلوا خلف الجميع اثنين من مندوبيهم ، وهما (محمد حسونة المقرن) و(ماجد حلمي أندراوس) لمراقبتهم طوال الوقت .

ولم يكد (بولين) يفتح الباب حتى دلف إلى الحجرة رجل قوي ناوله ورقة مكتوبة وهو يشير إليه بقراءة الورقة ، التي تقول :

ـ أنت مراقب .. اتبع التعليمات بمنتهى الدقة ، لتهرب من هنا .

ثم أعطاه (باروكة) شعر ، وملابس جديدة ، أصبح (بولين) بعدها يحمل هيئة جديدة تمامًا ، نجحت في خداع مراقبي الموساد ، وهو يغادر حجرته بالفندق ، ويستقل المصعد ، ويهبط إلى المرقص ، حيث التقى بفتاة وشابين ، استقل معهم سيارة خضراء ، اتخذت طريقها إلى ميدان (أومونيا) ثم إلى شاطئ (أثينا) ، وبعدها انحرفت فجأة إلى شارع جانبي ، ومنه بسرعة إلى فيلا صغيرة ، حيث التقى باثنين من رجال المخابرات المصرية ، واجهه أحدهما قائلاً في حزم يمتزج بنبرة عطف واضحة :

ـ إننا نراقبك منذ وصولك إلى هنا ، ولكننا لم نتصل بك ، لأن الإسرائيليين كانوا يراقبونك .. ولتعلم أنه ليس أمامك سوى حلين

لا ثالث لهما .. إما أن تسافر إلى (مصر) حيث تحيا معنا هناك حتى آخر عمرك ، ضيفًا معززًا مكرمًا ، جزاء ما قدمت لنا من خدمات ، وهذا سيسعدنا كثيرًا ، أو ترحل إلى حيث تشاء ، بشرط أن تنسى كل صلة لك بنا ، فقد تجاوزت اتفاقنا ، وأصبحت عميلاً محترقًا ، لا يصلح للعمل .

كانت فرصة العمر بالنسبة لرجل مثل (بولين ألكسندر) ولكنه رفضها بعناد عجيب ، وحاول إقناع المصريين مرة أخرى بأنه ما زال صالحًا للعمل ، وبأنهم مبالغون فى شكوكهم ، بل وعرض عليهم توسيع شبكة معلوماته فى (إسرائيل) وتجنيد عدد أكبر للعمل لحساب المصريين و ...

وأدرك المصريون أنه لم تعد هناك فائدة من هذا العميل قط ، وأن عناده وغباءه سيلقيان به إلى الجحيم حتمًا سواء داخل (إسرائيل) أو خارجها ..

خاصة وقد قرر العودة بقدميه ، إلى (إسرائيل) كنوع من التحدى لإثبات صحة نظريته ، وقدرته على توسيع نطاق عمله هناك .

ولأن (بولين) صار ورقة محترقة حتى النهاية ، قرر المصريون الاستفادة منها إلى أقصى حد ، بدلاً من خسارة كل شىء ..

وفى اليوم التالى مباشرة ، كان هناك عميل مصرى ، فى هيئة

تاجر دراجات فرنسى ، يلتقى بالمصرى (رفعت الجمال) ، الذى يقيم فى (إسرائيل) منذ سنوات ، باسم (جاك بيتون) ، ويقول له :

- هل تذكر العميل (بولين ألكسندر) ، الذى حدثتك عنه من قبل ؟

وعندما أجابه (بيتون) بالإيجاب ، استطرد الرجل :

- نريدك أن تعد كل الترتيبات ، للإبلاغ عنه ، باعتباره عميلاً للمخابرات الألمانية .

بدت الدهشة على وجه (جاك بيتون) ، وهو يقول :

- هل نبلغ عن أحد عملائنا ؟!

أجابه الرجل بنبرة حزينة :

- هذا ليس بالأمر المبهج ، ولسنا سعداء باتخاذ مثل هذا الإجراء ، ولكن (بولين) جعل من نفسه عميلاً محترقًا ، بعناده وإصراره وغبائه ، واختار أن يلقى بنفسه فى الجحيم ، وما دامت لا توجد وسيلة لإنقاذه ، أو منعه من السقوط فى أيدى المخابرات الإسرائيلية ، فالأفضل أن نستفيد من مثل هذه الفرصة ، لتقوية مركزك ، وإظهار وطنيتك وإخلاصك ، وتدعيم صلاتك بالمسئولين .

كان (جاك بيتون) يشعر بالاستهجان تجاه هذا العمل ، إلا أنه لم يلبث أن استوعب الموقف كله ، وأدرك بحسه الأمنى أن إنقاذ

(بولين ألكسندر) صار مستحيلاً ، ومن الأفضل بالفعل الاستفادة من الموقف لصالحه .

وكان له هذا ..

لقد صافحه مسئول (الموساد) فى حرارة بالغة ، وهو يودعه خارج مكتبه ، وأثنى كثيرًا على وطنيته وحماسه ، ولم يخبره بأنهم يعلمون بأمر (بولين) مسبقًا ، ولكنه ذكر هذا فى تقريره السرى ، الذى حصلت المخابرات المصرية على صورة واضحة منه فيما بعد ..

وبكل عناد وسذاجة ، استقل (بولين) الطائرة ، عائدًا إلى (تل أبيب) حيث استقبله رجال (الموساد) وحملوه مباشرة إلى السجن ..

وطوال محاكمته ، أنكر (بولين) تمامًا صلته بأجهزة المخابرات لأية دولة ، ونسى أنه يحاكم بتهمة التجسس ، فحول المحاكمة إلى قاعة ندوات ، راح يلقى فيها محاضراته ومواعظه الطويلة عن العنصرية ، والتفرقة بين طوائف اليهود ، وفساد رجال السلطة والجيش ، ورفض الدفاع عن نفسه تمامًا ..

وفى النهاية ، صدر الحكم بسجنه مدى الحياة ، فى حين تلقى (جاك بيتون) خطاب شكر طويلاً من المخابرات الإسرائيلية ، لم

يدرك مرسلها أنه إذا كان هناك عميل قد احترق ، فما زال هناك آخر على القمة ، لم يحترق بعد .

ولن يحترق أبدًا .

عميل يدعى (بيتون) أو المصرى (رفعت الجمال) .

* * *

جاسوس الميناء

ازدحم ميناء (الإسكندرية) ، في ذلك الصباح ، السادس من مارس 1975م ، بعدد كبير من عمال الشحن والتفريغ ، الذين اصطفوا أمام واحد من أشهر مكاتب خدمة البواخر والتخليص الجمركي في ذلك الحين والتابع لشركة ملاحة إيطالية والمملوك لرجل أعمال معروف ، يحمل اسم (جلال عبد الغفور) صاحب التوكيل الوحيد باسمها ، في (الإسكندرية) كلها ؟!

وفي أحد الأركان ، مال أحد العمال على أذن زميله ، وهمس :

ـ سبحان المعطي الوهاب .. هل تذكر (جلال عبد الغفور) هذا ؟!.. لقد كان زميلاً لنا ، منذ عشر سنوات فحسب .

تنهد زميله ، وهمس بدوره ، وهو يتلفت حوله ، خشية أن يسمعه أحد رجال (جلال) :

ـ ليته كان كذلك فحسب .. لقد كوّن ثروته من سرقات الجمارك .

بتر كلاهما حديثه ، مع وصول ذلك الرجل الوقور ، الذي اعتاد زيارة (جلال عبد الغفور) ، والذي اعتاد الجميع تسميته بالحاج (محمد) ، وأفسحا له الطريق ، مع من فعل من العمال ، حتى وصل إلى داخل المكتب ، وخلفه رجلان آخران ، واتجه إلى السكرتيرة ، قائلاً :

ـ هل (جلال) بك هنا ؟

نهضت السكرتيرة بسرعة ، تفتح له باب مكتب (جلال) ، وهي تقول في حرارة :

ـ نعم .. إنه هنا .. تفضل يا حاج (محمد) .

دخل الرجل وزميلاه إلى مكتب (جلال) ، الذي نهض يستقبلهم في حرارة ، على الرغم من وجود أحد العملاء في مكتبه ، وقال وهو يقدم الحاج (محمد) للعميل :

ـ هذا هو العقيد (محمد) ، من إدارة مكافحة التهريب .

همّ العميل بمصافحة العقيد (محمد) ، ولكن هذا الأخير لم ينتبه إليه ، وهو يقول في صرامة وحزم عجيبين :

ـ خطأ يا (جلال) .. صحيح أنني أحمل رتبة عقيد ، ولكنني لست أعمل في مكتب مكافحة التهريب ، بل في مكان آخر أكثر أهمية ..

تطلّع إليه (جلال) في حيرة وتساؤل ، فأضاف الحاج (محمد) في هدوء حازم :

ـ أنا عقيد في المخابرات العامة المصرية يا (جلال) .

انتفض العميل في هلع ، وسحب يده في سرعة وذعر ، في حين تجمدت مشاعر (جلال) كلها ، وانعقد لسانه في دهشة بلغت حد الذهول ..

لقد كانت المفاجأة تعنى أن أمره قد انكشف وأنه لم يعد بالنسبة لهم رجل الأعمال وصاحب التوكيلات البحرية المعروف ..

لقد عرفوا أنه جاسوس ..

جاسوس لحساب (إسرائيل) ..

* * *

كانت البداية أيضًا فى الميناء ..

ولم تكن كالنهاية سليمة أو شريفة ..

صحيح أن (جلال) كان يحمل تصريحًا بدخول الميناء ، والعمل داخله كعامل شحن وتفريغ ، إلا أنه لم يكتف أبدًا بهذا العمل الشريف ، على الرغم مما يدره من دخل معقول ، وإنما لجأ إلى وسيلة بعيدة كل البعد عن الشرف ..

إلى السرقة ..

وبرع (جلال) فى وسائل ابتكار السرقات ، وتضاعف دخله من المال الحرام ، فراح ينفقه أيضًا فى الحرام ، ويخسر معظمه كل ليلة على موائد القمار ، فى القهوة التى اعتاد الجلوس إليها يوميًا ..

وكلما خسر (جلال) أكثر ، صارت حاجته إلى المال الحرام أكثر وأكثر ..

ولم يتوقف (جلال) عن لعب القمار ، إلا بعد أن تزوج ابنة خالته (عزيزة) ، التى سألته فى ساعة صفاء :

ـ أتحبنى يا (جلال) ؟

هتف بكل حرارته وحماس :

ـ أكثر من نفسى يا (عزيزة) .

مالت عليه وقالت فى رجاء ، مزجته بكل دلالها وحنانها :

ـ أريد أن أحيا بنقود حلال .. لا قمار ولا سرقة ..

ولم يتردد (جلال) بل قال فى حسم :

ـ فليكن .. لا سرقة ولا قمار بعد اليوم وتوقف (جلال) عن لعب القمار ..

ولكنه لم يتوقف عن السرقة ..

لقد حاول ، ولكنه فشل لأن عمله شيال ، لم يكن يكفى متطلباته العديدة ، التى تتجاوز مستواه المعيشى والاجتماعى بكثير ..

ولكن حتى هذا لم يدُم ..

لقد وقع (جلال) مرة فى أيدى السلطات ، التى كشفت هروبه من التجنيد ، فأرسلته ليقضى فترة التجنيد الإجبارى ، فى سلاح المشاة ..

ولكن (جلال) لم يحتمل ..

لقد هرب من الجيش ، وعاد يعمل لص ميناء متسللاً ، حتى ألقت الشرطة العسكرية القبض عليه ، وقضى فترة فى السجن الحربى ، حتى حرب 1967م ..

ومع اندلاع الحرب ، تم الإفراج عن كل المجندين ، فى السجن الحربى ، ليلتحقوا بوحداتهم ، ولكن (جلال) استغل الفرصة ليهرب مرة ثانية ، ويعود للسرقة فى الميناء ..

وفى هذه المرة ، حوكم (جلال) أمام مجلس عسكرى ، وقضى مدة سجنه كاملة ، حتى أفرج عنه ، فى أوائل السبعينات ..

وفى هذه المرة ، قرر (جلال) أن يسافر للعمل فى (روما) ..

كان يرقد إلى جوار (عزيزة) ، التى انهمكت فى إرضاع طفلهما ، عندما قال فجأة :

ـ لقد قررت السفر إلى (روما) .

بهتت (عزيزة) فى البداية ، وأرقدت الصغير على الفراش ، وسألته :

ـ ألا يوجد عمل هنا ؟

شرح لها كيف أن كل أبواب العمل قد أغلقت فى وجهه ، وأنه لم يعد أمامه سوى هذا الحل ..

وصدقته (عزيزة) بلا تردد ، بل واستدانت من جاراتها مائة جنيه ، وأعطتها له ليسافر حتى لا يضطر إلى السرقة ، للحصول على مصاريف السفر ..

وسافر (جلال) ..

سافر وهو يحلم بالعمل والثراء والرفاهية ، ولكن لم يمض شهر واحد فى (روما) ، حتى تضاءلت أحلامه إلى لقمة العيش فحسب ..

ولم يجدها ..

وضاقت كل السبل أمام (جلال) ، وراحت صاحبة (البنسيون) تطالبه بأجر الإقامة ، وهو يتهرب منها مرة ، ويقضى ليلته ساهراً مرة أخرى ..

وفى ذات يوم ، وأثناء هروبه من رجال الشرطة ، فى قلب (روما) ، وجد (جلال) أمامه طابوراً ينتظر ، أمام مبنى من طابقين ، فانضم إليه ، وتظاهر بانتظار دوره ، حتى يبتعد رجال الشرطة ، دون أن يدرى أنه يقف فى طابور ، أمام مكتب العمل ، فى القنصلية الإسرائيلية فى (روما) ..

وفوجئت سكرتيرة المكتب بجواز سفره المصرى ، وصارحته بطبيعة المكتب ، ولكنها حاولت تهدئته ، وإقناعه بأنه الآن فى (روما) ، وليس فى (مصر) ، ولا ضرر فى عمله مع الإسرائيليين ..

وغادر (جلال) المكتب قلقًا، وعاد من فوره إلى (البنسيون)، دون أن يدرك أن دخول الحمام ليس مثل خروجه، فما بين الدخول والخروج، تغيرت أشياء كثيرة .

أشياء بالنسبة للمخابرات الإسرائيلية (الموساد)، وأخرى بالنسبة لمخابراتنا .. المخابرات المصرية ..

فبالنسبة للإسرائيليين، أدهشهم موقف (جلال) كثيرًا، وشك بعضهم في أنه مدسوس، من قبل المصريين، في حين أكد البعض الآخر أنه من المستحيل أن يلجأ المصريون إلى عمل ساذج ومفضوح إلى هذا الحد ..

وقرر الإسرائيليون المضى في اللعبة حتى النهاية ..

وفي المساء نفسه، انضمت إلى نزلاء (البنسيون) فتاة باهرة الحسن، مدت فور وصولها جسور الود بينها وبين (جلال)، الذى بهر بها، وذاب في سحر عينيها، وأسلم قياده لها تمامًا، حتى إنه قضى الليل في حجرتها، ومع الفجر، كان يقص عليها قصة ذهابه إلى القنصلية الإسرائيلية، وعرضهم العمل عليه، فأجابته الحسناء في دلال :

ـ ولم لا ؟!.. الإسرائيليون يدفعون جيدًا .

ثم غمزت بعينها، وأضافت :

ـ خاصة مع نوع سرى من الأعمال .

وفهمها (جلال) على الفور ..

ولم يعترض ..

وفي الصباح، قادته الفتاة بنفسها ـ وحسب الأوامر التى تلقتها ـ إلى زملائها في السفارة الإسرائيلية، واعتبرت بذلك أن دورها قد انتهى ..

وفي السفارة الإسرائيلية، سألت السكرتيرة (جلال) في حسم :

ـ ما العمل الذى تطلبه هنا بالضبط يا (جلال) ؟

أجابها (جلال) في اقتضاب وحزم شديدين :

ـ جاسوس .

وانتفضت السكرتيرة في مجلسها ..

وانتفض معها جهاز (الموساد) كله ..

كان الأسلوب الذى اتبعه (جلال) مباشرًا إلى حد الإرباك، وصريحًا إلى حد الذهول .. ولكن أحدًا لم يرفض هذا العرض ..

كل ما فعلوه هو أن طلبوا منه كتابة كل المعلومات عن نفسه وحياته، ثم اتصلوا برجلهم في (الإسكندرية)، وطلبوا منه التأكد من كل هذا ..

وجاء الرد بالإيجاب ، معلنًا أن كل المعلومات ، التى ذكرها (جلال) حقيقية تمامًا ..

وهنا التقى (جلال) بضابط (الموساد) الإسرائيلى (جان) ، الذى أعلنه بقبول عمله مع جهاز (الموساد) ، ثم منحه جواز سفر إسرائيليًا ، باسم (دافيد شالوم) وطلب منه السفر إلى (تل أبيب) ، للحصول على التدريبات اللازمة ..

أما المخابرات المصرية ، فقد التقط رجالها صورة (جلال) ، وهو يدخل القنصلية الإسرائيلية ، وراقبوا (جلال) نفسه ، وهو يذهب إلى السفارة ، وسجلوا حديثه ومقابلته مع (جان) ، ثم اجتمعوا فى الطابق الخامس ، من مبنى المخابرات العامة المصرية ، لدراسة الأمر ، وفحصه ، وتفنيده ، واتخاذ القرار المناسب فيه ..

وكان العقيد (محمد) ، أو الحاج (محمد) ، هو المسئول عن هذه العملية ، وهو الذى أصر فى البداية على تحذير (جلال) ، بشكل غير مباشر ، قبل التعامل معه باعتباره جاسوسًا ؛ لأن هدف المخابرات ليس إلقاء القبض على الجواسيس فحسب ، ولكن منع سقوطهم فى فخ الجاسوسية أيضًا ..

والحق يُقال ، لقد حاول رجال المخابرات المصرية تحذير (جلال) أكثر من مرة ، خلال فترة عمله مع (الموساد) ، ولكن جشعه

وشراهته للمال أعميا بصره ، ولم ينتبه إلى تلك المحاولات قط ، وواصل العمل لحساب المخابرات الإسرائيلية حتى النهاية ..

وتلقى (جلال) ثلاثة تدريبات فى (تل أبيب) ، كافأه الإسرائيليون بعدها بمبالغ ضخمة من الدولارات ، وبرتبة رائد فى الجيش الإسرائيلى ، تحت اسمه المستعار (دافيد شالوم) ، ثم ساعدوه على الحصول على توكيل شركة ملاحة إيطالية لخدمة بواخرها فى ميناء (الإسكندرية) ..

وبدأ (جلال) مرحلة التجسس الحقيقية ..

وكان جاسوسًا جمّ النشاط ، يُجيد جمع وتصنيف المعلومات ، وإرسالها إلى (تل أبيب) ، بواسطة الحبر السرى ، الذى سلمه إياه الإسرائيليون ..

وذاع صيت مكتب (جلال عبد الغفور) وفرحت (عزيزة) لثراء زوجها ، الذى صار واحدًا من رجال الأعمال المعروفين فى الميناء ، وصار له مكتب فخم ، وسكرتيرة حسناء ..

وهذه السكرتيرة بالذات كانت تحتاج وحدها إلى قصة ..

لقد وقع (جلال) فى غرام سكرتيرته (سونيا) وهام بها ، حتى إنه عرض عليها الزواج ، فى الوقت نفسه ، الذى اتصل فيه العقيد (محمد) بالسكرتيرة ، وقدم لها نفسه باسم العقيد (محمد) ، من

مكتب مكافحة التهريب ، وطلب منها العمل لحسابه ، والتجسس على (جلال) ، مدعيًا أنه شك فى أن (جلال) يعمل بالتهريب ..

وتجسست (سونيا) على (جلال) ، ونقلت كل تحركاته للعقيد (محمد) ، حتى بعد أن تزوجت (جلال) وحصلت منه على عمارة كاملة ، سجلها باسمها ، فى أرقى أحياء (الإسكندرية) ..

ولكن (جلال) كشف أمر العلاقة ، بين (سونيا) والعقيد (محمد) ، وواجه زوجته الثانية بها فى ثورة غضب ، فاعترفت (سونيا) له بكل شىء ..

وصعق (جلال) ، وقرر أن يتأكد من أن العقيد (محمد) يعمل بالفعل ، فى مكتب مكافحة التهريب ، فطلب من (سونيا) إبلاغ العقيد (محمد) ، عن محاولته تهريب شحنة من الذهب ، فى السفينة التالية ..

وأبلغت (سونيا) العقيد (محمد) ، الذى تظاهر بالاهتمام ، وفهم على الفور لعبة (جلال) ، وتعاونت معه إدارة مكافحة التهريب ، وأطبقوا على (جلال) ، وهو يتحدث إلى قبطان السفينة ، ويتسلم منه صندوقًا ، وقدم له العقيد (محمد) نفسه ، بصفته أحد ضباط مكافحة التهريب ، وأبرز بطاقة رسمية تحمل هذه الصفة ، قبل أن يكشف أن الصندوق لا يحوى سوى بعض زجاجات الخمر ..

وكان العقيد (محمد) يتوقع هذا ، ولكنه شعر بالارتياح ، لأن (جلال) يثق الآن فى أنه ضابط مكافحة تهريب .. بل يحاول مد جسور الصداقة بينهما ، ورشوته ، ليستغل سلطاته فى التهريب فعليًا ..

وارتبط به العقيد (محمد) وساعده بالفعل فى تهريب بعض البضائع ، حتى اكتسب ثقته تمامًا ، ولكنه فوجئ بأمر مذهل ..

لقد أنهى (الموساد) تعامله مع (جلال) ..

أنهاه قبل أن يحصل هو على دليل إدانة يتيح له محاكمته بتهمة الجاسوسية ..

ولكن القدر أبى أن ينجو الجاسوس ..

لقد اندلعت حرب أكتوبر 1973م ، وجن جنون الإسرائيليين ، وأصبحوا فى أمس الحاجة لكل رجل من رجالهم فى (مصر) ، فعاودوا الاتصال بـ(جلال) ، وطلبوا منه الحضور فورًا إلى (تل أبيب) ، وهناك استقبلوه فى حرارة ، ثم قدموا له أكبر مفاجأة فى حياته ..

زوجته الثانية (سونيا) ..

لقد كانت تعمل لحساب (الموساد) منذ البداية ..

ومع ذهوله ، شرح له الإسرائيليون كيف أنهم دفعوا (سونيا) فى طريقه ، وجعلوها تتجاوب مع العقيد (محمد) ، وتنقل إليه أسراره ، حتى تأكدوا من أنه ضابط بمكافحة التهريب ، وليس ضابطًا للمخابرات العامة ..

وفى هذه المرة ، حصل (جلال) على تدريبات مكثفة ، وعلى عقد مع شركة إنجليزية استثمارية ، وعلى جهاز إرسال قوى ، وآلات تجسس وتصوير حديثة ، وكتاب شفرة ، ومهمة جديدة أكثر خطورة ..

وعرفت (عزيزة) بأمر الزواج الثانى لزوجها (جلال) ، فطلبت الطلاق ، واعتزلت مع ابنها وابنتها فى منزلهم القديم ، على الرغم من محاولات (جلال) المستميتة لتوفير مسكن لائق لهم .

أما (جلال) فقد توطدت صلاته أكثر وأكثر بالحاج (محمد) ، وراح يتلقى كل رسائل (الموساد) وتعليماته ، وينفذ أوامره بمنتهى الدقة ، دون أن يخطر بباله ، ولو للحظة واحدة ، أن الحاج (محمد) كان يقرأ كل تلك الرسائل ، قبل أن تصل إليه ..

أو بمعنى أدق .. كان يقرأ الرسائل الحقيقية ..

فنظرًا لأن الحبر السرى لا يمكن إخفاؤه مرة أخرى ، بعد إظهاره ، فقد لجأ العقيد (محمد) إلى خطة بالغة الذكاء والتعقيد ، لقراءة كل ما يصل إلى (جلال) ..

لقد أحضر خبيرًا للخطوط ، وأوراقًا من نفس النوع واللون ، الذى تكتب عليه الخطابات ، ثم راح يفتح الخطابات ، ويطلب من خبير الخطوط كتابتها بنفس الخط ، ثم يظهر الحبر السرى ، ويستخدم نفس الحبر ، مع خبير الخطوط ، لكتابة التعليمات نفسها ، فى الخطاب البديل ..

وهكذا كان (جلال) يتلقى خطابات كتبتها فى الواقع المخابرات المصرية ، ولكنها تحوى نفس ما كتبته المخابرات الإسرائيلية ، وفى نفس الوقت كان المصريون يمنحونه ما يريدون من معلومات ليرسلها إلى (الموساد) ، وهو يتصور أنها ، معلومات حقيقية ..

ولكن (جلال) وقع يومًا على معلومات حقيقية بالغة الخطورة ، وشديدة السرية ، ووصولها إلى الإسرائيليين يُعد كارثة بكل المقاييس ، لذا كان من الضرورى منعه من إرسال هذه المعلومات ، مهما كان الثمن ..

وهذا ما كان ..

* * *

حاول (جلال) فى البداية إنكار التهمة ، ولكن العقيد (محمد) واجهه بكل الأدلة والبراهين ، وقال فى حزم :

ـ لا فائدة يا (جلال) .. نحن نعرف كل شيء عن (جان) و(سونيا) .. ونعرف أيضًا اسمك ورتبتك فى (إسرائيل) ، أيها الرائد (دافيد شالوم) .

وهنا انهار (جلال) واعترف ، وسلم الكربون السرى والشفرة للعقيد (محمد) ، ووقع اعترافًا تفصيليًا بكل ما فعله ..

وحوكم (جلال عبد الغفور) بتهمة التجسس والخيانة ، وقرر قضاؤه إحالة أوراقه إلى المفتى ، الذى أيّد الحكم بإعدامه ..

ولكن (جلال) أبى حتى أن يتوب عن جرائمه ، بل أصر على الموت كافرًا خسيسًا .. وانتحر (جلال) فى سجنه ..

انتحر لينهى بانتحاره واحدة من أشهر وأخطر قضايا الجاسوسية فى (مصر) ..

قضية جاسوس الميناء .

* * *

زواج .. وحب .. وجاسوسية ..

شعر اليهودى الإسرائيلى (عروف) بسعادة بالغة ، وهو يقضى إجازته السنوية فى العاصمة البرازيلية ، وراح يتحدث مع شقيقه المقيم هناك فى حماس كبير ، ويصف له ما فعله فى مستعمرة (برور حاييم) ، حيث يعيش فى (إسرائيل) ، حتى أمكنه ادخار مبلغ كاف للقيام بمثل هذه الإجازة الممتعة ، وانهمك معه فى حديث طويل ، حتى قاطعهما صوت هادئ يقول :

ـ هل ترغبان فى الحصول على صورة تذكارية ؟

استدار (عروف) ليواجه رجلاً ضخم الجثة ، رومانى الأنف أسود العينين ، يبتسم فى هدوء ، وهو يحمل آلة تصوير عتيقة ، تتناسب حالتها مع ثيابه ، التى تبدو ـ على الرغم من نظافتها ـ قديمة مزرية ، وقبل أن يفتح (عروف) شفتيه لينطق ، سمع شقيقه يقول مبتسمًا :

ـ لا بأس يا (إسحق) .. التقط لنا صورة .

تهللت أسارير (إسحق) ، والتقط لهما الصورة ، ثم قال فى حماس :

ـ ساعة واحدة وأحضرها لكما .

ولم يكد (إسحق) يبتعد ، حتى التفت (عروف) إلـى شـقيقه ، وسأله :

ـ من هذا الرجل ؟

ابتسم شقيقه ، وهو يجيب :

ـ إنه (إسحق بن سالمون) .. يهودى مثلنا ، كان دائم المتردد على المعبد اليهودى فى شارع (عدلى) ، عندما كنا فى (القاهرة) ، وهو شديد التدين ، يعشق الاستماع إلى المزامير ، ويحفظ أسفار (موسى) الخمسة عن ظهر قلب .

هتف (عروف) فى إعجاب وانبهار :

ـ حقًا ؟!

تابع شقيقه ، فى حماس واضح :

ـ لقد فر من (القاهرة) إلى (ريودى جنيرو) ، وعلى الأرجح هناك ، حيث عاش حياة الفقر والعوز ، ثم ابتاع آلـة التصوير القديمة هذه ، ونزح إلى العاصمة ، وها هو ذا يعمل ليسد رمقه .

سأله (عروف) :

ـ ولماذا لم يسافر إلى (إسرائيل) ؟

قال شقيقه مبتسمًا :

ـ هذا حلمه الأعظم ، ولكنه لا يمتلك المال الكافى للسفر .

صمت (عروف) لحظات مفكرًا ، ثم قال فى حزم :

ـ سأدعوه إلى هناك .

ولم تنته إجازة (عروف) حتى كان كان قد وطد صلاته مع (إسحق بن سالمون) ، واصطحبه معه على متن الباخرة (تيبال) إلى (حيفا) ، ثم دعاه للإقامة فى ضيافته يومين ، فى مستعمرة (برور حاييم) ، وبعدها تركه يرحل ليتخذ مكانه فى مستعمرة (تحيا) ، ويتلقى دروس اللغة العبرية ، كأى مهاجر جديد ، وهو يشعر بالسعادة ، لأنه جلب إلى (إسرائيل) مواطنًا مخلصًا ، دون أن يخطر بباله ، ولو لحظة واحدة ، أن (إسحق بن سالمون) هذا ليس يهوديًا على الإطلاق ..

إنه قبطى يونانى ، من أصل إيطالى ، واسمه الحقيقى ليس (إسحق) ، بل (ألبرتو) ... (ألبرتو كورين) ، ثم إنه لم ولن ينتمى أبدًا لدولة (إسرائيل) ..

هذا لأنه يعمل من أجل دولة أخرى ..

من أجل (مصر) ..

عاش (ألبرتو كورين) معظم حياته في (مصر) ، وعلى الرغم من أنه ليس أحد أبنائها ، إلا أنه كان يحمل لها في أعماقه حبًا وانتماءً عجيبين ، جعلاه يشارك الفدائيين المصريين قتالهم في منطقة القناة ، ويقاتل في صفوف أبناء (بورسعيد) ، أثناء العدوان الثلاثي عام 1956م ، ببسالة منقطعة النظير ، وفدائية تثير الانتباه والإعجاب ، مستغلاً ملامحه الأجنبية ، وإجادته التامة للإنجليزية والإيطالية واليونانية والعربية ...

وعندما جاءت مرحلة الهدوء النسبي ، بعد العدوان الثلاثي ، شعرت الدماء الحارة في عروق (ألبرتو) بالتوتر والقلق ، وسرعان ما ملَّ حياة الهدوء والبساطة ، فاتجه ذات يوم إلى مبنى المخابرات العامة ، وقال بكل وضوح :

ـ أريد أن أعمل معكم ، وأعتقد أنه باستطاعتي تقديم خدمات كبيرة لكم ، وعلى الرغم من أن قواعد المخابرات ترفض ضم المغامرين والمتطوعين عادة ، إلا أن ملف (ألبرتو) الضخم هناك جعلهم يستثنونه من هذه القاعدة ، ويجرون معه اتصالاً مباشرًا ...

وفي مطعم هادئ في الهرم ، تبادل (ألبرتو) حديثًا طويلاً مع مندوب المخابرات ، وشرح له ما لديه ، وتحدث بحماس كبير عن مهاراته ، ورغبته في وضعها كلها في خدمة (مصر) ، التي يعشقها ويعشق شعبها ، منذ وضع قدميه فيها لأول مرة .

وظلَّ (ألبرتو) ينتظر الجواب أيامًا في قلق ، حتى وصله أمر بالسفر إلى (الإسكندرية) والإقامة في فندق (سيسيل) ، والانتظار حتى يتلقى أوامر أخرى ..

وفي (الإسكندرية) ، قضى (ألبرتو) عشرة أيام في إجازة إجبارية ، لم يجد ما يفعله خلالها سوى أن يتنزه ويتريض ، ويتطلع إلى البحر طويلاً ، دون أن يتلقى أية أوامر أخرى ، أو يلتقي بأحد ..

وأخيرًا وجد رسالة في انتظاره ، ولكنه لم يكد يفتحها حتى ارتفع حاجباه في دهشة بالغة ، فلم يكن المظروف يحوي سوى تذكرة سينما ..

وأسرع (ألبرتو) إلى السينما ، وقاده العامل إلى مقعده ، ولم تكد الأنوار تختفي ، حتى سمع الجالس إلى يمينه يهمس :

ـ أنا صديق .. بعد انتهاء العرض ستجدني داخل سيارة زرقاء ، في أول حارة إلى يمين السينما .

ولأنه يمتلك موهبة حقيقية في هذا المجال ، لم ينبس (ألبرتو) ببنت شفة ، ولم يتبادل كلمة واحدة زائدة مع جاره ، حتى انتهى العرض . فأسرع إلى أول حارة إلى يمين السينما ، ورآه يجلس داخل السيارة الزرقاء ، فدخل إلى جواره ، وانطلقت السيارة على الفور .

ولاحظ (ألبرتو) أن السيارة تنطلق خارج (القاهرة) فسأل الرجل فى قلق :

ـ وماذا عن حاجياتى ، التى تركتها فى الفندق ؟

أجابه الرجل فى هدوء :

ـ لا تفكر فى مثل هذه الأمور البسيطة ... أشياؤك كلها فى حقيبة السيارة ، ولقد دفعنا حساب الفندق ، مع بقشيش مناسب .

وعندئذ أدرك (ألبرتو) أنه يعمل مع جهاز لا يستهان به ، فاسترخى فى مقعده ، وترك السيارة تنطلق به ، حتى وصل إلى فيلا فى (مصر الجديدة) ، وهناك تلقى تدريبات مدروسة ومكثفة ، حولت من مجرد هاوٍ موهوب ، إلى محترف ..

لقد ألمّ بجانب كبيرة من العبرية ، وبكيفية التعامل مع أجهزة اللاسلكى ، وأدوات التصوير ، وأصبح خبيرًا فى فتح الخزائن ، والتخلص من المطاردات والرقابة ، والتخفى ، و ..

باختصار .. أصبح (ألبرتو كورين) الذكى الموهوب عميلاً لا يستهان به ، قليل الأخطاء ، سريع الاستيعاب ، قادرًا على تقمص شخصيته الجديدة بمهارة مذهلة تستحق التقدير والإعجاب ..

وفى الأسبوع التالى مباشرة ، قضى (ألبرتو) يومين فى

المستشفى ، حيث أجريت له عملية ختان ، أنهت صلته بماضيه ، ومنحته جواز سفر إلى عالم آخر ..

عالم اليهود ..

وبعد العملية ، بدأت مرحلة جديدة فى حياة (ألبرتو) ..

مرحلة زرعه فى المجتمع والأوساط اليهودية ..

وعلى نحو هادئ ومنظم ، بحيث لا يثير الشكوك أو القلق ، راح (ألبرتو) يتردد على المعبد اليهودى فى شارع (عدلى) ، ويتلقى تعاليم الديانة اليهودية فى خشوع واهتمام ، وقدرته المدهشة على الاستيعاب تجعله يحفظ الأسفار كاملة ، ويبدو أمام الطائفة اليهودية كيهودى ملتزم متزمت مخلص ..

ومنذ ذلك الحين ، حمل (ألبرتو) اسم (إسحق بن سلمون) ، الذى يعانى من الاضطهاد ، ويحلم بالفرار من (مصر) إلى أى مكان آخر .

ثم سافر (ألبرتو) إلى (ريودى جانيرو) ..

وعلى الرغم من الحياة القاسية المضنية ، التى عاشها (ألبرتو) فى (ريودى جانيرو) ، إلا أن الرضا كان واضحًا على ملامحه وأسلوبه ، وكأنما يشعر بالسعادة ، لأنه يتحمل كل هذا من أجل الوطن الذى عشق كل ذرة فى ترابه ..

من أجل (مصر) ..

والطريف أن اليهود والمهاجرين كانوا كثيرًا ما يشفقون على (ألبرتو)، الذى ينتقل من مهنة وضيعة إلى أخرى أكثر وضاعة، تكفى بالكاد لسد رمقه، ويستمعون إلى روايته، التى لا يمل ترديدها أبدًا، حول فراره من الاضطهاد، واضطراره إلى السفر، وحلمه بالذهاب إلى أرض الميعاد (إسرائيل)، ثم يمنحونه وجبة ساخنة، أو بعض النقود، التى يتقبلها شاكرًا ممتنًا..

وعلى الرغم من حياة التقشف والفاقة التى كان يعيشها، لم يتوقف (ألبرتو) قط عن أداء الصلوات والعبادات اليهودية، والذهاب إلى المعبد كل سبت، وحفظ المزيد من المزامير، وهو يقيم فى حجرة متواضعة، فى منزل متهالك قديم...

ثم انتقل (ألبرتو) إلى العاصمة، ولم تختلف حياته فيها كثيرًا، عن تلك التى عاشها فى (ريودى جانيرو)، باستثناء أنه ابتاع آلة التصوير العتيقة، وأصبحت له مهنة شبه ثابتة، وهى التصوير.

وفى العاصمة، التقى (ألبرتو) باليهودى الإسرائيلى (عروف) وكان ما كان...

منذ وضع (ألبرتو) قدميه فى مستعمرة (تحيا)، انقطعت صلته تمامًا بالمخابرات المصرية، فلم يتصل به أحدهم، أو حتى

يحاول هذا، ولم يعرف بوجوده داخل (إسرائيل) سوى عدد قليل للغاية من ضباط الإدارة، الذين يتصلون بالموضوع بشكل مباشر.. أما (ألبرتو) نفسه، فكان فى غاية السعادة والسرور، لأنه - كما كان يتصور - أول عميل مصرى يتم زرعه فى قلب (إسرائيل)، وأقبل فى شغف على تعلم اللغة العبرية، حتى أجادها إلى حد كبير، واندمج أكثر وأكثر فى المجتمع الإسرائيلى..

ووقع فى الحب..

ولأن الوقوع فى الحب هو أخطر موقف، يمكن أن يتعرض له جاسوس.. ولأن الفتاة التى وقع فى حبها كانت فاتنة، فى الثامنة عشرة من عمرها، متفجرة الأنوثة، فقد شعر رجال المخابرات بالخطر، وأصدروا أمرًا لعميلهم (ألبرتو) بالانتقال إلى (تل أبيب)..

وحزن (ألبرتو) كثيرًا للقرار، خاصة أنه قد اتفق مع حبيبته (أندرولا) على الزواج، إلا أنه، وعلى الرغم من حزنه، أطاع الأوامر، وطلب من (أندرولا) أن ترحل معه، أو تنتظره، فتشبثت بالبقاء فى مستعمرة (تحيا)، وسافر هو إلى (تل أبيب)..

وأثناء قضاء فترة التجنيد، كانت المخابرات المصرية تتلقى سيلاً من المعلومات من (ألبرتو) الذى التحق بسلاح المدرعات، عن

طريق الاتصالات اللاسلكية ، والرسائل البريدية الشفرية ، التى ينقلها فى معظم الأحيان عملاء آخرون داخل (إسرائيل) ..

وعندما انتهت فترة التجنيد ، استأجر (ألبرتو) منزلاً يطل على ميناء (عسقلان) ، حيث تظاهر بتربية الحمام ، ولخفى تحت أوانى الطعام والشراب ، الذى يقدمه للحمام ، كل أدوات التجسس ونقل المعلومات ، وراح يمارس عمله فى نشاط وحماس ، وينقل إلى (مصر) كل تفاصيل الحركة فى الميناء ، الذى يستخدمه الجيش الإسرائيلى فى تفريغ شحنات الأسلحة باعتباره ميناء منعزلاً ، لا يثير الاهتمام ، أو الفضول ...

واستمر ذلك النشاط عدة سنوات ، حتى صدر أمر جديد ، بانتقال (ألبرتو كورين) من (عسقلان) إلى (تل أبيب) ..

وكما يحدث مع كل تنقلة جديدة ، وكإجراء أمنى وقتى مدروس ، قطعت المخابرات العامة كل اتصالاتها مؤقتًا مع (ألبرتو) ، الذى استأجر حجرة فى منزل العجوز (كريستين) ، وأضاف إلى هواية التصوير هواية أخرى جديدة ، ألا وهى الرسم الزيتى ، فملأ الحجرة بلوحاته ، وهو يقول للسيدة (كريستين) فى حماس :

ـ ما رأيك فى لوحاتى يا سيدتى ؟ .. هل يمكننى بيعها بمبلغ معقول ؟

وكانت العجوز تشعر بالعطف نحوه ، وتجيبه دائمًا فى حماس :

ـ بالطبع يا (إسحق) .. إنها ستجعلك يومًا من الأثرياء .

و (ألبرتو) يشكرها فى سعادة ، ويواصل الرسم فى المساء ، والتصوير فى الصباح ، ويأخذ الصور ، ثم يخفيها بمهارة مدهشة ، خلف لوحاته السريالية ، التى تباع لمندوبى المخابرات الذين يحصلون بدورهم على الصور ..

وعلى الرغم من كل ما فعله ويفعله (ألبرتو) ، ظل قلبه ينبض بالحب ، الذى تركه خلفه فى مستعمرة (تحيا) ، حتى إنه لم يلبث أن طلب لقاءً عاجلاً مع مندوب المخابرات ، وقال له فى خفوت :

ـ أريد أن أتزوج .

سأله الرجل :

ـ إنها (أندرولا) .. أليس كذلك ؟

أجابه (ألبرتو) فى حماس :

ـ إننى أحبها ، ولا يمكننى التخلى عنها ، ثم إن هذا سيوطد صلتى أكثر بالمجتمع الإسرائيلى ، ويتيح لى المزيد من البقاء والاستقرار ، ويدرأ عنى الشبهات تمامًا .

ولم يكن مطلبه سهل المنال ، إذ إن ارتباطه بإسرائيلية سلاح ذو حدين ، فصحيح أنه سيربطه أكثر بالمجتمع ، ولكنه سيجعل احتمالات سقوطه أكبر ، عند أول خطأ ..

وعلى الرغم من هذا جمعت المخابرات المصرية كل المعلومات الممكنة عن (أندرولا) ، بل وأرسلت إليها سائحة فرنسية ، لدراستها عن قرب ، وتقديم تقرير واف عنها ، خشية أن تكون عميلة لجهاز (الموساد) ، أو تربطها به أية صلات قوية ..

وجاءت النتائج كلها فى صالح (أندرولا) ..

إنها مجرد فتاة عادية ، تقوم بتدريس اللغة العربية للمهاجرين الجدد ..

وهكذا حصل (ألبرتو) على موافقة جهاز المخابرات على زواجه من (أندرولا) ، وحصل فى الوقت ذاته على مبلغ كبير من المال ، عن طريق نشاط كبير من مبيعات لوحاته ، حتى لا يثير الشك ..

وتزوج (ألبرتو) حبيبته (أندرولا) ، وساعده هذا بالفعل على الاندماج أكثر وأكثر فى المجتمع الإسرائيلى ، كما ساعده وجود زوجته إلى جواره على كثرة الترحال والتقاط الصور ..

ولكن دوام الحال من المحال ..

لقد لاحظ أحد عملاء (الموساد) ، عندما رأى (ألبرتو) يلتقط بعض الصور التذكارية لجنود المظلات ، أنه أكثر اهتمامًا بتصوير الأسلحة ، منه بتصوير الجنود أنفسهم ، فأبلغ (الموساد) بشكوكه ، لتبدأ مرحلة جديدة من حياة (ألبرتو) ..

مرحلة الخطر ..

ولكن (ألبرتو) الموهوب كشف الأمر على الفور ، وأدرك أن الإسرائيليين يراقبونه ، وأن بعضهم تسلل إلى منزله ، وعبث ببعض أشيائه ..

والعجيب أن هذا لم يفزعه ..

لقد تصرف بهدوء يثير الدهشة والإعجاب ، فجمع كل ما لديه من أدوات التجسس والمراقبة ، وتخلص منها كلها ، دون أن يفقد ابتسامته وروحه المرحة ، ودون حتى أن تشعر زوجته (أندرولا) بأى شىء ..

وذات ليلة ، وبينما كان يتناول عشاءً شاعريًا على ضوء الشموع ، مع زوجته الجميلة ، اقتحم رجال (الموساد) منزله ، واعتقلوه ، وراحوا يقلبون المكان رأسًا على عقب ، أمام عينى (أندرولا) الذاهلة ، ودموع السيدة (كريستين) الحارة ..

وكانت دهشتهم عارمة ..

إنهم لم يعثروا على دليل واحد ، لإدانة (ألبرتو كورين) ..

ولكنهم فتحوا ملفه كله ، وراجعوا كل ورقة تقدم بها ، وكل وثيقة يحملها ، حتى أمكنهم إثبات أمر واحد ..

إنه ليس يهوديًا ..

وعندما تمت محاكمة (ألبرتو كوربن) فى (إسرائيل)، لم يجد القاضى دليلاً واحداً يكفى لإدانته بتهمة التجسس، سوى أنه ليس يهودياً، فصدر ضده حكم بالسجن لفترة قصيرة، ورجال (الموساد) يجذبون شعورهم، ويحترقون بنار الغيظ..

وفى صدر صحيفة (يديعوت أحرنوت)، أعلنت (إسرائيل) أنها ألقت القبض على جاسوس يعمل لحساب (مصر)، ولكنها لم تشر إلى ضعف أو انعدام أدلة الإدانة ضده..

وبعد سنوات قليلة، خرج (ألبرتو) من سجنه ليجد فى انتظاره ثروة ضخمة، هى مجموع راتبه الكبير، الذى كان يودع باسمه شهرياً، منذ التحق بالعمل فى إدارة المخابرات العامة المصرية، فى أحد البنوك الكبرى فى (القاهرة)، وأكد له رجال المخابرات المصريون أنهم على أتم استعداد لمعاونته على بدء حياة جديدة، فى أى مكان يختاره فى العالم أجمع..

ولكن (ألبرتو كوربن) اليونانى المولد، الإيطالى الأصل، اختار البقاء فى الدولة التى عشقها منذ نعومة أظافره، والتى وضع حياته على كفه دائماً من أجلها..

فى (مصر).

* * *

صاعقة الثانى من أكتوبر..

فجأة، وعلى عكس كل التوقعات، حتى توقعات الإسرائيليين أنفسهم، وقعت نكسة يونيو 1967م، واجتاحت (إسرائيل) أراضى ثلاث دول عربية فى آن واحد، لتحتل مساحة تقترب من ثلاثة أضعاف مساحتها الرسمية حينذاك..

كانت القيادة السياسية قد ملأت الدنيا تهديداً ووعيداً، وتوعدت (إسرائيل) بالهزيمة والعار، وأكدت أنها ستلقيها فى البحر، وأن قواتها ستبلغ (تل أبيب)، خلال أيام قليلة، ولم تكتف بهذا، وإنما طالبت برفع قوات الطوارىء الدولية، من المناطق الحدودية بينها وبين (إسرائيل)، وعندما اعترض مسئول الأمم المتحدة، آنذاك (يوثانت) على هذا المطلب، وأعلن أنه لا انسحاب جزئياً لقوات الطوارئ الدولية، فإما أن تنسحب بأكملها، أو تبقى بأكملها، أخذت العزة القيادة السياسية، وطلبت سحب قوات الطوارىء الدولية فى (سيناء) كلها..

وانسحبت قوات الطوارئ الدولية.

وهنا شعرت (إسرائيل بالخطر) وبخاصة مع دخول القوات المصرية إلى (شرم الشيخ)، ومنعها السفن الإسرائيلية من الملاحة، وأدركت أن هذا يهدد 80٪ من تجارتها بالتوقف، وقررت أن تنتقل إلى الخطوة التالية..

إلى الحرب ..

وفوجئت القيادة السياسية ، كما فوجئ الشعب المصـرى كلـه ، بأن الجيش ، بكل قواتـه ، وكل قياداتـه ، وعلـى الرغم من كل تأكيداتهم ، لم يكن مستعدًا فعليًا للحرب ..

ووقعت النكسة ..

وفى حديث صحفى ، تساءل أحـد الإسرائيليين: كيف استخدم وزير الدفاع نفس الخطة ، التى هاجمت بها (إسرائيل) (مصر) فى عام 1956م ، للهجوم عليها فى عام 1967م ؟!

وبمنتهى الصفاقة والسخرية ، أجابه وزير الدفاع الإسرائيلى ، بأن هذا لم يقلقه قط ، لأن المصريين لا يقرءون ..

وضحك الصحفيون لعبـارة وزير الدفـاع الإسرائيلى ، ورددتها الصحف بعدة أيام ، تجاوزت الشهر لكامل ، وأصبحت حكمة تتردد فى (إسرائيل) كلها ، كلما بلغ الحديث منطقة العرب ، والمصريين ، وقياداتهم وثقافتهم ..

وعلى الجانب الآخر ، شعر المصريون بالأسى والألم والعار ، وهم يسمعون عبارة وزير الدفاع الإسرائيلى ، ويقرءونها ، ويتابعون ترددها ، فى كل وسائل الإعلام العالمية ..

أما هناك ، فـى قلـب المخـابرات العامـة المصريـة ، فقد كـانت الصورة تختلف تمامًا ..

تختلف بحكم طبيعة الرجال ، الذين تعلموا كيف يسيطرون على مشاعرهم ، وعلى انفعالاتهم ، وكيف ينظرون إلى الصورة كاملة ، بمنظار رائق شفاف ، لا تشوبه أية توترات ، أو عصبيات تفسد المشهد ، أو تضيف إليه ما يخفى حقيقته ..

لقد التقطوا العبارة ، وصنعوا بها ما اعتـادوا صنعه ، مـع كل معلومة تقع تحت أيديهم ..

لقد درسوها ، وحللوها ، وفحصوها ، ومحصوها ، ثم توصلـوا فى النهاية إلـى نتيجـة خاصـة ، تعتمد أكثر مـا تعتمـد ، علـى ضرورة تحويل دفة كل موقف إلى صـالحهم ، أو بمعنـى أدق ، على نظرية (الاستفادة من الكوارث) ..

القيادة الإسرائيلية ، سواء السياسية أو العسكرية ، تتصـور إذن أن المصريين لا يقرءون ، ولا يستفيدون من تـاريخهم ، أو من أخطائهم .. فليكن .. دعهم يتصورون هذا ، ويعتقدونه ، بل وينغمسون فيه حتى النخاع ، وحتى يؤمنوا به تمامًا ، ويثقوا فيه كل الثقة

هكذا قرر الرجال ، فى قلب المخابرات المصرية ..

ومن هنا كانت نقطة البداية ..

ونقطة الانطلاق ..

ولأن المخابرات ـ كل المخابرات ـ تعتمد فى الحصول على معلوماتها ، على الوسائل العلنية ، مثلما تعتمد على الوسائل والمصادر السرية ، فقد بدأت المخابرات المصرية مرحلة جديدة ..

مرحلة تعتمد على القراءة ..

كان عليها أن تقرأ كل ما يكتبه العدو ، فى صحفه ، ومجلاته ، ودورياته ، وحتى فى نشراته العامة والخاصة ..

وفى الوقت ذاته ، عليها أن تدرس كل ما ينشر فى صحف الوطن ، ومجلاته ، ودورياته ، ونشراته أيضًا ، حتى لا تتسرب أية معلومات الى العدو ، أو حتى يصل إليه منها إلا ما ترغب هى فى توصيله إليه فحسب .

ومع مرور الأيام والشهور ، توسعت الفكرة أكثر وأكثر ، بحيث لم تعد القراءة والمتابعة تقتصر على ما ينشره العدو فحسب ، وإنما امتدت الى كل ما ينشر فى الصحف العالمية أيضًا ، مما يمس القضية ، من قريب أو من بعيد ، وبشكل مباشر أو غير مباشر ..

وفى الوقت ذاته ، تطور القسم المسئول عن متابعة النشر الداخلى ، وانضمت اليه بعض العقول المثقفة الواعية ، القادرة على دراسة وتحليل أى خبر قبل نشره ، وتحديد ما إذا كان من الممكن أن يترك لدى العدو الانطباع المطلوب أم لا ..

ووسط كل هذا ظل هناك سؤال مهم ، يطرح نفسه طوال الوقت ، بمنتهى القوة ، ومنتهى الشدة ..

ترى ماذا يفعل العدو الإسرائيلى ، فى هذا الوقت ؟!

هل أنشأ فى أعماقه جهازًا مماثلاً ، أم أنه ما زال يعتمد على أساليبه القديمة ، باعتبار أن العرب لا يقرءون ؟! .

ثم جاء الجواب ، من حيث لا يتوقع أحد .. جاء مع سقوط (باروخ) ..

و « باروخ » هذا ضابط مخابرات (إسرائيلى) ، سافر إلى اليمن ، متنكرًا فى شخصية تاجر مغربى ، يدعى (أحمد الصباغ) ، لرصد حركة السفن المصرية فى باب المندب ، ثم سقط فى قبضة رجال الأمن اليمنيين هناك ، والذين أبلغوا المخابرات المصرية ، فأرسلت للتحقق من هويته هناك ، ثم حمله فى مغامرة مثيرة مدهشة ، والعودة به إلى القاهرة ، حيث حوكم بتهمة التجسس ، وصدر ضده حكم بالسجن ..

ففى لحظة سقوطه ، أعلنت إحدى الإذاعات المصرية عن سقوط جاسوس إسرائيلى فى (اليمن) ، ثم نشرت إحدى الصحف الخبر ، فى ركن صفحتها الأولى ، قبل أن يصدر قرار بمنع النشر والإذاعة ..

أيامها ، وضعت المخابرات المصرية يدها على قلبها ، وهى تدرك جيدًا أن الإسرائيليين لديهم الاستعداد لشن حرب جديدة ، أو حتى قصف اليمن كلها بالقنابل الحارقة ، حتى لا يصل ضابطهم حيًا إلى (القاهرة) ..

ولكن الإسرائيليين لم يسمعوا الخبر ..

ولم يقرءوه ..

وكان هذا دليلاً حاسمًا ، على أن (إسرائيل) لم تنشئ فى مخابراتها قسمًا مماثلاً للقراءة والمتابعة .

ووصل (باروخ) إلى (مصر) ..

واطمأن رجال المخابرات العامة ..

ولكن هذا لم يدفعهم إلى الثقة الزائدة ، أو التراخى فى أداء العمل ، بل دفعهم إلى مزيد من النشاط والمتابعة ، لضمان التفوق المستمر ، حتى اللحظة الأخيرة ، عندما تحين ساعة الصفر ..

وفى ديسمبر 1972م ، وقبيل عشرة أشهر فحسب من ساعة الصفر ، ظهرت إحدى المجلات الأمريكية ، ذات الشهرة الواسعة ، وهى تحوى بين غلافيها مقالاً علميًا ، كتبه أحد علماء الملاحة الأمريكيين ، من ذوى الأصول اليهودية وليحلل فيه فكرة واحتمال قيام المصريين بمغامرة لعبور قناة (السويس) ، على الرغم من

الساتر الترابى الضخم ، وخط (بارليف) الرهيب ، الذى وصفه المحللون العسكريون بأنه أقوى خط دفاعى عسكرى ، منذ خط (ماجنيو) الفرنسى ، وأنه حتى القنابل النووية ، تعجز عن اختراقه .

وفى مقاله ، أكد العالم الأمريكى أن عبور القناة نفسه ليس بالأمر الهين أو الممكن ، نظرًا لأن حركة المد والجزر فيها عسيرة ومعقدة وتختلف تمامًا عن حركات المد والجزر والتيارات المائية العادية ، نظرًا لأنها تصل بين بحرين كبيرين ، لكل منهما تياراته ، وحركات مده وجزره ، وفى نهاية المقال ، وضع جدولاً بالتوقيتات المناسبة لعبور القناة ، وكان على رأسها الأسبوع الأول من أكتوبر 1973م ..

وقرأ رجال المخابرات المصرية المقال ..

ولم يقرأه الإسرائيليون ..

هذا ما أكده جاسوس لنا ، فى قلب صفوفهم ، عندما أبرقت إليه المخابرات المصرية شفريًا ، لتسأله عن ردود الفعل الإسرائيلية ، فأجاب بأنه لا توجد أية ردود أفعال على الإطلاق ..

فالقيادة الإسرائيلية ما زالت تحيا فى نشوة النصر ، بعد كل هذه السنوات ، وجنرالاتها أصابهم الترهل ، مع زهوة الظفر وغروره ، واقتنعوا تمامًا بمقولة وزير دفاعهم بأن العرب لا يقرءون . واستكانوا للفكرة ، واسترخوا مع إيمانهم بها ، وتركوا الأمور تجرى .

وفى قلب (إسرائيل) نفسها .. نشر أحد المعلقين العسكريين مقالاً ، يحذر فيه من حالة الاسترخاء والبلادة ، التى أصابت المجتمع العسكرى الإسرائيلى ، ويؤكد فيه أن طبيعة المصريين لن تقبل باستمرار حالة احتلال أراضيهم طويلاً ، وأنهم سينهضون للقتال يومًا ، على حين غرة ، ليستردوا أرضهم وعرضهم .

والعجيب أنه فى مقاله ، قد حدد ثلاثة مواعيد لهذا الهجوم المفترض . أولها فى الأسبوع الأخير من مارس ، والثانى فى منتصف يوليو والثالث فى الأسبوع الأول من أكتوبر ..

وعلى الرغم من أن الرجال فى (القاهرة) قد قرءوا المقال الإسرائيلى ، وقاموا بدراسته وتحليله ، وإرسال تقرير بمحتواه إلى رياسة الجمهورية ، إلا أن الإسرائيليين فى (تل أبيب) لم يقرءوه ، ولم يبالوا به ، أو يقوموا بدراسته أو تحليله ..

وفى نهاية مارس 1973م ، نشر المعلق العسكرى مقالاً آخر ، يعلن فيه غضبه من تجاهل مقاله الأول ، واتهم القيادة العسكرية الإسرائيلية بالاستهتار والتراخى ، وعاد يؤكد أن الهجوم المحتم سيأتى فى منتصف يوليو ، أو أوائل أكتوبر 1973م .

ومع نبرته الغاضبة ، أعلن أحد جنرالات (إسرائيل) أن ما يقوله هذا المعلق مجرد أوهام ، وأنه ليس عرافًا أو متنبئًا ، حتى يضع

مثل هذه التوقيتات الدقيقة ، دون أن يدرس العسكرية كما ينبغى ، ثم أكد فى نهاية الرد ، أن المصريين لن يحاربوا أبدًا ، وأنه ليست لديهم الشجاعة الكافية ، لاتخاذ قرار ببدء هجوم ضد جيش (إسرائيل) الأسطورى ، الذى لا يقهر ..

أيامها ، كانت كل الأحداث السياسية تؤيد رد الجنرال الإسرائيلى فالرئيس (السادات) لم يعد يتحدث عن الحرب ، ونبرة قيادات الجيش المصرى كلها هادئة ، وحتى صورهم وأخبارهم ، التى تملأ الصحف ، لا توحى سوى بالاسترخاء والاستسلام ، والرضوخ لحالة اللاسلم واللاحرب ، كما أطلق عليها السياسيون حينذاك .

ولكن الشىء ، الذى لم يخطر ببال أحد قط ، هو أن كل الأخبار ، والنبرة الهادئة ، وحتى الصور التى توحى بالاسترخاء والاستسلام ، كانت تتم تحت إشراف المخابرات المصرية ، وبوساطة مجموعة من أفضل الخبراء النفسيين ، ليس فى (مصر) وحدها ، ولكن فى العالم أجمع ..

واقتربت ساعة الصفر أكثر وأكثر ، وتضاعف نشاط الرجال فى (القاهرة) مرة .. ومرة .. ومرات .. وبخطة عبقرية مدهشة ، بدأت مرحلة العبث بالعقول الإسرائيلية ، ومرحلة الخداع الكبرى لجهاز المخابرات ، الإسرائيلي والأمريكى ، تمهيدًا لشن حرب التحرير الحتمية ، المنتظرة ..

ومع قدوم سبتمبر 1973م ، بدأت الأخبار المدروسة تتسلل إلى الصحف رويدًا رويدًا ، وعلى نحو لا يمكن أن يثير شكوك العدو الإسرائيلى أبدًا ، فى نفس الوقت الذى راح فيه خبراء المخابرات المصرية يكثفون نشاطاتهم ، لمتابعة كل ما ينشر فى (إسرائيل) ، والولايات المتحدة الأمريكية ، ودول (أوروبا) أيضًا ..

ولم يكن هذا بالعمل السهل ..

لم يكن كذلك أبدًا ، ولكن الرجال قاموا به بمهارة مذهلة ، تستحق كل التقدير والإعجاب ..

وبناء على ما جمعه الرجال ، ودرسوه ، وحللوه ، وفندوه ، أصبحوا على يقين من أن أحدًا لا يتوقع أبدًا أن تهَبُّ (مصر) من رقادها ، وأن تضرب ضربتها القوية القاسمة ..

وفى أوائل أكتوبر 1973م ، كانت الساحة قد تهيأت تمامًا للمفاجأة الكبرى ، فصحفنا تحمل أخبار زيارة الأميرة البريطانية لمصر فى القريب العاجل ، وزيارة وزير دفاع أوروبى ، فى السابع من أكتوبر ، مع خبر عن الزيارة المرتقبة ، التى سيقوم بها قائد القوات الجوية لدولة (ليبيا) المجاورة ، وإعلان عن فتح باب عمرة رمضان أمام ضباط وجنود القوات المسلحة .

كل شىء تمت دراسته بمنتهى الدقة ، ووضعه بمنتهى العناية .

ولكن كل شىء أصيب بصاعقة عنيفة ، فى الثانى من أكتوبر ..

ففى مقال رئيس ، فى صحيفة بريطانية شهيرة ، تحدث أحد القادة الإنجليز عن الصراع العربى الإسرائيلى الطويل ، وعن ضعف احتمالات نشوب حرب ضد جيش (إسرائيل) الذى لا يقهر ، لأن المصريين غير مستعدين لمواجهة هزيمة أخرى ، ولكن لو أن الفكرة راودتهم ، فهذا أنسب موعد لتوجيه ضربة مباشرة إلى الإسرائيليين ، فالطقس مناسب ، وكذلك حركة المد والجزر فى قناة السويس ، كما أن المسلمين تزداد حماستهم دومًا فى شهر رمضان المعظم ، ثم إن الإسرائيليين يستعدون للاحتفال بعيد (كيبور) أحد أهم وأشهر أعيادهم .

وفى نهاية المقال ، وإجابة على سؤال أخير حول الموضوع ، أكد ذلك القائد الإنجليزى أن أنسب موعد لشن حرب المصريين ، ضد العدو الإسرائيلى ، هو غروب شمس السادس من أكتوبر .. وحبس الرجال أنفاسهم فى المخابرات العامة المصرية ، ونشطت اتصالاتهم ، على نحو غير مسبوق ، ونشطت عيونهم فى كل مكان فى (إسرائيل) ، لرصد ودراسة رد الفعل الرسمى والعسكرى ، على هذا المقال ، الذى جاء فى وقت شديد الحساسية ، مع اقتراب ساعة الصفر ، وبدء العد التنازلى للمعركة الحاسمة .

ولكن النتائج جاءت كلها سلبية ، على الرغم من خطورة ما قاله القائد العسكرى البريطانى فى تحليله للموقف .

وحانت اللحظة ..

وانطلق المارد المصرى ، يسحق أسطورة الجيش الإسرائيلى ، الذى لا يقهر ، ويهدم خط (بارليف) المنيع على رءوس الأعداء ، ويعبر الهزيمة ، على زوارق من الإرادة الفولاذية ، وجسور من عزم لا يلين ويزلزل صحراء (سيناء) بذلك الهتاف الذى ارتجت له قلوب الأعداء ..

الله أكبر ..

وفى هذه المرة ، انخفضت عينا وزير الدفاع الإسرائيلى ، واحتبست الكلمات فى حلقه ، مع غصة الهزيمة ، فلم يستطع أن يدلى بتصريح ساخر واهٍ بعد أن أثبتت التجربة والأيام ، أن الإسرائيليين هم الذين لا يقرءون ..

أثبتت هذا فى يوم النصر ،

فى أكتوبر .

* * *

مصيدة البحار ..

تصاعد وقع قدمى رئيس المخابرات العامة المصرية ، وهو يقطع أحد ممرات الإدارة ، فى خطوات واسعة سريعة ، حتى بلغ إحدى حجرات المكاتب ، التى يحويها الممر الطويل . ولم يكد الرجل الجالس أمام المكتب يراه ، حتى هب واقفاً ، وهو يقول فى هيبة واحترام :

ـ صباح الخير يا سيادة المدير .

ربت رئيس المخابرات على كتفه ، ليزيل رهبته وتوتره ، ومنحه ابتسامة هادئة ، وهو يسأله

ـ هل (عادل) فى الداخل ؟

رفع الرجل يده بالتحية العسكرية ، بعد أن انتبه إلى أنه لم يفعل هذا فى البداية ، وأجاب فى لهجة رسمية :

ـ نعم .. سيادته بالداخل يا سيادة المدير .

ابتسم رئيس المخابرات ، وربت على كتفيه مرة أخرى ، ثم دفع باب المكتب ، وهو يقول :

ـ صباح الخير يا (عادل) .

هبَّ رجل المخابرات (عادل حماد) واقفًا فى احترام ، وهو يقول :

ـ صباح الخير يا سيادة المدير .. إنها لمفاجأة حقيقية أن تأتى بنفسك إلى مكتبى .

أشار إليه الرئيس بالجلوس ، وهو يقول :

ـ الواقع أننى أمتلئ قلقًا ، بسبب العملية التى أسندتها إليك يا (عادل) ، فأنت تدرك أهمية الأمر وخطورته .. لقد غير الإسرائيليون مركز تجسسهم فى (أوروبا) ، والمعلومات لدينا تؤكد أنهم يحصلون على معلومات صحيحة وبالغة الخطورة ، عن ميناء (الإسكندرية) ، منذ وصلتنا تلك الغواصات الحديثة .

وكان قلق الرئيس له ما يبرره بالفعل ، فمنذ وصلت تلك الغواصات إلى (مصر) ، فى أوائل الستينات ، ونجح رجال البحرية المصرية فى استيعابها ، والتعامل معها ، انتاب (إسرائيل) قلق بلا حدود ، وهى تستعيد نشاطات وقدرات البحرية المصرية ، فى المواجهات التى تمت بينهما ، فهى لم تنس بعد كاسحة الألغام المصرية ، التى داهمتهم فى رأس السنة ، عام 1948م ، ولا السفينة (دمياط) ، التى حطم قائدها غرورهم ، أثناء العدوان الثلاثى عام 1956م ..

ولم يقف الإسرائيليون صامتين ..

لقد نشطوا للحصول على معلومات وأخبار جديدة ، عن الميناء ، وحركات الشحن والتفريغ ، والتحركات العسكرية من حوله .

ونجحوا فى هذا إلى حد كبير ..

ولكن كيف ؟..

هذا ما أقلق المخابرات العامة المصرية ، وجعلها تنشط بدورها ، للبحث عن نقطة تسرب المعلومات ، ومركز المخابرات الإسرائيلية الجديد فى (أوروبا) ..

وفى هدوء ، شرح (عادل) ما توصل إليه ، قائلاً :

ـ فى البداية ، كانت هناك عدة افتراضات منها وجود جاسوس فى الميناء ، ينقل إلى الإسرائيليين كل ما يتوصل إليه ، ولكننا لاحظنا أن المعلومات لا تنتقل فى كل وقت ، ولكن هناك فترات نشاط ، وفترات سكون ، مما أوحى إلينا بأن الجاسوس الذى ينقل المعلومات ، هو أحد العاملين على السفن التجارية الأجنبية ، التى تدخل وتخرج من الميناء ، على فترات شبه منتظمة ، وأن فترات السكون هذه ، ترتبط بعدم وجود سفينة

الجاسوس فى الميناء .. ولما كان هذا الافتراض أكثر منطقية ، رحنا نرصد السفن ، التى يتزامن تواجدها فى الميناء ، مع فترات النشاط ، وضاقت دائرة البحث ، حتى انحصرت فى سفينة واحدة .

رفع مدير المخابرات حاجبه ، وقال :

ـ عظيم .. هذا يجعل المهمة أقرب إلى النجاح .

وافقه (عادل) بإيماءة من رأسه ، وقال :

ـ هذا صحيح يا سيدى ، ولقد أجرينا بعض التحريات حول العاملين على السفينة ، وانحصرت شبهاتنا فى خمسة منهم .. ثلاثة من البحارة ، وكبير المهندسين ، وضابط اللاسلكى .. البحارة الثلاثة ثبت أنهم يتاجرون فى البضائع المهربة ، ومن الممكن أن يبرئهم هذا من تهمة الجاسوسية ، أو يكون ستارًا مناسبًا لها . أما كبير المهندسين ، فهو همجى ، ضخم الجثة ، غليظ القول والفعل ، لا يشرب فى المعتاد إلا أردأ أنواع الخمور ، و(تونى) ضابط اللاسلكى ، شاب وسيم ، أنيق ، لبق ، يجيد دستة من اللغات ، من بينها العربية ، ولكن

كان المدير يتوقع القفز إلى استنتاج مباشر ، إلا أنه فوجئ بتلميذه يستطرد :

ـ ولكننى أعتقد ـ بصفة شخصية ـ أن الجاسوس ليس واحدًا منهم .

سأله المدير فى حيرة :

ـ من هو إذن ؟

فرز رجل المخابرات المصرى الصور التى أمامه فى سرعة ، وهو يقول :

ـ إنه شخص آخر ، تقول كل التحريات التى أجريت حوله ، أنه مثالى تمامًا ، بلا أية أخطاء أو هفوات .

والتقط من بين الصور صورة واحدة ، وهو يستطرد :

ـ وهذا الطراز ، الذى يتحاشى الأخطاء تمامًا ، هو ما يثير القدر الأكبر من شكوكى فى المعتاد .

قالها ، وهو يضع أمام رئيسه صورة لرجل وسيم ، رمادى الشعر ، له ابتسامة هادئة ، وعينان جميلتان ، ويرتدى زيًا يميزه عن كل أفراد الطاقم ..

(أنطوان كابس) .. قبطان أعالى البحار الوسيم ، بدأت علاقته بالبحر وهو بعد فى الثامنة عشرة من عمره ، عندما غادر (لشبونة) ، وألقى نفسه فى سفينة تجارية ، لم يهتم كثيرًا بالعلم

الذى ترفعه ، بقدر اهتمامه بأنها ستحمله بعيدًا ، عبر ذلك الجزء من العالم ، الذى يعشقه كل العشق ..

البحر ..

وطوال ربع القرن التالى ، لم يفارق (أنطوان) البحر إلا عامًا واحدًا ، فهو يتنقل من رحلة إلى أخرى ومن شاطىء إلى آخر ، ومن بحر إلى بحر ، إلى محيط عميق ..

لم يكن يتوقف إلا ليلتقط أنفاسه ، وينفض عن ثيابه ملح البحر ، ويستعد للانطلاق فى رحلة جديدة ، وإلى بحر آخر ..

وعبر حياته الحافلة ، لم يقع (أنطوان) فى الحب سوى مرة واحدة ، عندما عشق (كارمن) ، ومنحها الكثير من وقته وعواطفه ، ثم عاد ذات مرة من رحلة طويلة ، وهرع إليها ملهوفًا ، ليجدها قد تزوجت ، وهاجرت مع شاب آخر ..

ومنذ ذلك الحين ، أغلق (أنطوان) قلبه بالضبة والمفتاح ، وقرر أنه لن يقع فى حب امرأة أخرى أبدًا ..

ولكن الرياح لا تأتى دائمًا بما تشتهى السفن ..

ففى واحدة من رحلاته ، هبط فى (مارسيليا) ، وفكر فى قضاء ليلته فى إحدى ملاهيها ، عندما وجد أمامه فجأة (مارى لويز) ..

وبسرعة مدهشة ، طوته (مارى) تحت جناحها ، وجذبت كل عواطفه إليها ، فذاب قلبه بين يديها ، وخفق بحبها ، ولم يعد يشغله سواها ، فى العالم كله ، على الرغم من أنه لم يكن يعلم عنها ، سوى ما أخبرته هى به ..

لم يكن يعلم أن (الإنتربول) الدولى يسعى خلفها ، وأنها ظلت هاربة مطاردة لعدة سنوات ، حتى استقر بها المقام أخيرًا فى (مارسيليا) ، وهى تطوى فى أعماقها سرها الدفين ، الذى لو باح به أحدهم ، لكان مصيرها هو السجن ..

بل ولم يكن يعلم أن لقاءها به لم يكن مصادفة ..

لقد دفعها (إيزاك) فى طريقه ، وأوصاها بتوطيد علاقتها به ، دون أن يخبرها ـ كالمعتاد ـ بالهدف من هذا ..

و(مارى) لا تملك سوى طاعة (إيزاك) ، فهو يعرف سرها ، ويبسط عليها حمايته ، ويخفى أمرها ، مقابل بعض الخدمات البسيطة ..

وعلاقتها بالقبطان ، كانت إحدى هذه الخدمات .

ولأن (مارى) محترفة ، وخبيرة ، وتجيد دورها تمامًا ، فقد عشقها (أنطوان) حتى النخاع ، وصار يتمنى لو منحها العالم كله ، دليلاً على حبه وهواه ..

ولم يكن هذا سهلاً ، فعلى الرغم من هيبة ورهبة منصبه ، إلا أن دخله لم يكن يكفى لمنح (مارى لويز) ما يتمنى منحها إياه ، من عطور ومجوهرات وخلافه ..

حتى ظهر (جوزيف) ..

و(جوزيف) هذا واحد من فئران الميناء ، الذى يكسبون رزقهم من بيع البضائع لبحارة السفن الصغيرة ، بالنقد والتقسيط ، ويشترون منهم بعض البضائع المطلوبة ، فى المجتمع الذى ينتمون إليه ..

وفى المرة الأولى ، همس (جوزيف) فى أذن (أنطوان) ، بأنه يحمل بعض العطور النادرة ، التى يصعب الحصول عليها ، وأنه ليس من الضرورى أن يتقاضى ثمنها مباشرة ، بل يمكنه الدفع فى مرات قادمة ..

ورفض (أنطوان) المبدأ ، إلا أن مقاومته لم تلبث أن ضعفت ، وهو يتخيّل ابتسامة (مارى) وسعادتها ، وهو يمنحها هذا العطر النادر ..

وفى المرة الثانية ابتاع (أنطوان) زجاجة العطر ..

وكانت فرحة (مارى لويز) عارمة ، ومتقنة ومدروسة بعناية ..

وبعدها لم تعد مهمة (جوزيف) صعبة ..

أصبح (أنطوان) من كبار مستهلكى بضائع (جوزيف) ..

ومن كبار المدينين له أيضًا ..

وذات مرة ، وعندما أصبح (أنطوان) عاجزًا عن سداد مديونياته تمامًا ، عرض عليه (جوزيف) أول صفقاته ..

بعض المعلومات عن ميناء (الإسكندرية) ، مقابل إلغاء المديونيات ، والحصول على مكافأة سخية أيضًا ..

ورفض (أنطوان) فى إباء ، ولكنه لم يكد يصل إلى (الإسكندرية) ، حتى وجد نفسه يبحث فى لهفة عن المعلومات ، ويختزنها فى ذاكرته ، ويهرع بها فور عودته إلى (مارسيليا) إلى (جوزيف) ، الذى سجل كل المعلومات ، ثم ابتسم وهو يقول :

- أنت رجل ذكى أيها القبطان .. ها هى ذى إيصالات المديونية ، وبعض الدولارات مكافأة أيضًا .. وبالمناسبة .. زجاجة العطر هذه هدية لفتاتك .

ولم يصدق (أنطوان) نفسه ..

لقد حصل على نقود ، وهدية لصديقته ، وأنهى كل مديونياته ، مقابل بضع معلومات بسيطة ، يراها كل من يقف على الميناء ..

وأدمن (أنطوان) اللعبة ، وأصبح يحمل إلى جوار مهنته لقبًا آخر ، لا يعلم به سواه .. لقب (جاسوس) .

وبعد فترة من العمل، التقى (أنطوان) فى (مارسيليا) بضابط المخابرات الإسرائيلى، الذى يدير العملية كلها فى الواقع، والذى يحمل اسم (موريس) ..

وأصبح (أنطوان) على علم تام بما يفعله، وبالجهة التى يعمل لحسابها ..

المخابرات الإسرائيلية ..

جمع (أنطوان كابس) كالمعتاد، كل المعلومات التى حصل عليها من (الإسكندرية) وأقلعت به سفينته إلى (مارسيليا)، دون أن يدرك أنها تحمل فى هذه المرة راكبًا، يختلف عن كل الركاب، الذين حملتهم من قبل ..

رجل هادئ، له شارب صغير، ويرتدى منظارًا طبيًا، يتناسب مع عمله أستاذًا للتاريخ القديم، فى جامعة (القاهرة) ..

ولم يكن هذا الأستاذ، الذى يغرق مع كتبه فى معظم الوقت، سوى ضابط المخابرات المصرى (عادل حماد)، الذى قطع الرحلة كلها، من (الإسكندرية) إلى (مارسيليا)، وهو يراقب كل المشتبه فيهم بمنتهى الدقة، وعلى رأسهم القبطان (أنطوان) نفسه ..

وعندما وصل (عادل) إلى (مارسيليا)، كان قد حصر شبهاته واتهاماته فى رجل واحد ..

القبطان (أنطوان) ..

كان هذا الأمر يقلق (عادل) بشدة، حتى إنه صارح به رئيسه، قائلاً:

ـ هذا الرجل هو الجاسوس لا ريب، ولكنه من طراز خاص، فهو لا يسجل كلمة واحدة، أو يلتقط صورة واحدة للميناء .. كل ما يفعله هو أن يرى، ويسجل فى ذهنه كل ما يراه، بخبرته وذكائه، ثم ينقل كل هذا إلى الإسرائيليين .

عقد رئيسه حاجبيه مفكرًا فى عمق، قبل أن يقول:

ـ إنها مشكلة مزعجة بالفعل يا (عادل)، فنحن نعرف من هو الجاسوس، الذى ينقل أسرارنا وأخبارنا للعدو، ولكننا عاجزون عن إلقاء القبض عليه، لأننا لا نملك دليلاً واحدًا يدينه .

وبقيت تلك المشكلة تؤرق (عادل) ورئيسه، وهما يتابعان تحركات (أنطوان)، ويحيطان كل العمليات التى تتم على الميناء، بالسرية البالغة، فى محاولة للتعمية، وإخفاء المعلومات الحيوية عنه ..

حتى كانت المفاجأة ..

كان (عادل) يجلس فى مكتبه ذات يوم، منهمكًا فى البحث عن وسيلة للإيقاع بالقبطان فى مصيدة محكمة، عندما دلف أحد زملائه إلى مكتبه، وقال فى حماس:

- (عادل) .. هناك شخص فى حجرة الانتظار ، فى الطابق السفلى ، جاء يطلب مقابلة أحد المسئولين هنا ، وعندما عرفنا شخصيته ، وجدنا أن أفضل من يقابله هو أنت .

سأله (عادل) فى اهتمام :

- من هو ؟

مال زميله نحوه ، وقال :

- (مرسى) .. (مرسى الشتيوى) .

وانتفضت كل خلية فى جسد (عادل) ، إذ إن (مرسى الشتيوى) هذا هو أحد المرشدين فى الميناء ، ممن تربطهم صلة ود وصداقة وثيقة مع القبطان (أنطوان) ، حتى إنه أصبح بدوره موضع شبهات قوية ، أجرى رجال المخابرات حولها تحريات واسعة ، حتى ثبت لهم أن العلاقة تقتصر على الصداقة فحسب ، دون الدخول إلى عالم الجاسوسية ..

ووجود (مرسى الشتيوى) فى مبنى المخابرات العامة المصرية ، وإلحاحه فى طلب مقابلة أحد المسئولين ، يعنى أن (أنطوان) قد تلقى أمرًا من (موريس) بمحاولة تجنيد أحد العاملين فى الميناء ، وأن اختيار (أنطوان) قد وقع على صديقه (مرسى) ..

ويعنى أيضًا أن (مرسى) لم يكن الشخص المناسب لمثل هذا العمل ، لأنه لن يخون وطنه أبدًا ، بدليل هروعه إلى المخابرات العامة ، للبوح بما لديه ، وإعلان استعداده للتعاون ..

وكانت فرصة نادرة ، لا يمكن إضاعتها ..

وكان (مرسى) متجاوبًا للغاية ، حتى إنه عاد فى اليوم نفسه إلى (الإسكندرية) ، ومنح (أنطوان) كمية لا بأس بها من المعلومات ، التى يسيل لها اللعاب ..

وانبهر (موريس) فى (مارسيليا) بالمعلومات ، وأغرق (أنطوان) بالحوافز والمكافآت ..

وطوال الفترة التى عمل فيها (مرسى) لحساب المخابرات العامة المصرية ، كان (عادل) يزوده بالمعلومات اللازمة التى جعلت الإسرائيليين يثقون به تمامًا ، ويطالبون بالمزيد ..

ولكن العملية كانت قد استوت تمامًا ، ونضجت ، وحانت لحظة القطاف ..

وذات مساء ، فى أحد مطاعم (الإسكندرية) الشهيرة ، جلس (مرسى الشتيوى) يتهامس مع (أنطوان كابس) ، حول مائدة منفردة ، وقد بدا المطعم خاليًا إلى حد ما ، فلم يكن به سوى شاب وحيد ، يتطلع إلى البحر ، ويتناول فى بطء زجاجة من المياه الغازية ، وكأنه يسترجع ذكريات حب قديم ، وشابان انهمكا فى حديث طويل حول مائدة بعيدة ..

وعندما شعر (مرسى) أن الوقت أصبح مناسباً، أخرج من جيبه المظروف الذى يحوى التقرير والمعلومات، وناوله للقبطان، الذى أخرج بدوره مظروفاً آخر، يحوى المكافأة المتفق عليها، ومد يده به لصديقه (مرسى)..

وفجأة، وجد (أنطوان) أن الشاب الوحيد لم يعد يجلس على مائدة أمام زجاجة المياه الغازية، وإنما صار يجلس بينه وبين (مرسى) مباشرة، وهو يلتقط المظروفين بحركة أنيقة، ويبتسم قائلاً:

- معذرة .. سآخذهما أنا.

ودون أن يعلن (عادل) عن هويته، أدرك (أنطوان) الموقف كله، وفهم على الفور، وشحب وجهه بشدة، وهو يحدق فى الشابين اللذين غادرا مائدتهما بدورهما، واتجها إليه فى صرامة..

ولم يقاوم (أنطوان) أبداً..

كل ما فعله هو أن ارتجف، عندما قال له أحد الشابين فى حزم:

- أنا وكيل نيابة الجمرك بالإسكندرية.

وفى استسلام تام، وندم بلا حدود، اعترف (أنطوان كليس) بكل شىء، بعد أن أدرك أنه وقع فى المصيدة، التى أعدتها له المخابرات المصرية فى مهارة وحنكة..

مصيدة البحار.

* * *

عملية الأوراق الخضراء

ارتفع صوت المؤذن، يشق سكون الليل، فى تلك المنطقة الهادئة، فى (حدائق القبة)، معلناً حلول موعد صلاة الفجر، فى أحد أيام بدايات ربيع 1988م، فاعتدل رجل المخابرات المصرى (ن . ط)، وتوقف عن مراجعة الملف الضخم، الموضوع أمامه على المكتب، وتمطع فى إرهاق، وهو يسأل رفيق حجرته فى دهشة:

- هل حان موعد صلاة الفجر بهذه السرعة ؟!

ابتسم رفيقه فى هدوء، وهو يقول:

- لقد انهمكت فى العمل، ونسيت كل ما حولك كالمعتاد .. قل لى يا رجل، ألا تعود إلى بيتك أبداً ؟!

مط (ن . ط) شفتيه، وتطلع إلى الملف لحظة، ثم نهض من مقعده، وهو يقول فى حزم:

- أنت تعلم كم تبلغ أهمية الأمر وخطورته!

انفرجت شفتا رفيقه (م) ، وهم بقول شيء ما ، لولا أن أشار إليه (ن . ط) بيده فى حزم ، مستطردًا :

ـ دعنا نصلى الفجر أولاً ، ثم نناقش الأمر .

كان ذلك الأمر ، الذى يتحدثان عنه ، شديد الحساسية بالفعل ، فمنذ ما يقرب من عام كامل ، ظهرت فى (مصر) أوراق مالية مزيفة ، من فئة مائة الدولار ، على نحو لم يسبق له مثيل ، سواء من الناحية الكمية ، أو من ناحية الكيف ، فالأمر لم يقتصر على انتشار تلك الأوراق على نطاق واسع ، من (الإسكندرية) إلى (أسوان) ، وإنما كانت مزيفة بدرجة مدهشة من الإتقان ، على نحو يوحى بأن صانعيها يجيدون عملهم إلى أقصى حد ..

وأنهم من كبار المحترفين ، فى هذا المضمار ..

وفى الظروف العادية ، كان قسم التزييف والتزوير ، فى وزارة الداخلية ، هو الذى يتولى مثل هذه الأمور ، فيبحث ويتقصى ، ويتتبع تلك النقود المزيفة ، حتى يصل إلى مصدرها ، ويحدد المسئولين عن انتشارها ، ويتعامل معهم على النحو المناسب .

ولكن الأمر كان يختلف هذه المرة ..

يختلف كثيرًا ..

فمع ذلك الكم الضخم ، والإتقان المدهش ، كان من الطبيعى أن يثير الأمر اهتمام جهات أمنية أكبر ، باعتبار أن الأمر قد لا يقتصر على عملية كبرى ، لتنظيم عصابى إجرامى ، يسعى لتحقيق ربح ما ، من الاتجار فى الدولارات المزيفة ، وإنما قد يمتد إلى ما هو أكثر أهمية وخطورة ..

إلى وجود مؤامرة منظمة ، لتدمير الاقتصاد المصرى ، ودفعه إلى الانهيار ..

وكان لهذا ما يؤيده ، فقد كانت (مصر) تخطو ، فى تلك الأيام ، خطواتها الواسعة ، نحو التحسن الاقتصادى ، وظهرت فيها بوادر النمو والتقدم ، التى لا تروق ـ فى المعتاد ـ لكل أعدائها وخصومها ..

ومن الطبيعى ـ والحال هكذا ـ أن يبذل هؤلاء الأعداء والخصوم قصارى جهدهم ، لاعتراض هذا التقدم ، ومحاربة ، وإعاقة العملاق المصرى عن بناء حصنه الاقتصادى الدائم المنيع ..

ومنذ انتقل الاهتمام بالأمر إلى المخابرات العامة المصرية ، انشغل (ن . ط) بدراسته ، على نحو لم يسبق له مثيل ، منذ بدأ عمله بالجهاز ..

ربما لأن هذا الأمر يتفق مع ميوله واهتماماته ..

ومع دراسته أيضًا ..

فعلى الرغم من أن (ن . ط) ضابط محترف ، تخرج فى الكلية الحربية ، والتحق لبعض الوقت بقوات الصاعقة ، ثم انتقل منها إلى المظلات ، حيث كان أحد الذين هبطوا فى منطقة الممرات ، إبان حرب أكتوبر 1973م ، لمنع العدو الإسرائيلى من إرسال الإمدادات إلى جنوده فى خط (بارليف) ، وظل يقاتل باستماتة هناك ، حتى تلقى مع رجاله الأمر بالعودة إلى الخطوط المصرية ، بعد أن حققت عمليتهم نجاحًا منقطع النظير ، وأدت الغرض منها بـ"ضبط ، وبعدها تم نقله إلى المخابرات الحربية والاستطلاع ، ومنها إلى المخابرات العامة ، إلا أن اهتماماته كانت تتركز فى معظمها ، فى متابعة الأخبار الاقتصادية ، ودراسة النظريات المالية العلمية ، حتى إنه تقدم بالفعل لنيل شهادة الماجستير ، فى إحدى كليات التجارة ، تتويجًا لهذه الاهتمامات .

ولقد حصل (ن . ط) على تلك الشهادة بالفعل ، أثناء عمله بالمخابرات ، وتحولت اهتماماته الاقتصادية إلى جانب عملى ، حيث أسندت إليه مهمة دراسة الآثار الاقتصادية ، المترتبة على أية تحركات غير مدروسة ، والتى يمكن أن تؤثر سلبيًا ، على خطة النمو الاقتصادى ..

وعند أول اجتماع فى الجهاز ، لدراسة موقف تلك الأوراق المالية المزيفة ، قال أحد الرجال وهو يمسك إحدى تلك الأوراق :

ـ لا ريب فى أن تلك الدولارات مزيفة بعناية وإتقان مدهشين ، فلقد بذل خبراء التزييف والتزوير لدينا جهدًا حقيقيًا ، للتيقن من هذا ، وأكبر أدلة هذا الإتقان هو اختيار نوع الورق المناسب ، واستخدام أرقام متسلسلة مختلفة ، وليست ثابتة ، مثلما يحدث فى معظم حالات التزوير ..

أشار إليه آخر ، قائلاً :

ـ ليس هذا فحسب ، ولكن التكنولوجيا المستخدمة فى طباعتها راقية للغاية أيضًا ، وهذا يحتاج إلى تمويل مادى ضخم ، لا يمكن لعصابة عادية توفيره .

سأل ثالث ، فى اهتمام بالغ :

ـ ماذا لو أننا نواجه تنظيمًا إجراميًا ضخمًا بالفعل ، مثل منظمة (المافيا) ؟!..

إنهم يمتلكون أموالاً طائلة ، وخاصة بعد عمليات غسيل الأموال المتقنة ، التى لجأوا إليها لسنوات طوال .. ألا يحتمل أن تكون هذه الدولارات المزيفة وسيلة جديدة لغسل أموالهم ؟!

قال مدير الجهاز فى بطء :

ـ اطرح فكرتك كاملة .

اعتدل رجل المخابرات فى مجلسه ، متابعًا فى اهتمام أكثر ، وهو يشير بيديه لتوضيح فكرته :

- عندما يرسلون هذه الدولارات المزيفة إلى عدد كبير من دول العالم ، مع بعض من ينتحلون صفة السائحين العاديين ، سيقوم هؤلاء باستبدال تلك الدولارات بعملات محلية ، وسيبدو هذا طبيعيًا للغاية ، ولن يتساءل أحد عن كم الدولارات ، التى يقوم السائح باستبدالها ، خاصة لو تم هذا عن طريق عدة أماكن أو بنوك مختلفة ، وبعد أن يقضى السائح بضعة أيام هنا ، يعود لاستبدال تلك العملات المحلية بدولارات سليمة ، تدخل خزانة (المافيا) .

ارتفع صوت (ن . ط) يقول فجأة :

- هناك وسيلة لحسم هذا الأمر .

التفت إليه الجميع فى اهتمام ، وخاصة مع ما يعرفونه عنه من تبحر واسع ، فى الأمور الاقتصادية ، فتابع بهدوئه المعهود :

- إننا نتساءل عما إذا كان مصدر تلك الدولارات المزيفة منظمة إجرامية كبرى ، أم جهاز مخابرات معاد ، يسعى لتدمير اقتصادنا المصرى ، وفى رأيى إنه توجد نقطة بعينها ، يمكنها أن تحسم الأمر فى أحد اتجاهين ، فلو أن الأمر يخص منظمة إجرامية ، فكل ما سيعنيها هو أن تتخلص من الدولارات المزيفة ، وتستبدلها

بدولارات حقيقية ، لذا فستسعى لإتقان عملها إلى أقصى حد ، بحيث تبدو الدولارات المزيفة كالحقيقية تمامًا ، أما لو كان الأمر يتبع أحد أجهزة المخابرات فسيضع جهاز المخابرات هذا ، أية كانت هويته ، اعتبارًا خاصًا ، وهو يصنع تلك الدولارات المزيفة ، وهو ألا ترتد إليه دون أن يدرى ، فتفسد اقتصاده هو أيضًا .

سأله أحد الرجال فى لهفة :

- وما الذى يمكنه فعله ، لتحقيق هذا ؟!

أشار (ن . ط) بسبابته ، مجيبًا فى سرعة :

- يترك ثغرة ما فى عمله .

أطل استنكار واضح من العيون فتابع قائلاً :

- ثغرة بالغة الدقة أيضًا ، فى جزء صغير للغاية فى الدولارات المزيفة ، لا تبدو واضحة للفاحص المدقق ، إلا إذا كان يعرف طبيعتها وموضعها بالضبط .

استوعب الجميع فكرته على الفور ، وتبادلوا نظرة متوترة ، جعلت المدير يقول :

- فكرة معقولة للغاية ، فكل ما عليهم عندئذ ، هو أن يفحصوا نقطة بعينها ، فى كل دولار يدخل بلادهم ، لتحديد ما إذا كان

مزيفًا أم لا ، وبسرعة كبيرة .

هتف (ن . ط) فى حماس .. بالضبط .

هذا أمر لا يمكن أن تتقنه سوى أجهزة المخابرات ، وليس المنظمات الإجرامية ، مهما بلغت قوتها .

تبادل الرجال نظرة أخرى ، قبل أن يقول المدير لرجل المخابرات (ن . ط) فى حزم :

- فليكن . تولَّ أنت هذا الأمر بنفسك ، وأبلغنا بالنتائج ، فور توصلك إليها .

ومنذ تلك اللحظة ، تم إسناد المهمة إليه رسميًا .

وطوال الأيام الثلاثة ، التى استغرقتها عملية فحص الدولارات المزيفة ، بواسطة اثنين من أشهر مكافحى التزييف والتزوير فى (مصر) ، راح (ن . ط) يدرس كل ملف ، من الملفات الخاصة بحالات التزييف ، التى تم كشفها ، خلال الأشهر العشرة الماضية ..

وقبل أن ينتهى من دراسته هذه ، وصله تقرير الفحص ..

وكانت فكرته صائبة إلى حد مدهش .

لقد كشف الخبيران ، بعد تكبير صورة دقيقة لورقة زائفة ، من فئة مائة الدولار ، ثلاثين مرة ، أن جزءًا لا يتجاوز ربع المليمتر ،

فى الخطوط الموجودة فى الزاوية اليسرى السفلى ، من وجه الورقة ، تمت طباعته على نحو معكوس .

وعندما تم تطبيق هذه القاعدة ، على كل الأوراق المالية المزيفة ، التى تم ضبطها ، جاءت النتيجة إيجابية إلى أقصى حد ..

ووضع هذا التقرير الأمور كلها فى نطاق واضح جلىّ ..

إنها ليست عملية كبيرة ، تخص إحدى المنظمات الإجرامية الضخمة .

بل هى خطة منظمة ، تهدد الاقتصاد المصرى ..

خطة أعدها جهاز مخابرات معاد ..

ومنذ كشف هذه الحقيقة ، اتخذت العملية مسارًا جديدًا ، وحملت اسمًا واضحًا ، ضمن ملفات جهاز المخابرات العامة ..

اسم (عملية الأوراق الخضراء) ..

وفى ذلك اليوم ، عندما انتهى (ن . ط) ورفيقه (م) من أداء صلاة الفجر ، كان عليهما أن يعودا إلى ملف العملية ، وأن يواصلا دراسته لثلاث ساعات أخرى ، على الرغم من الإرهاق الشديد ، الذى يشعر به كل منهما ، والذى لم تنجح أقداح القهوة المتتالية فى إخماد الشعور به ..

وفى الثامنة إلا الربع تقريبًا ، لوح (م) بذراعه ، هاتفًا :

ـ هذا يكفى .. لم يعد باستطاعتى حتى فهم ما أقرؤه .. إننى أحتاج إلى النوم ، قالها ، ونهض يلقى جسده على أريكة مجاورة ، ويستغرق فى نوم عميق بسرعة مدهشة ..

أما (ن . ط) ، فعلى الرغم من حاجته أيضًا للنوم ، إلا أنه ظل يقاوم فى بسالة لنصف ساعة أخرى ، حتى يتم مراجعة ، آخر نقطة فى الملف . و ...

وفجأة ، ارتفع رنين الهاتف على مكتبه ، والذى خصصه لتلقى بلاغات التزييف الجديدة وحدها ، فاختطف سماعته فى لهفة ، وتساءل عن محدثه . فأتاه صوت زميله (و) فى (بور سعيد) وهو يقول فى لهجة تحمل حماسًا واضحًا :

ـ صباح الخير يا (ن . ط) .. أتمنى أن تكون قد نمت جيدًا ليلة أمس ، فما سأخبرك به يستلزم أعصابًا هادئة للغاية .

أشعلت العبارة الحماس ، فى كل خلية من خلايا (ن . ط) ، وهو يسأل زميله (و) فى لهفة :

ـ ماذا لديك يا رجل ؟!

أجابه (و) فى سرعة :

ـ لقد أمسكنا طرف خيط ، فى عملية الأوراق الخضراء .

لم يكن (ن . ط) بحاجة لسماع المزيد ، وكان يدرك جيدًا أيضًا أنه من المستحيل أن ينقل إليه زميله (و) التفاصيل عبر أسلاك الهاتف ، مهما بلغت ثقته فيها ، لذا فقد أنهى المحادثة فى سرعة وأبلغ رؤساءه بالأمر ، ثم قفز فى واحدة من السيارات التابعة للجهاز ، وطلب من سائقها الانطلاق به إلى (بور سعيد) بأقصى سرعة ..

وكانت لرحلة السفر هذه فائدة مزدوجة ، فقد استغرق (ن . ط) خلالها فى نوم عميق أعاد إليه بعض نشاطه وحيويته ، ثم التقى فى نهايتها بزميله (و) الذى استقبله فى ترحاب ، ثم قال على الفور :

ـ صباح الأمس ، أبلغ مدير فندق (البدر) هنا المباحث العامة ، عن سائحة إسرائيلية ، تحمل جواز السفر الإسرائيلى رقم (4095316) ، وتبلغ من العمر 21 عامًا ، قدمت له ثلاث ورقات من فئة مائة الدولار لاستبدالها بعملة محلية ، وبعد أن تم عملية الاستبدال ، كشف بالمصادفة أن الورقات زائفة .

تراجع (ن . ط) ، قائلاً فى استنكار :

ـ هل أحضرتنى ، من (القاهرة) إلى هنا من أجل هذا فحسب ؟!

هزّ (و) رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

- كلا بالطبع ، فإلى هنا لا يتجاوز الأمر بلاغات التزييف المعتادة ، ولكن أحد رجالنا اشتبه فى الفتاة نفسها ، بعد أربع ساعات فحسب من واقعة فندق (البدر) ، لأنها تحمل آلة تصوير حديثة ، وتقوم بتصوير الأماكن المهمة شديدة الحساسية فى (بور سعيد) .

سأله (ن . ط) فى لهفة :

- وهل ألقيتم القبض عليها ؟!

هزّ (و) رأسه نفيًا ، وأجاب :

- كلا بالطبع ، ولكننا نراقبها مراقبة دقيقة للغاية ، ونتابع تحركاتها فى المدينة طوال الوقت .

ثم مال نحوه ، مستطردًا فى حزم :

- ومن الواضح ، مع تقارير المراقبة أننا قد وقعنا على صيد ثمين بحق .

لم يكن (و) بحاجة إلى شرح هذا الأمر فعلاً ، فلقد استوعبه (ن . ط) من اللحظة الأولى تمامًا ..

إسرائيلية تسعى لالتقاط الصور للأماكن ذات الحساسية ، وتعمل على ترويج الدولارات الزائفة فى الوقت ذاته ..

من يطلب أفضل من هذا ؟!..

وبالتنسيق مع المباحث العامة ، تمت عملية مراقبة السائحة الإسرائيلية ، وبدأ الجانب الإيجابى من العملية ..

عملية الأوراق الخضراء ..

أما السائحة الإسرائيلية ، التى سنطلق عليها هنا اسم (راشيل) ، فقد واصلت التقاط صور الأماكن المهمة ذات الحساسية فى (بور سعيد) وواصلت استبدال الأوراق المالية الزائفة ، فئة مائة الدولار ، متصورة أن المصريين نائمون ، وأنهم كما أخبروها فى (تل أبيب) ، لن يمكنهم كشف عملية شديدة الإتقان كهذه ..

وعندما انتهى عملها ، واستعدت لمغادرة البلاد ، وأعدت حقائبها التى خلت من كل ما كانت تحويه من الدولارات الزائفة ، وهى تطلق ضحكاتها الساخرة ، وتحتفل بنجاح مهمتها فوجئت بمن يطرق باب حجرتها ، ثم يقدم لها نفسه ، قائلاً فى اختصار صارم :

- (ن . ط) .. من المخابرات العامة المصرية ..

ولثوان ، حدقت الإسرائيلية فى وجهه بذهول ، ثم لم تلبث أن تراجعت فى عنف ، كمن أصابتها صاعقة ، وهى تهتف :

- لا .. لا .. مستحيل .. أنا لم أفعل شيئًا ، لم أفعل شيئًا ..

دلف (ن . ط) ورجاله ، ووكيل نيابة أمن الدولة إلى الحجرة وقال الأول بنفس هدوئه المعهود :

- هل تفضلين أن نطرح أوراقنا كلها ؟!

قالها ، وهو يضع أمامها عددًا من الصور ، التي تم التقاطها لها ، وهي منهمكة في تصوير تلك الأماكن العامة ذات الحساسية ..

وارتجفت كل خلية في جسد الإسرائيلية ، و(ن . ط) يواجهها في صرامة ، قائلاً :

- لاحظي أن أوراقنا كلها حقيقية ، وليست زائفة كدولاراتك ، ومع عبارته الأخيرة ، ألقى أمامها كل الدولارات المزيفة ، التي استبدلتها في عمليتها هذه ..

وكان من الطبيعي أن تنهار الإسرائيلية تمامًا ..

وأن تنساب الاعترافات من بين شفتيها كالسيل ، ثم تنتقل إلى أصابعها التي دونت كل تلك الاعترافات ، ثم ذيلتها بتوقيعها في النهاية ..

ومن الاعترافات وما تحويه من معلومات ، انطلق (ن . ط) يضع اللمسات الأخيرة لعملية الأوراق الخضراء ..

وسقط كل أعضاء شبكة الدولارات الزائفة ، وتم ضبط ما يزيد عن ثلاثمائة ألف دولار أمريكي زائف ، مع عدد من الإسرائيليين والأجانب ، ينتمي بعضهم لأحد المراكز الثقافية الأجنبية ..

وترنح الإسرائيليون مع قوة الصفعة ، وحاولوا التنصل من الأمر كله ، ولكن اعترافات رجالهم كانت واضحة قوية .. ومسجلة ..

ولم يعد هناك مفر من الاعتراف بأن المصريين قد انتصروا هذه المرة أيضًا ، وأنهم قد نجحوا في إنقاذ اقتصادهم ، ومواصلة خطة النمو ، على الرغم من كل ما فعله المتربصون ..

وأطلق الإسرائيليون على عمليتهم الفاشلة هذه اسم (عملية الأوراق المحترقة) ، ودفنوها في أحد ملفات الخسائر ، ولكنها ظلت تحمل في قسم العمليات الناجحة ، في المخابرات العامة المصرية نفس الاسم الذي بدأت وانتهت به ..

عملية الأوراق .. الخضراء ..

* * *

من يضحك أخيرًا

« ألقى الإسرائيليون القبض على (جودت) بك .. »

نطق رجل المخابرات المصرى هذه العبارة فى انفعال واضح، وهو يلوح بصحيفة حديثة مطبوعة بحروف عبرية واضحة، فالتقى حاجبا رئيسه المباشر فى توتر واضح وتعلق بصره بالخبر المنشور فى الجريدة، وقرأه فى سرعة، أعانته عليها إجادته التامة للعبرية، قبل أن يرفع عينيه إلى رجل المخابرات قائلاً :

ـ وكيف حدث هذا ؟.. المفروض أن يحصل (جودت) بك على تغطية جيدة .. إنه واحد من أفضل عملائنا داخل (إسرائيل) !

لوّح رجل المخابرات بالصحيفة فى حنق وهو يقول :

ـ لم نحصل على معلومات كافية بعد .. لقد فاجأنا الخبر المنشور فى صحيفة (العال) .

ازداد انعقاد حاجبى رئيسه، وهو يغمغم :

ـ يا للخسارة !

نطقها، وهو يعنى كل حرف منها بالفعل، فالعميل المعروف باسم (جودت) بك، لم يكن أبدًا عميلاً عاديًا، وإنما كانت له دائمًا أهمية كبيرة، بين قائمة عملاء المخابرات المصرية، الذين يعملون فى قلب إسرائيل ..

والواقع أن (جودت) بك ـ وهذا اسمه الحركى ـ كان ضابطًا سابقًا فى الجيش التركى ـ أصيبت ذراعه إصابة بالغة، نتيجة لانفجار قنبلة، أثناء مناورة تدريبية، وتم علاجه لبعض الوقت فى المستشفيات التركية، ثم قرر أن يستكمل علاجه فى (القاهرة) ..

وأثناء حصوله على تأشيرة دخول إلى (مصر)، التقى (جودت) بك بمترجم شاب، يعمل فى المكتب الصحفى للسفارة المصرية، وتوطدت أواصر الصداقة بينهما، وعرف المترجم الشاب أن (جودت) بك كان يعمل لحساب المخابرات التركية فى (كوريا)، قبل أن يترك العمل فى الجيش ـ بعد إصابته ـ ويتجه إلى الأعمال الحرة التجارية ..

والتقطت المخابرات المصرية طرف الخيط، وشجعت المترجم الشاب على توطيد علاقته بالضابط التركى السابق أكثر وأكثر، وخاصة بعد أن علمت أن (جودت) بك له بعض العلاقات التجارية مع (إسرائيل) ..

ولم تمض أسابيع قليلة، حتى كان (جودت) بك يعمل لحساب المخابرات المصرية فى قلب (إسرائيل)، التى تعددت زياراته

لها ، وتضاعفت عملياته التجارية معها ، وربطته مع العديد من مسئوليها صلات وصداقات وطيدة ..

وطوال عدة سنوات ، راح (جودت) بك يمد المخابرات المصرية بعشرات المعلومات الثمينة ، عن أدق الأسرار الإسرائيلية ، وتطورت علاقاته أكثر وأكثر ، و ...

وفجأة ، سقط (جودت) بك فى أيدى الإسرائيليين ..

« ولكن كيف ؟!.. »

هتف رجل المخابرات المصرى بالسؤال فى سخط ، ولكن رئيسه بدا هادئاً ، مستغرقاً فى تفكير عميق ، وهو يشير إليه بسبابته ، قائلاً :

ـ كل شىء فى عالمنا له أسبابه المنطقية ، ولو أننا درسنا الموقف جيداً ، دون إهمال أية تفاصيل ، فسنتوصل بإذن الله إلى الثغرة ، التى كشفت أمر (جودت) بك ، وأوقعته فى قبضة الإسرائيليين ..

ولم تكن عبارته هذه مجرد وسيلة لتهدئة رجل المخابرات ، وإنما كانت تحديداً لمنهج البحث ، الذى ينبغى اتخاذه ، لتحديد الموقف بالضبط ..

وعبر عشر ساعات كاملة ، راح الفريق المسئول عن العميل (جودت) بك ، يراجع كل حرف يحويه ملفه ، وكل العمليات التى

أُسندت إليه ، والمعلومات التى حصل عليها...

وفجأة ، هتف أحد الرجال :

ـ الأطلس ..

ولم يكن بحاجة إلى إضافة حرف واحد ، فقد فهم الجميع على الفور ما يعنيه بهتافه ، فقد نما إلى علم إدارة المخابرات أن إحدى المكتبات الجديدة فى تل أبيب تعرض أطلساً جيولوجياً خاصاً ، يحوى خرائط توزيع الثروة المعدنية فى (إسرائيل) ، ولما كانت هذه المعلومات تعد من المعارف الأساسية ، التى ينبغى الحصول عليها من العدو ، فقد طلبت المخابرات من عميلها (جودت) بك إحضار نسخة من الأطلس ، أثناء زيارته التالية إلى (إسرائيل) ، وكان المطلب بسيطاً ، فلم يدر بخلد أحد فى البداية ، أن هذا هو الفخ ، الذى أوقع بالعميل التركى ..

ولكن الصورة اتضحت الآن ، وقال أحد رجال المخابرات فى ضيق :

ـ كان فخاً أوقعنا فيه الإسرائيليون ، فمن المؤكد أنهم شعروا بوجود ثغرة خطيرة ، تتسرب منها المعلومات ، فوضعوا هذه الخطة ، وأنشأوا مكتبة وهمية نسبوا إليها وجود مثل هذا الأطلس ، بحيث يضمنون أن تصل هذه المعلومة إلى مخابراتنا وحدها ، وعندما يتقدم شخص ما إلى هذه المكتبة الزائفة ، لطلب ذلك الأطلس

بالتحديد ، سيكون موفدًا من قبلنا حتمًا .

ران صمت ثقيل على المكان بعد أن شرح رجل المخابرات وجهة نظره المقنعة ، ثم لم يلبث زميل له أن قطع حاجز الصمت هذا ، وهو يقول فى مرارة :

ـ أكاد أسمع الآن صدى ضحكات رجال المخابرات الإسرائيلية ، وهم يُراجعون خطتهم ويسخرون منّا ، بعد أن أوقعوا بعميلنا (جودت) بك .

ارتفع صوت رئيسه ، وهو يقول فى مزيج من الدهشة والحيرة ، فتابع فى صوت قوى :

ربّما يتصور الإسرائيليون أنهم نجحوا فى هزيمتنا بلعبتهم هذه .. فلندعهم يتصورون هذا إذن ، ولنلتقط نحن طرف الخيط ، ونرد لهم الصاع صاعين ..

بدا التساؤل فى عيونهم ، فتابع فى حسم :

ـ هيا يا رجال .. سنقلب المائدة على رءوسهم ، وننتزع النصر من بين فكى الهزيمة .. دعونا نتيقن أولاً من صحة نظريتنا ، وبعدها سنستغل خدعة الإسرائيليين ، ونُريهم ما يمكننا أن نفعله معهم .

ولم يضيّع الرجال لحظة واحدة ، بل أرسلوا مندوبًا آخر إلى المكتبة الوهمية نفسها ، فى (تل أبيب) ، وطلبوا منه أن يشترى بعض الخرائط السياحية فحسب ، دون أن يُشير من قريب أو بعيد

إلى ذلك الأطلس ، أو يبدى أية رغبة فى رؤيته ..

ومنذ اللحظة الأولى ، التى وضع فيها المندوب قدميه فى تلك المكتبة ، أدرك على الفور حقيقتها ، ولكنه لم يبد اهتمامًا ، واكتفى بشراء بعض الخرائط السياحية كسائح عادى ، وغادرها وهو على يقين من أنها تتبع المخابرات الإسرائيلية ..

وفى (القاهرة) ، راح الرجال يبنون خطتهم ، انطلاقًا من هذه النقطة ، فراجعوا كل ما لديهم عن ذلك الأطلس ، وكيفية معرفتهم بوجوده ، ولخص أحدهم الموقف لرئيسه ، قائلاً :

ـ المعلومات عن الأطلس وصلتنا من الملحق العسكرى المصرى فى (باريس) ، عن طريق أحد مندوبيه ، وهو عربى فلسطينى ، أو إنه يدعى كونه كذلك ، فقد أجرينا بعض التحريات الدقيقة عنه ، وكشفنا أنه إسرائيلى ، يعمل لحساب (الموساد) ونحن فى انتظار أوامرك .. هل نستدرجه ، ونلقى القبض عليه ؟

هزّ رئيسه رأسه نفيًا ، وقال بابتسامة هادئة :

ـ كلاّ .. دعنا نتظاهر بالغباء ، وبأننا لم نكتشف أمره ، ولم ننتبه إلى خدعة الأطلس هذه ، ولنلعب اللعبة هذه المرة بأسلوبنا نحن .

وقد كان ....

لقد جمع رجال المخابرات المصرية قدرًا هائلاً من المعلومات ، عن ذلك العميل الإسرائيلى دون أن يشعر بهذا ، وأصبحوا يعرفون

كل شيء عنه تقريبا ، من محل إقامته فى (باريس) ، وحتى الأماكن التى يُفضل السهر فيها .

وذات ليلة ، كان ذلك المندوب الإسرائيلى ، الذى يطلق على نفسه اسم (عمر) يقضى إحدى سهراته فى ملهى ليلى فى (باريس) ، عندما لاحظ وجود شاب عربى ، مصرى الجنسية ، يقضى سهرته فى الملهى نفسه ، ويبدو شديد اللهفة على الشرب والنساء ، ومُقبلاً على الملذات ، التى اشتهرت بها أماكن اللهو فى (باريس) ..

وكان من الطبيعى أن يجذب هذا الشاب المصرى انتباه (عمر) ، الذى راح يُراقبه فى إمعان واهتمام ، ثم لم يلبث أن قرر الاقتراب منه أكثر ، فانتهز الفرصة ذات ليلة ، عندما فوجئ الشاب المصرى بأن فاتورة الملهى تفوق ما يحمله من نقود ، فارتبك ، واضطرب ، وتوتّر ، ولكنه وجد (عمر) أمامه ، يقول :

ـ اطمئن .. أنا سأدفع الفاتورة هذه الليلة .

اعترض الشاب المصرى فى تخاذل ثم اضطر ، فانضم إليه (عمر) على مائدته ، وقال :

ـ أنت مصرى .. أليس كذلك ؟.. لقد عرفتك من لهجتك .

أجابه الشاب المصرى :

بلى .. اسمى (عاصم) ، وأنا طالب مصرى ، أقضى إجازتى هنا فى (باريس) .

واتصل الحديث بينهما فترة طويلة ، عرف (عمر) خلالها أن (عاصم) هذا له شقيق يعمل فى رياسة العمليات فى الجيش المصرى ، وأن هذا الشقيق كثيرًا ما يحمل بعض الأوراق المهمة من مقر عمله ، ليكمل المطلوب منها فى المنزل ..

وعندما افترقا ، مع نسمات الصباح الأولى ، هرع (عمر) إلى رئيسه ، وطرح أمامه الأمر كله ،

واستمع إليه رئيسه الإسرائيلى فى اهتمام بالغ ، ثم أعلن شكوكه فى الموقف كله ، وقرر إجراء بعض التحريات أولاً ، للتأكد من صحة المعلومات ، التى حصل عليها (عمر) ..

وجاءت نتائج التحريات مُرضيةً للغاية ، فقد ثبت وجود ضابط فى رياسة العمليات فى الجيش المصرى ، يحمل الاسم نفسه ، وله شقيق يقضى إجازته فى (باريس) ، يحمل اسم (عاصم) ، ويميل إلى اللهو والعبث ..

وأعطى رجل المخابرات الإسرائيلى الضوء الأخضر لعملية (عمر) ، الذى بدأ يغدق الأموال على (عاصم) ، خلال سهراتهما معًا ، ثم لم يلبث أن ألقى عرضه ، قائلاً :

ـ قل لى يا (عاصم) لماذا لا تحصل على عمل بأجر مجز ، يُتيح لك الإنفاق على مثل هذه السهرات ؟

ضحك (عاصم) ، وقال :

ـ ومن أين لى بمثل هذا العمل ؟

مال (عمر) نحوه ، وقال فى لهجة خاصة :

ـ ما رأيك بالعمل لحساب حلف الأطلنطى ؟.. إنهم يدفعون مكافآت مُجزية ، نظير بعض المعلومات .

بدت الحيرة على وجه (عاصم) ، وهو يقول :

ـ ومن أين لى بمثل هذه المعلومات؟

تراجع (عمر) ، وتطلّع طويلاً إلى عينى (عاصم) الحائرتين المتسائلتين ، قبل أن يقول :

ـ وماذا عن الأوراق ، التى يحملها شقيقك معه إلى المنزل؟

أبدى (عاصم) ذعره من مجرد الفكرة ، ورفضها بشدة فى البداية ، ولكن (عمر) ظلّ يشرح له الأمر ، ويهوّن عليه مخاطره ، ويلوّح بالمكافآت والنقود ، حتى خضع (عاصم) تمامًا وأعلن استعداده التّام للتعاون ..

وهنا انتهى دور (عمر) ، الذى رتّب اجتماعًا للطالب (عاصم) مع ضابط المخابرات الإسرائيلى ، باعتباره أحد المسئولين فى حلف الأطلنطى ..

وعلى يد الضابط الإسرائيلى ، تم تدريب (عاصم) على استخدام الحبر السرى ، وطريقة الكتابة به ، بين سطور خطابات عادية ، وعلى كيفية الحصول على المعلومات ، واستخلاصها من الأوراق المهمة ، التى يحضرها شقيقه معه إلى المنزل ..

وبعد عودة (عاصم) إلى (القاهرة) ، بدأت المعلومات تنهال منه على الإسرائيليين ، الذين تأكّدوا من صحتها ، مما جعلهم يولون (عاصم) ثقتهم كلها ، ويعتبرونه مندوبًا على درجة عالية من الأهمية بالنسبة لهم ..

ولأن معظم المعلومات كانت سرية ومهمة بالفعل ، فقد سال لُعاب الإسرائيليين ، حتى كادوا يغرقون فيه ، وأرسلوا لمندوبهم فى (القاهرة) (عاصم) ، يسألونه :

ـ مادامت أوراق شقيقك تحوى كل هذه الأسرار ، فلم لا تقوم بتصويرها ، وإرسال الصور إلينا ، بدلاً من إرسال ملخصات عنها ؟

ولم يكد خطابهم هذا يصل إلى (عاصم) ، حتى أرسل إليهم قائلاً :

ـ ربما كان التصوير أفضل من التلخيص ، ولكننى أجهل كل شىء عن قواعد التصوير ، ولست أدرى كيف أفعل هذا؟!

وهنا أعلنه الإسرائيليون باستعدادهم لإرسال أحد مدربيهم إلى (مصر) ، لتدريبه على هذا النوع من التصوير ، وعلى ممارسته

فى الظروف المختلفة ، تحت الإضاءة العادية ، وبسرعة مناسبة ، وأخبروه أنهم سيمدونه بكل الأجهزة المطلوبة لأداء هذا ، وأنهم سيشترون بعض هذه الأدوات من (القاهرة) ..

ولم يمض أسبوع واحد ، حتى وصل رجل المخابرات الإسرائيلى إلى (القاهرة) ..

وكانت مفاجأة كبيرة ..

فالمندوب الإسرائيلى ، الذى سيقوم بتدريب (عاصم) ، كان هو نفسه الرئيس المباشر للعميل الإسرائيلى (عمر) ، والذى قدّم نفسه من قبل ، باعتباره مسئول حلف الأطلنطى فى (باريس) ..

واستقبل (عاصم) الضابط الإسرائيلى فى (القاهرة) وتسلم منه أجهزة التصوير ، وخضع لتدريبات مكثفة على تصوير المستندات ، وفى النهاية قال له الضابط الإسرائيلى :

ـ الآن أصبحت خبيرًا فى التصوير يا (عاصم) ، والمطلوب منك أن تقوم بتصوير كل ورقة من الأوراق التى يحضرها شقيقك معه إلى المنزل ..

سأله (عاصم) :

ـ ولكن كيف يمكننى إرسال الصور إليك ؟

ابتسم الضابط الإسرائيلى وهو يقول :

ـ لا تقلق نفسك بهذا الأمر .. سأعطيك رقم صندوق بريد فى (القاهرة) ..

كل المطلوب منك هو أن تُرسل إليه الأفلام بعد تصويرها .

ثم ألقى إليه برقم صندوق البريد وهو يستطرد فى حزم :

ـ احفظه عن ظهر قلب ، وحذار أن تدونه فى أية ورقة ، مهما كانت الأسباب أو الظروف .. هل تفهم جيدًا ؟

ابتسم (عاصم) ، وهو يقول :

ـ اطمئن .. لن أحتاج إلى تدوينه ..

يكفينا أننا عرفناه .

تراجع الضابط الإسرائيلى فى حدة ، وهو يقول :

يكفينا ؟!.. ما الذى تعنيه بصيغة الجمع هذه ؟!

لم يكد يتم سؤاله ، حتى أتاه الجواب بأعنف وسيلة يمكنه تخيلها ..

لقد اقتحم المكان بغتة عدد من الرجال ، أحاطوا بالضابط الإسرائيلى ، الذى انتابه انفعال عنيف ، وهو يهتف :

- ما هذا بالضبط؟

تبادل (عاصم) نظرة ساخرة مع ضابط المخابرات المصرى ، الذى أجاب :

- نسينا أن نُخبرك أن (عاصم) هذا ، الذى يجلس أمامك ، وحيد أبويه ، ولا أشقاء له .

هتف الإسرائيلى :

- مستحيل !.. لقد أجرينا تحرياتنا ، و ...

قاطعه ضابط المخابرات المصرى :

- ووجدتم أنه يوجد بالفعل ضابط من ضباط رياسة العمليات ، له شقيق يحمل اسم (عاصم) ، ويمضى إجازته فى (أوربا) .. هذا صحيح .. ولكنه ليس (عاصم) هذا الذى يقف أمامك ، فهذا يعمل لحسابنا .. لحساب المخابرات المصرية .

ولم تمض ثلاثة أيام فحسب على هذا الموقف ، حتى كان ضابط المخابرات المصرى يقف أمام رئيسه ، ويقول فى حماس :

- تصورَ ما أسفرت عنه التحقيقات يا سيدى .. إننا لم نقع على صيد عادى ، وإنَما حققنا ضربة مزدوجة رائعة ، فذلك الإسرائيلى

فى (فرنسا) ، هو المسئول الأول عن الإيقاع بالشباب العربى فى (أوربا) وتجنيده للعمل لحساب (الموساد) ، أما بالنسبة لصندوق البريد ، فهو يخص سيدة أجنبية ، تعمل فى إحدى المستشفيات فى (القاهرة) ، وترأس شبكة الاتصالات الداخلية لحساب العدو ، ولقد ألقينا القبض عليها أيضًا ، وكشفنا الشبكة كلها .

ارتسمت على شفتى رئيسه ابتسامة كبيرة ، وهو يقول :

- هل أدركت الآن ما كُنت أقصده ، عندما قلت لك : « دعهم يضحكون » ؟.. العبرة دائمًا ليست بمن يضحك فى البداية يا رجل .. المهم من يضحك أخيرًا .

قالها وانطلق يضحك بملء فيه ، وبكل ما يملأ كيانه من شعور بالارتياح .. وبالظفر .

* * *

نــار ودخــان

بدأ ذلك المساء، فى الثالث والعشرين من يوليو عام 1954م، هادئاً منعشاً، بالنسبة لليوزباشى (نقيب) (حسن زكى المنادى) معاون مباحث قسم (العطارين) بالإسكندرية، على الرغم من حرارة الجو الواضحة، والهواء الرطب الذى يتنفسه، إذ لم يواجه أية أحداث عنيفة منذ الصباح، واقتصر عمله على تفقد المخبرين السريين المنتشرين فى مناطق التجمعات السكنية، على نحو روتينى، وامتد به العمل حتى السابعة مساءً، وهو ينهى جولته بالقرب من سينما (ريو) حيث استوقف أحد المخبرين، وسأله:

- أكل شىء يسير على ما يُرام؟

أجابه المخبر فى آلية واحترام، وهو يؤدى التحية العسكرية الرسمية، وكأنّما نسى أنه فى عمل تفترض فيه السرية:

- كل شىء على ما يُرام، والأمن مستتب.

أومأ (حسن) برأسه متفهماً، على نحو روتينى، وغمغم وهو يشير إلى سائقه بمواصلة السير:

- أبلغنا فوراً، لو حدث أى شىء.

وبدأ السائق تحركه بالفعل، فى نفس اللحظة التى انبعثت فيها فرقعة مباغتة، من مدخل سينما (ريو)، واندفع منه إلى الشارع شاب اشتعلت النار فى سرواله، مع دخان كثيف، ورائحة نفّاذة، وهرع إليه الناس يُحاولون إنقاذه، فهتف (حسن) فى سائقه:

- انتظر .. هذا الشاب يحترق.

وبدون تردد، قفز خارج السيارة، وأسرع إلى الشاب، وألقاه أرضاً، وألقى نفسه فوقه، وراح يلف جسده فى قوة، حتى انطفأت النيران تماماً، وهنا نهض واقفاً وهو يلهث، ومد يده للشاب ليعاونه على النهوض، قائلاً:

- لقد نجوت بأعجوبة. ولكن سروالك احترق عند الفخذ.

نهض الشاب متوتراً فى شدة، وهو يقول مرتبكاً:

- إنها أعواد الثقاب اللعينة .. لقد اشتعلت داخل جيبى، من شدة الحرارة، عقد النقيب (حسن) حاجبيه فى شك، وهو يستمع

إلى هذا التبرير المضحك ، الذى لا يستند مُطلقًا إلى أى سند علمى ، وهمَّ الشاب بالانصراف بسرعة ، ولكنه استوقفه ، وأصر على اصطحابه إلى المستشفى العام لإسعافه ، وهو يسترجع فى ذهنه بعض ما سمعه ، عن سلسلة من الحرائق ، شغلت زملاءه فى (الإسكندرية) و (القاهرة) ، منذ ما يقل قليلاً عن الشهر ، ففى الثانى من يوليو ، احترق مكتب البريد الرئيس فى (الإسكندرية) ، وعثر الصاغ (ممدوح سالم) (وزير الداخلية فيما بعد ، فى عهد الرئيس أنور السادات) ، على جراب منظار طبى ، احترق جزء كبير منه ، وتبقى ما يكفى لمعرفة أنه يخص محلات (مارون إيباك) الشهيرة ، للمناظير الطبية والشمسية فى (الإسكندرية) ..

وفى التاسعة من مساء الرابع عشر من يوليو ، احترقت ـ فى وقت واحد تقريبًا ـ مكتبة المركز الثقافى الأمريكى فى (القاهرة) ..

واليوم تشتعل النيران فى جيب شاب ، فى مدخل سينما (ريو) ..

وراح الشك يتصاعد ويتصاعد ، فى أعماق الضابط الشاب ، حتى وصل إلى المستشفى العام ، وهناك لاحظ الأطباء أن منطقة الاحتراق فى جسد الشاب ملوثة بمادة فضية لامعة ، أشبه بمسحوق الألومنيوم ، وأن ما أصابه كان نتيجة لتفاعل كيميائى ، حدث قبل الأوان المحدد له ، و ...

وعثروا فى جيبه على جراب منظار طبى ، يحوى المسحوق نفسه ، ويحمل اسم (مارون إيباك) ..

وبلا تردد ، ألقى الضابط القبض على الشاب ، واصطحبه إلى مبنى المباحث العامة فى (الإسكندرية) ، حيث تسلمه المقدم (محمد سمير درويش) ، وبعد ساعة واحدة ، كان قد أدلى بالكثير .. والكثير جدًا ..

اسمه (فيليب هيرمان ناتانسون) .. يهودى ، فى الحادى والعشرين من عمره ، ويعمل فى مكتب سمسار يهودى فى بورصة القطن ، ويُقيم مع والدته فى فيلا صغيرة فى حى (بولكلى) .

وقبل مرور ساعة أخرى ، كانت قوات الأمن تقتحم فيلا (فيليب ناتانسون) ، وتفتش كل شبر فيها ، وبالذات حجرة خاصة مستقلة فى الحديقة ، كان يستخدمها لتحميض الصور ، كما أخبر والديه ، ولكن الرجال عثروا فيها على مساحيق أخرى ، لا تستخدم إطلاقًا فى عالم التصوير ، مثل كلورات البوتاسيوم ، والزنك المعنى ، وأُكسيد الحديد ، وغيرها ..

وعندما تمت مواجهة (فيليب) بكل هذا ، خفض عينيه ، مغمغمًا :

ـ نعم .. أنا فعلت كل هذا وحدى .

ابتسم المحقق ، وهو يقول :

- أحقًا فعلته وحدك يا (فيليب) ؟

ثم مال نحوه ، مستطردًا :

- لم شاركك بعض الأصدقاء مثل (فيكتور ليفى) و(روبير داسا) مثلاً ؟ انتفض (فيليب) ، عند سماعه الاسمين ، وحاول أن ينكر فى البداية ، إلا أنه لم يلبث أن أدرك عدم جدوى هذا ، فاعترف بأن صديقيه قد شاركاه أفعاله ، ثم سأل فى حيرة :

- ولكن كيف عرفتم بوجودهما ؟

وضع المحقق أمامه صورة له مع صديقيه ، تحمل عبارة بخطه هو ، تقول :

- « (فيليب ناتانسون) ، فيكتور ليفى ، و(روبير داسا) .. أصدقاء إلى الأبد » .

وقال المحقق مبتسمًا :

- لقد عثرنا عليها فى حجرتك الخاصة ، وكان من السهل استنتاج الباقى .

ولم تكن الخطوات التالية عسيرة ..

لقد ألقى رجال الشرطة القبض على (فيكتور) فى منزله ، فى حين سقط (روبير) فى قبضتهم أثناء عودته من (القاهرة) ، بعد

أن تسبب فى حدوث حريق بمخزن أمانات المحطة هناك ، بقنبلة أخرى من تلك الموضوعة فى جراب منظار طبى ..

ولم يستغرق الشبان الثلاثة وقتًا طويلاً ، للاعتراف بكل ما فعلوه ، وقالوا إنهم يحبون (مصر) التى تربوا وترعرعوا فيها ، وهذا ما دفعهم لفعل ما فعلوا ، ليثبتوا للبريطانيين والأمريكيين أن بقاءهم فى (مصر) غير مرغوب فيه ..

وهنا ابتسم المحقق فى سخرية ، وقال :

- وماذا عن حريق مكتب البريد ومخزن أمانات المحطة ؟! أكانا رسالة للمصريين ، تعنى أن بقاءهم فى وطنهم غير مرغوب فيه أيضًا ؟

ونكس الثلاثة رءوسهم وبدأ المحقق يقتنع بأن الأمر كله لايتجاوز مُجرّد العبث الطفولى ، وحماس الشباب الزائد ، و ..

وفجأة ، انقلبت الأمور كلها رأسًا على عقب ..

لقد جاء تقرير المعمل الجنائى ، ليشير إلى أن الباحثين عثروا فى منزل (فيليب) ، عند تفتيشه للمرة الثانية ، على سبع شرائح من (الميكروفيلم) ، خلف إطار زجاجى قديم ، وبتكبيرها ، اتضح أنها تحوى سبع وثائق بالغة الخطورة ، حول تركيب القنابل الحارقة ، واستعمالها ، وشفرة اللاسلكى ، وطرق إرسالها ، وكيفية الاتصال

بالآخرين ، وصنع دائرة اللاسلكى ، وأسلوب وعنوان إرسال الخطابات إلى (باريس) ..

واتسعت عينا المحقق ، وهو يُطالع هذا التقرير البالغ الخطورة ..

إنه إذن ليس أمام عمل فردى ، أو عبث صبيانى سخيف ..

إنه يواجه واحدة فى أكبر القضايا فى حياته ..

قضية جاسوسية من الطراز الأول ..

وفى اللحظة التى تلقى فيها المحقق هذا التقرير ، مصحوبًا بشرائح (الميكروفيلم) ، كان يواصل تحقيقاته مع (فيكتور ليفى) ، الذى أدرك ـ دون تبادل كلمة واحدة ـ خطورة الموقف ، وتحفزت خلاياه كلها ، عندما بدأ المحقق يجرى مكالمة هاتفية مهمة ..

ولم تستغرق المحادثة أكثر من دقيقتين ، ولكن عندما انتهى منها المحقق ، واستدار ليواجه (فيكتور) مرة ثانية ، كانت أمامه مفاجأة مذهلة ..

لقد اختفت شرائح الميكروفيلم ..

صحيح أن التقرير كان فى نفس موضعه ، ولكن الشرائح الموضوعة فوقه اختفت تمامًا ، دون أدنى أثر ..

وهتف المحقق فى (فيكتور) :

ـ أين الشرائح ؟

أجابه فى برود عجيب :

ـ أية شرائح ؟.. لم أر سوى هذه الأوراق .

وتفجّر الغضب فى أعماق المحقق ، ممتزجًا بالكثير من الإحباط والمرارة ، فتلك الشرائح كانت الدليل الوحيد ـ تقريبًا ـ الذى يحول القضية من جناية عادية ، إلى جاسوسية وتخابر مع دولة أجنبية ، وبدونه ينهار هذا الشق تمامًا ، ويخسر الرجال طرف الخيط ، الذى ربما يقود إلى ما هو أكثر أهمية وخطورة ..

ولكن أحدًا لم يستسلم لما حدث ..

لقد قلبوا الدنيا كلها على رأس (فيكتور ليفى) ، حتى عثروا على الشرائح أخيرًا ، فى ثنية سرواله ، فاعتدل المحقق ، وقال بصوت صارم مُخيف :

ـ والآن دعنا نعود إلى أسئلتنا يا (ليفى) .

وفى هذه المرة انهار (فيكتور ليفى) ، وراحت الاعترافات تسيل من شفتيه ، كشلال منهمر ، ينافس فى تدفقه شلالات (نياجرا) الشهيرة ..

وراحت عشرات الأسماء الجديدة تتوالى ، وعشرات الرءوس اليانعة تتساقط ..

(صمويل باخور عازار) ، الرسام والمدرس المهندس ..

(ماير صمويل ميوحاس) ، الوسيط التجارى ..

(موسى ليتو مرزوق) ، الطبيب بالمستشفى الإسرائيلى ..

(فيكتورين نينو) ، أو (مارسيل) ، الموظفة بشركة الفابريقات الإنجليزية ..

(ماكس بنيت) ، الموظف بشركة (أنجلو اجيبشيان) ..

(إيلى جاكوب نعيم) ، الموظف بشركة (شوارتس) ..

(يوسف زعفران) ، المهندس المعمارى ..

(سيزار يوسف كوهين) ، الموظف ببنك (زلخا) ..

وانطلق الرجال لحصد الرءوس ، وألقوا القبض على كل السابق ذكرهم ، فى حين نجح اثنان من أقوى أفراد الشبكة فى الفرار من (مصر) ، قبل أن تصل إليهم أصابع الرجال ..

(إبرام دار) ، أو (جون دارلنج) ، وهو ضابط بالجيش الإسرائيلى ، والمسئول عن إقامة كل هذه الشبكة ..

و(بول فرانك) المشرف على التنظيم ..

ومع سيل الاعترافات ، راحت الحقيقة تتضح كلها ، والبدايات تتكشف واحدة بعد الأخرى ، إلى حد أصاب الجميع بالدهشة والقلق ، وحتم نقل التفاصيل كلها إلى أهم شخصية فى البلاد ، فى ذلك الحين ..

إلى (جمال عبد الناصر) ..

.. وفى هدوء ، راح (جمال) يستمع إلى المسئول ، الذى شرح الأمر قائلاً :

ـ إنها ليست منظمة جديدة ، بل يعود تاريخها إلى ثلاث سنوات مضت ، فقد أنشأها (جون دارلنج) عام 1951م ، وأطلق الإسرائيليون عليها اسمًا كوديًا ، وهو (الوحدة ـ 131) ، وهى تتبع وحدة العمليات الخاصة التى أنشئوها عام 1948م ، للقيام بأنشطة متنوعة فى الأراضى العربية ، ولقد نشطت هذه المنظمة فى الوقت الحالى ، وأشعلت الحرائق فى المنشآت ، فى محاولة لإفساد أية اتفاقات أو محاولات تقارب ، بين (مصر) والغرب ، ولدفع (بريطانيا) للبقاء فى (مصر) ، وعدم الجلاء عنها ، كما أن (إسرائيل) تتصور أن علاقة (مصر) بالغرب ، تُفسد علاقتها هى به ، وأن أفضل ما تفعله ، هو تدمير هذه العلاقة فى بدايتها ..

وكان المسئول مُحقًا فى هذا إلى حد كبير ، ففى تلك الفترة بالذات ، كانت العلاقة بين (مصر) والغرب على خير ما يرام .. الوفود تأتى وتذهب من وإلى (واشنطن) ، والبعثات العسكرية والمدنية يتم تبادلها ، والكثير من المعونات الاقتصادية ، واتفاقات السلاح ، واتصالات لا حصر لها ، كما أن (واشنطن) كانت تمارس نوعًا من الضغط على (بريطانيا) لتتم الجلاء عن (مصر) ..

ولقد استمع (عبد الناصر) إلى المسئول فى اهتمام كامل ، دون أن يُقاطعه مرة واحدة كعادته ، ثم سأل :

ـ ومن المسئول عن كل هذا ، من الناحية الرسمية ؟

سأله المسئول فى اهتمام أكثر :

ـ هنا أم هناك ؟

لوّح (جمال) بكفه ، وقال :

ـ هناك بالطبع .

ـ هزّ المسئول رأسه ، وقال :

ـ لا يمكن الجزم بالضبط ، حتى هذه اللحظة ، فالعمل يبدو أشبه بما يقوم به (الموساد) ، ولكن (إبراهام دار) ، أو (جون دارلنج) ، ضابط فى الجيش الإسرائيلى ، والأرجح أنه يعمل لحساب المخابرات

العسكرية (الموديعين) ، وهناك صراع سرىٌ عنيف ، يدور بين الجهازين ، فكل منهما يرغب فى إثبات تفوقه ، وسيطرته على هذا العالم .

اعتدل (جمال عبد الناصر) ، وهو يسأل فى اهتمام أكثر :

ـ ولكن هل يعلم رئيس الحكومة الإسرائيلى (موشى شاريت) بهذا ؟

هزّ المسئول كتفيه ، وقال :

ـ ربّما نعم ، وربّما لا .. ليس بإمكاننا التيقن الآن .

ابتسم (عبد الناصر) ، وقال :

ـ هناك وسيلة مؤكّدة لنعلم الجواب .

وقبل أن يسأله المسئول عما يعنيه ، أضاف فى حزم :

ـ سنعلن التفاصيل كلها للعالم ..

وفى اليوم التالى وقف (زكريا محيى الدين) ، رئيس جهاز المخابرات السرى (وهو ما كان يطلق على المخابرات العامة فى البداية) ، يُعلن نبأ القضاء على شبكة التجسس الصهيونية ، فى مؤتمر صحفى عالمى ..

وأصيب الرأى العام الإسرائيلى بالذهول ..

بل وبالانهيار ..

فكانت فضيحة كبرى ، على أعلى مستوى ، وخاصة عندما اتضح أن (موشى شاريت) ، رئيس الحكومة الإسرائيلية ، قد فوجئ بما حدث ، وكأنه كرجل الشارع العادى ..

وارتفعت الأصوات الغاضبة فى (إسرائيل) ، وصرخت الصحف محتجة ومستنكرة ، مما دفع (شاريت) إلى الادعاء بأن كل ما حدث من تدبير حكومة (جمال عبد الناصر) ، لإحراج (إسرائيل) على المستوى العالمى ..

ولكنها كانت كذبة ساذجة ، ومحاولة مفضوحة للغاية ..

ولم يكن هناك بدٌ من إلقاء الاتهام والمسئولية على أحد كبار رجال الدولة ..

وكان كبش الفداء هو (بنحاس لافون) ، وزير الدفاع ..

وفى عصبية ، راح (بنحاس لافون) ، البولندى الأصل ، الصهيونى النزعة ، يتبادل الاتهامات مع مدير المخابرات العسكرية (بنيامين جيبلى) ، وكل منهما يدعى أن الآخر هو الذى أعطى التصريح بالقيام بتلك الأعمال التخريبية ..

ومع الاختلاف ، انكشف الأسرار ..

وكانت فضيحة جديدة ..

وفى هذه المرة حملت الفضيحة اسم وزير الدفاع الإسرائيلى ، وأصبحت على المستوى الإعلامى ، تعرف باسم (فضيحة لافون) ..

وأعلن (لافون) أنه لم يكن يعلم شيئًا عمّا حدث ولكن أحدًا لم يصدقه ، بل وتضاعف السخط الشعبى ضده ، وخاصة بعد صدور الأحكام فى القضية ..

لقد صدر الحكم فى السابع والعشرين من يناير عام 1952م ، بإعدام كل من (ليتو مرزوق) و(صمويل عازار) ، والأشغال الشاقة المؤبدة (لفيكتور ليفى) ، و(فيليب ناتانسون) ، والأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عامًا (لروبير داسا) و(فيكتورين نينو) ، والأشغال الشاقة لمدة سبع سنوات (لماير زعفران) و(ماير ميوحاس) ، وبراءة (إيلى نعيم) و(سيزار كوهين) ..

وبعد أربعة أيام فقط وفى 31 يناير 1955م ، تم إعدام (موسى مرزوق) و(صمويل عازار) شنقًا ، فى سجن الاستئناف بباب الخلق فى (القاهرة) ..

ولم يعد الأمر يحتمل فى (إسرائيل) ..

وفى الثانى من فبراير عام 1955م ، تقدم (بنحاس لافون) باستقالته ، من وزارة الدفاع الإسرائيلية ، وانسحب مع مستقبله كله من خريطة السياسة ..

وبعد أسبوعين فحسب ، لحق به (بنيامين جيفلى) ، مدير المخابرات العسكرية ..

وعندما جلس الاثنان ، يجتران مرارتهما وأحزانهما ، أدركا أن المصريين قد زرعوا فى نفسيهما نفس ما أرادا زرعه فى (مصر) ..

النـــار ..

النـــار .. والدخان .

* * *

وسقط الخائن

كل شيء كان يدعو إلى الاكتئاب ، فى تلك المنطقة من مدينـة (العريش) فى عام 1969م ، فالطقس بارد ، والسماء تختفى خلـف سُحب رمادية داكنة ، حجبت ضوء الشمس ودفنتها ، وأضفت على المكان نوعًا من الحزن والرهبة ، خاصة وأن المدينة كلها ترزح تحت نير الاحتلال الإسرائيلى ، بعد نكسة يونيو 1967م ، وأن هذه البقعة بالذات تحوى ذلك السجن الردىء ، الذى يلقى فيه الإسرائيليون أسراهم وسجناءهم ، الذين يُصرون على رفض وجود المحتلين ، ويواصلون مقاومتهم فى عناد وحزم وصلابة .

ولكن العجيب أن أحد السجناء تجاهل كل عوامل الاكتئاب هذه ، ووقف فى نافذة زنزانته يغنى !!..

نعم .. يُغنى بكل حماس ، ويُردد بعض الأدعية والابتهالات بصوت مُرتفع ، على الرغم من أن نبرات صوته لم تكن ترقى ، أو حتى تقترب من نبرات شخص يصلح للغناء ..

كان هذا السجين يدعى (محمد سليمان البنديرى) وهو أحد أفراد منظمة سرّيّة قوية ، أنشأها فرع من المخابرات العامة المصرية فى قلب الأرض المحتلة ، وأطلق عليها اسم (منظمة سيناء العربية) لإلحاق أكبر قدر من التدمير والتخريب للمنشآت الدفاعية الإسرائيلية ، وتوجيه ضربات قاصمة لطرق ووسائل المواصلات ..

والواقع أن هذه المنظمة كانت واحدة من أفضل وأقوى الشبكات التى أرهقت الإسرائيليين وأثارت جنونهم ، فقد انضم إليها عدد كبير من المتطوعين من مختلف المهن والنوعيات ، ومن كل مكان فى الأرض المحتلة ، وكان منهم المدرس ، والمهندس ، والطبيب ، والإسكافى ، والخباز ، وغيرهم ، وغيرهم وكان يقودهم ويوجههم واحد من أفضل قيادات المخابرات فى تلك الحين ، وقد نجح نجاحًا يستحق الإعجاب والتقدير ، فى تدريبهم وإعدادهم ، وتحديد واجباتهم وأهدافهم ، وما زال الباقون منهم على قيد الحياة يتذكرون كلماته الحماسية التى ألقاها على مسامعهم ، فى لقائه الأول معهم ، فى سبتمبر من عام 1967م وهو يقول :

المفروض أن تنتشروا فى كل المناطق التى يحتلها العدو ، وأن تحيلوا حياته إلى جحيم متصل لا ينتهى .. انسفوا الطرق والجسور والمواصلات الهاتفية والبرقية .. أشعلوا الحرائق فى المستودعات وقطارات السكك الحديدية .. طاردوا العدو بلا كلل أو هوادة ، واجعلوه لا يطيق البقاء فى شبر واحد من الأرض المحتلة ..

ولم يكتف الرجال بسماع الحديث ، بل حولوا هذه الكلمات إلى واقع ، وإلى حرب طاحنة ، بلغ من قسوتها أن العدو الإسرائيلى راح يتكتم أنباء النجاحات المتوالية لها ، خشية أن تحطم معنويات شعبه وجيشه ..

ولكن فجأة ، ومع حلول عام 1969م بدأت سلسلة من النكبات الغامضة ، فقد سقط بعض رجال المنظمة فى قبضة الإسرائيليين ، وداهمت الشرطة بيوت العديدين ، واقتادتهم إلى التحقيقات ، التى استخدم فيها العدو أساليب التعذيب القاسية ، التى أدت إلى موت البعض ، وتدمير البعض الآخر ، ثم نصبت دورية إسرائيلية كمينًا لمجموعة من رجال المنظمة ، فى طريق عودتهم ، بعد غارة ناجحة على أحد مطارات العدو الحربية ، وتم إعدامهم فى الصحراء رميًا بالرصاص ، دون تحقيق أو محاكمة ..

وكان من الواضح أن هذا الأمر يتجاوز حدود المصادفات أو حتى البراعة الإسرائيلية المزعومة ..

لابد من وجود خائن ، ينقل أسرار المنظمة إلى العدو ..

ولكن من هذا الخائن ؟!

هذا هو السؤال ..

وفى مبادرة شجاعة مدهشة ، كلفت المخابرات المصرية اثنين من ضباطها مهمة السفر إلى قلب (سيناء) المحتلة لإجراء تحقيق شامل فى هذا الأمر ..

وفى (سيناء) قرر الضابطان أن أقصر الطرق لبلوغ الهدف ، هو الاتصال مباشرة بأحد أعضاء المنظمة المقبوض عليهم ، والذى ظلوا على قيد الحياة فى السجن ..

ووقع الاختيار على (محمد سليمان البنديرى) ..

وإلقاء القبض على (البنديرى) فى حد ذاته ، كان مثيراً للحيرة ، فقد كان يخفى فى منزله مدفعين رشاشين قصيرين ، ويضعهما فى مخبأ يصعب العثور عليه ، وعلى الرغم من هذا فقد داهمت الشرطة الإسرائيلية منزله ذات ليلة ، واتجه الرجال إلى المخبأ مباشرة ، وكأنهم يعرفون هدفهم جيداً ، واقتادوه مع الرشاشين إلى السجن ..

وكان على الضابطين العثور على وسيلة مضمونة ، لتمرير المطلوب إلى (البنديرى) وعلى الرغم من أن الرسالة لم تكن تجاوز فى حجمها حجم خطاب بريد عادى ، إلا أن المخابرات المصرية دفعت مبلغًا ضخمًا لأحد حراس السجن الإسرائيليين ، وهو رجل جشع من أصل تونسى ، لينقل الرسالة إلى السجين ، ويعود بالرد ..

ووصلت الرسالة بالفعل إلى (البنديرى) ولكنه لم يستطع إرسال الرد ، فقد شاءت الأقدار أن يسقط الحارس ، أثناء صعوده سلم السجن ، وتُصاب ساقه بكسر ، أجبره على البقاء فى منزله ، فلم يمكنه العودة بالرد ..

ولكن (البنديرى) وجد وسيلة مبتكرة لإرسال الجواب إلى أحد ضباط المخابرات ، الذى يرابط خارج السجن معظم الوقت ، فقد وقف فى النافذة ، فى ذلك اليوم الرمادى ، وأخذ يغنى ..

ومن بين كلمات الأغانى والأدعية والصلوات ، أرسل (البنديرى) اسم الخائن ..

(على الموجى) ..

وعلى الفور ، نشط جهاز المخابرات لجمع المعلومات عن الخائن ..

كان رجلاً فى الأربعينات من عمره ، سكير ، يدخن المخدرات ، ويميل إلى مصاحبة الساقطات ، وهو صديق حميم لضابط مخابرات إسرائيلى فى (العريش) يحمل اسم (حاييم أبيب) ولقد نزح إلى (سيناء) عام 1957م ، للعمل مع قوات الطوارئ الدولية ، ولكن سوء سلوكه دفع زوجته للعودة إلى (القاهرة) فتزوج بأخرى من (العريش) واتخذ لنفسه عشيقة ، واستولى على محتويات منزل محافظ (سيناء) تحت حراسة جنود الاحتلال .. بل والأخطر أن التحريات أثبتت أن لديه تصريحًا لدخول المعسكرات الإسرائيلية ، مما يُدعم ويؤكِّد خيانته ..

وعندما وضعت كل هذه المعلومات أمام مدير المخابرات ، صمت بضع دقائق ، وهو يُطالع الملف ، ثم ذيله بالحبر الأحمر بكلمتين محددتين :

أحضروه حيًا ..

وبعد دقائق معدودة ، كان رجال المخابرات يدرسون الأمر ، ويُراجعون معلوماتهم عن الخائن .. مسكنه ، عاداته ، الأماكن التى يتردَّد عليها ، ونقاط الضعف فى شخصيته ..

كان (على الموجى) يقيم فى مسكن مجاور لمبنى تعمير الصحارى بالقرب من الشاطىء ويستخدم دراجة آلية فى تنقلاته ، وهو دائمًا مسلح بمدفع آلىّ ، ولا يبقى فى مكان واحد لفترة طويلة ..

واستغرقت دراسة الأمر الليل كله ، قبل أن يستقر الرأى على أن الوسيلة المثلى لإحضار ، ذلك الخائن إلى (القاهرة) هى أن تقوم غواصة مصرية بنقل ثلاثة من الضباط إلى نقطة قريبة من شاطىء العريش ، حيث يُهاجمون الخائن ، ويجبرونه على مصاحبتهم تحت تهديد السلاح إلى الغواصة ، التى تعود بهم إلى (القاهرة) ..

وكانت الخطة بالغة الجرأة ..

وبالغة الخطورة ..

ولكن الرجال الذين قدت قلوبهم من فولاذ ، لم يترددوا لحظة فى الإعداد لتنفيذها ، والاستعداد لخوض غمار خطورتها ..

وقبل أن تنتقل الخطة إلى حيز التنفيذ ، وقع أمر لم يكن فى الحسبان ..

لقد أقدمت المقاومة الفلسطينية على اختطاف (فاطمة) عشيقة (على الموجى) التي كانت تعمل بدورها لحساب الإسرائيليين ، وقتلوها ، وأخفوا جثتها فى قلب الصحراء ..

وشعر الإسرائيليون بالخطر على رجلهم (على الموجى) فنقلت المخابرات الإسرائيلية مسكنه إلى داخل المدينة ، إلى جوار مكتب البريد ..

وكان هذا الإجراء يقلب الأمور كلها رأسًا على عقب فالمسافة من مكتب البريد إلى شاطىء البحر كبيرة ، وستكتنف الخطر العملية كلها ، وتتضاعف الصعوبات مع اختراق ثلاثة من ضباط المخابرات المصريين للمدينة ، وبصحبتهم خائن ، كما أنه ليس من الحكمة استبقاء الغواصة لوقت طويل ، بالقرب من الشاطىء ..

وهكذا كان من الضرورى أن يتم تعديل الخطة ، فاستقر الرأى على أن تقتصر مهمة الغواصة على نقل الرجال فى رحلة الذهاب فحسب ، على أن يتولوا مهمة أسر الخائن ، والعودة به عبر الصحراء المكتظة بالدوريات الإسرائيلية سيرًا على الأقدام ..

وكان هذا يُضاعف الصعوبات ..

ويُضاعف الخطر ..

وفى ليلة شديدة البرودة ألقت غواصة مصرية صغيرة رجال المخابرات المصريين الثلاثة ، من فتحات الطوربيد ، أمام شاطئ (العريش) ، وتركتهم يواجهون مصيرهم هناك ..

وفى نفس الوقت ، كان أحد عملاء المنظمة يستدرج الخائن إلى

فخ متقن، يسيل له لعابه .. فقد أقنعه بأن المنظمة تخفي جزءًا كبيرًا من أسلحتها في المقابر، وأنها أوكلت إليه مهمة حراسة هذه الترسانة ..

ولأن الخائن يرغب في الحصول على مكافأة ضخمة من رؤسائه الإسرائيليين، فقد طلب من عميل المنظمة أن يُطلعه على المخبأ بنفسه، حتى يتأكد من وجوده، قبل أن يبلغ الرؤساء بهذا ..

واصطحبه عميل منظمة (سيناء) إلى ذلك المخبأ المزعوم ..

وأثناء الطريق شعر (علي الموجي) بالشك والقلق، عندما انتبه إلى أن ثلاثة من الرجال يتبعونه، إلا أنه لم يلبث أن ألقى شكوكه جانبًا، وطرحها خلف ظهره، عندما لاحظ أن الرجال الثلاثة يقطعون شارع (علي بن أبي طالب) في هدوء، وهم يرتدون الزي الرسمي لجيش الدفاع الإسرائيلي ..

وعلى مشارف المدينة، وبعد أن ابتعد الجميع عن العمران، فوجئ (علي الموجي) بالرجال الثلاثة ينقضون عليه ويلقون القبض عليه مع عميل المنظمة، ثم يكشفون له الموقف كله، ويعلنونه بأنهم سيحملونه معهم إلى (القاهرة) ثم حذروه من مغبة المقاومة، وأقنعوه بأن لديهم أوامر صريحة بالقضاء عليه في قلب الصحراء، لو حاول الفرار ..

وأعلن الخائن استسلامه، وسار مع الرجال في إذعان، حتى رأى رئيس المجموعة أن الوقت قد حان للحصول على قسط من الراحة قبل مواصلة الرحلة عبر الصحراء ..

ومع الجلوس والراحة، أشعل رجال المخابرات النار في كومة من القش الجاف، واستخدموا علبة فارغة من علب الطعام المحفوظة مع قدر من ماء الزمزمية لصنع بعض الشاي ..

وفجأة، رفع الخائن العلبة، وركل القش المشتعل في وجوه الرجال الثلاثة، ثم انطلق محاولاً الفرار ..

وكان هذا أكبر خطأ ارتكبه ..

لقد جرى بأقصى سرعته، تدفعه الرغبة في النجاة، محاولاً الابتعاد عن الرجال الثلاثة، متصورًا أن الحروق التي أصابتهم ستمنعهم من مطاردته، ولكنه لم يكد يقطع عشرين مترًا لا غير حتى سمع صوتًا من خلفه، يهتف في صرامة:

- آخر الخط أيها الحقير ..

وفي اللحظة التالية، كانت ذراعان قويتان تطوقانه ككلابتين من فولاذ، وعندما حاول مقاومتهما في استماتة، هوت قبضة قوية على فكه، وانفجرت أخرى في معدته ثم ارتج كيانه كله بثالثة على مؤخرة عنقه ..

وسقط الخائن أرضًا، وهو يصرخ :

- كفى .. كفى .. أنا أستسلم ..

وأصابه الهلع، وهو يبصق اثنتين من أسنانه، مع الدم الذى ملأ فمه، وراح يعتذر للرجال، ويتوسل إليهم أن يغفروا له زلته، وأن يَعفوه مِنَ العقاب ..

ولم يكن الرجال فى حاجة إلى توسلاته، فى الواقع، فطبيعتهم الشخصية، والتدريبات التى تلقوها، علمتهم أنه لا وجود للانتقامات الشخصية فى عملهم، وأن المصلحة العامة تَجُبّ دائمًا رغبات الثأر الفردية ..

ولكن من الضرورى أيضًا ألا يمر الأمر دون عقاب، ولهذا فقد اتخذ الرجال قرارهم بحرمان الخائن من الطعام والراحة، طوال الفترة المتبقية ..

ولابد من الاعتراف هنا بأن الخائن قد عانى عذابًا رهيبًا، طوال رحلته نحو الغرب، بعد أن فعل ما فعله، فلم يكُفّ عن الاعتذار والتوسل طوال الطريق، إلا أن أحدًا لم يلتفت إليه، أو يهتم بإجابة طلباته حتى نهاية اليوم الأول ..

وكانت الرحلة رهيبة بحق، فالدوريات الإسرائيلية تنتشر فى كل مكان، وحالة التوتر تبدو واضحة، وخاصة بعد أن كشف

الإسرائيليون اختفاء عميلهم، وأدركوا أن هذا الاختفاء ليس طبيعيًا، وأنه ينطوى على عمل من أعمال المخابرات المصرية ..

وكان على الرجال الأربعة أن يتفادوا كل الدوريات الإسرائيلية، وأن يتخفوا جيدًا، ويمنعوا الخائن من كشف أمرهم، أو توجيه أية إشارة، يمكنها أن تلفت انتباه الإسرائيليين ..

ولم يكن هذا سهلاً ..

لقد استنزف الكثير من قوة الرجال وجهدهم، وألهب أعصابهم بشدة، حتى أن ذلك بدا واضحًا على وجوههم، وهم يجلسون داخل كهف رطب، على مسيرة يوم واحد من شاطىء خليج السويس، وقد بلغ منهم الإرهاق والتوتر مبلغهما، ورمق أصغرهم سنًّا الخائن بنظرة محنقة، قبل أن يقول فى حدة :

- لماذا نحتفظ بهذا الخنزير ؟

تطلّع إليه الجميع فى تساؤل وشحب وجه (على الموجى) عندما سمعه يستطرد : إنه يرهقنا ويجبرنا على السير فى بطء، ويعرضنا للخطر، مع كل هذا العدد من الدوريات الإسرائيلية التى تحيط بنا .

سأله قائد المجموعة :

- ما الذى تريد أن تقترحه بالضبط ؟

رمق الضابط الصغير ذلك الخائن بنظرة قاسية قبل أن يجيب :

ـ دعونا نتخلص منه هنا .

انهار (على الموجى) تمامًا ، عند سماعه هذه العبارة ، وجثا على ركبتيه ، هاتفًا فى ضراعة ورعب :

ـ لا .. لا .. اتركونى حيًا وسأفعل كل ما تشيرون بـه .. لن أنطق بكلمة واحدة ، وسأسير بسرعة .. أرجوكم .

كان اقتراح الضابط الصغير يلقى قبولاً من الجميع نظـرًا لاحتقـارهم لذلك الخائن ، ولما فعله معهم إلا أن الأوامر لديهم كانت صريحة واضحة ..

(احضروا الخائن حيًا) ..

ولهذا رفض قائد المجموعة الاقتراح ، وأعلن فى وضـوح أنـه لـن يسمح بقتل الخائن ، وأنـه سيطيع الأوامر حتـى النهايـة ، وسيعود بالخائن إلى (القاهرة) حيًا مهما كان الثمن ..

وواصل الرجال رحلتهم الرهيبة ..

وفى النهاية وصلت القافلة الصغيرة إلى شاطىء (خليج السويس) ، وسط ظلام الليل ، وخوفًا من أن يُطلق الخائن صيحة استغاثة ، قد تثير وحدات الحراسة الإسرائيلية والمنتشرة على الشـاطىء ، تم تكميم فمه وتقييد معصميه وكاحليه ، ثم تبادل قائد المجموعـة إشارة ضوئية سريعة مع آخر على الشـاطىء الغربـى ، وبعدها

تسلل قارب مطاطى صغير ، عبر مياه الخليج الباردة ، ولم يمض نصف الساعة حتى كان القارب يعود بالرجال مع أسيرهم ..

وفى (القاهرة) أدلى (على الموجى) باعترافات مثـيرة ، أدت إلى رسم صورة دقيقة لأسـاليب المخابرات الإسرائيلية وعملائهم ، وساعدت على عودة منظمة (سيناء) إلى العمل من جديـد ، فـى السابع من فبراير عام 1970م ، حيث قام رجالها بعشرات العمليات الناجحة ، ودمروا مئات الأطنان من الذخائر ، وآلاف الكيلو مترات من الطرق ، وألقـوا آلاف القنابل اليدويـة علـى دوريات العدو ، وأطلقوا آلاف الصواريخ المضادة للدبابات ، وأبادوا كتائب كاملـة من جيوش العدو ، وعادوا يثيرون جنون وذعر قوات الاحتـلال ، ورجال المخابرات الإسرائيلية .

الأكثر أهميـة من كـل هذا ، أن سقوط (علـى الموجـى) فـى قبضة المصريين ، بهذا الأسلوب الرائع ، جعل كل العملاء ، الذين يعملـون فـى خدمـة المخـابرات الإسـرائيلية ، يدركـون أن ذراع (القاهرة) ليست بعيدة عنهم حتى ولو كانوا فى أحضان العدو ..

إنها ستبلغهم حتمًا ، وستقبض بشراسـة وقسـوة علـى أعنـاق الخونة ، مهما كانت مواقعهم ليدفعوا ثمن الخيانة ..

وثمن السقوط ..

* * *

نقطة الضعف

تعالى وقع خطوات ثقيلة ، عبر ممرات جهاز المخابرات الإسرائيلى ، فى تلك المساء ، السادس من يناير ، عام 1961م ، وتوقف صاحبها لحظات ، ليطلب الإذن بمقابلة رئيس الجهاز ، الذى استقبله فى اهتمام واضح وهو يسأله :

ـ ماذا حدث يا (جولدمان) ؟.. لماذا طلبت مقابلتى على هذا النحو العاجل ؟..

أجابه رجل المخابرات الإسرائيلى وكل خلية من خلاياه تصرخ انفعالاً ومرارة :

ـ المصريون أوقعوا (تومس) وشبكته

تلقى رئيس المخابرات الإسرائيلية الخبر كصاعقة قائلاً :

ـ مستحيل !.. لقد كنا نعتمد عليه كثيرًا .. كيف فعلها المصريون ؟!

راح (جولدمان) يروى له ما حدث ، طبقًا لمعلوماته المحدودة عن الواقعة ، التى تمت منذ ساعات فحسب ، ونجح خلالها جهاز المخابرات العامة المصرية ، فى الإيقاع بالجاسوس الأرمينى (جاك ليمون توماس) ، مع معظم أفراد شبكته ، بعد أن نجحت زوجته (كاتى) فى الفرار فى اللحظة الأخيرة ، واستمع إليه رئيس

المخابرات الإسرائيلى فى مرارة لا حصر لها ، قبل أن يدفن وجهه بين راحتيه لحظات ، ويلتقط نفسًا عميقًا ، محاولاً إطفاء نيران الهزيمة فى أعماقه ، ثم لم يلبث أن رفع عينيه إلى (جولدمان) ، قائلاً :

ـ سنعقد اجتماعًا عاجلاً .. الآن ..

لم تمض نصف الساعة على هذا القول ، حتى كان هناك اجتماع على أعلى مستوى ، داخل مقر قيادة المخابرات الإسرائيلية ، وألقى رئيسها الخبر على المجتمعين ، الذى تلقوه فيما يشبه الصدمة ، ولكن رئيسهم لم يمنحهم الفرصة لتذوق مرارة الهزيمة ، وهو يواصل :

ـ المشكلة ليست فى الإيقاع بشبكة (توماس) ، ولكن فى خسارتنا لأحد الأهداف الرئيسية ، لقيام مثل هذه الشبكة ، فأنتم تعلمون جميعًا أن الجنرال (عزرا وايزمان) ، قائد سلاح الطيران ، يصر ويضغط علينا بشدة ، لنبذل قصارى جهدنا ، من أجل الحصول على إحدى طائرات (الميج) ، السوفيتية الصنع ، والتى يستخدمها المصريون ، ويتدرب عليها طياروهم ، ولقد أسندنا هذه المهمة لشبكة (توماس) التى بذلت جهودًا جادة ، لإقناع أحد الطيارين المصريين بالفرار بطائرته إلى (إسرائيل) ، مقابل مليون دولار ، ولكن الإيقاع بالشبكة أفسد المهمة كلها ، وصار علينا أن نبحث عن وسيلة أخرى لتحقيق ما يطلبه قائد الطيران .

وهنا انتقلت المناقشة إلى البحث عن وسيلة أخرى، للحصول على الطائرة السوفيتية، واقترح أحدهم زرع عميل في سلاح الطيران، ودفعه للقيام بالعمل، ولكن الآخرين اعترضوا على الفكرة، لأنها تحتاج إلى وقت طويل، وغير مضمونة النتائج، وهنا انبرى أحدهم قائلاً :

ـ ولم لا نواصل ما بدأته شبكة (توماس) ؟

أجابه رئيسه :

ـ شبكة (توماس) لم تحقق نجاحًا فى هذا المجال، فعلى الرغم من ضخامة المبلغ، إلا أنه لم يغر طيارًا مصريًا واحدًا بالفرار بطائرته إلى (إسرائيل) ..

هزّ صاحب الاقتراح كتفيه :

ـ هذا أمر طبيعي، فأية قوات مسلحة عربية تمنح طياريها حياة رغدة، تفقد المال أهميته، باعتباره نقطة ضعف مثالية، يمكن العبور إلى أى شخص من خلالها .. المشكلة أيها السادة هى نقطة الضعف التى تناسب الشخص .. لتنتخبوا طيارًا له نقطة ضعف وستجدون فيه غايتكم ..

كان الاقتراح مناسبًا بالفعل، ولقد اجتمعت عليه الآراء فى نهاية الأمر، وصدر القرار بوضعه مباشرة موضع التنفيذ، فنشطت

أجهزة المخابرات الإسرائيلية لجمع أكبر قدر من المعلومات عن الطيارين، وعاداتهم، واهتماماتهم، وحياتهم الاجتماعية .

ووقع الاختيار على النقيب (عباس حلمى)، من سلاح الطيران المصرى ..

هذا لأن النقيب (عباس حلمى) كانت له نقطة ضعف بالغة الخطورة، وتصلح تمامًا للقيام بالعمل المنشود ..

ففى واحدة من سهراته، التقى (عباس) بالشقراء (ربيكا) ..

ومنذ اللحظة الأولى، جذبت (ربيكا) أنظار الجميع فى (الكازينو)، بأناقتها الواضحة، وأنوثتها المفرطة، وتلك الضحكات الرنانة، المفعمة بالدلال والعبث .

ولأن (عباس حلمى) ضعيف غاية الضعف أمام النساء، فقد تعلقت عيناه بتلك الفاتنة طوال السهرة، وحاول أن يبادلها الابتسام مرة أو مرتين، إلا أنها رمته بنظرة لا مبالية، وعادت إلى ضحكاتها مع من تجالسهم ..

واشتعلت أعصاب الشاب، وتوترت كثيرًا، وهو يواصل مراقبة الفاتنة الشقراء، ويحلم كمعظم الجالسين بالاقتراب منها ومجالستها، ويأسف لأنها لا تعيره اهتمامًا ..

ولكن (ريبكا) غادرت المائدة ، بعد ثلاث ساعات ، بحجة تعديل زينتها ، وفى طريقها إلى الحجرة المخصصة لهذا ، توقفت عند مائدة (عباس حلمى) ومنحته ابتسامة عذبة ، وهى تقول :

ـ انتظرنى .. سأعود إليك .

لم يُصدق (عباس) نفسه ، وراح قلبه يخفق فى عنف ، عندما عادت إليه (ريبكا) بالفعل ، متجاهلة هؤلاء الذين كانت تجالسهم من قبل ، وأكملت سهرتها على مائدته وتربعت فى أعمق أعماق قلبه ، الذى نبض فى قوة ، حتى إن نبضاته علت على صوت العقل ، وأخرسته تمامًا داخل جمجمته ، وسلبته الفاتنة الشقراء رصانته وتفكيره ..

وفى حنكة وخبرة ، راحت العميلة الإسرائيلية تنسج شباكها حول الطيار الشاب ، وتتغلغل فى حياته ، حتى صارت جزءًا منه ، من الصعب أن يتخلى عنه ، أو يفتقده ..

وعندما أيقنت (ريبكا) من إحكام سيطرتها عليه تمامًا ، انتقلت مباشرة إلى الخطوة التالية ، واختارت لها أفضل لحظاتهما ، وأكثرها رومانسية ، لتقول :

ـ (عباس) .. يبدو أننا لن نستطيع الاستمرار معًا .

ـ ماذا تقولين؟! .. مستحيل !..

تظاهرت بالحزن والبكاء ، وهى تقول :

ـ ولكن هذا محتم مع الأسف يا (عباس) ، فلا أحد سيسمح لك بالزواج من فتاة مثلى ، ثم إنه من الضرورى أن أعود إلى موطنى ، الذى أخفيته عنك طوال الوقت ..

ـ ولماذا أخفيت على موطنك يا (ريبكا)؟!.. ما موطنك بالضبط ؟

أسبلت جفنيها على نحو مدروس ، وتركت صوتها يتهدج فى براعة ، وهى تجيب فى حزم تمثيلى :

ـ إسرائيل .

كانت مفاجأة مذهلة للطيار الشاب ، وهى تنسج له قصة زائفة ، حول منشئها الألمانى ، وهجرة أسرتها إلى (إسرائيل) ، واستعدادها للحاق بهم ، ثم انتهت القصة بفيض من دموع التماسيح ، وهى ترتمى بين ذراعيه ، وتسكب دموعها على صدره ، وتقول إنها كانت تتمنى لو استطاعا السفر معًا إلى (إسرائيل) ، والحياة فيها إلى الأبد ، مؤكِّدة استحالة بقائها فى (مصر) ، وحتمية سفرها ..

وفى توتر شديد ، قال (عباس) :

ـ ولكن سفرنا معًا إلى (إسرائيل) مستحيل !.. أنا طيار مصرى ، وأنت تعلمين أن (مصر) و(إسرائيل) فى حالة حرب ..

قالت في دلال وحزن مدروسين :

ـ لا مفر من الفراق إذن .

هتف بسرعة :

ـ لا .. إلا الفراق ..

ارتسمت داخلها ابتسامة ظافرة واثقة ، لم تجد طريقها إلى شفتيها ، اللتين احتفظتا برسم الأسف والأسى ، وهي تقول له في عذوبة :

ـ اترك الأمر لي إذن .. سأجد حلاً ..

وحتى تواصل العميلة الإسرائيلية الضغط على مشاعره ، واستغلال نقطة ضعفه أكثر وأكثر ، غرقت في حبه في الأيام التالية ، بحجة أنها تنهل منه قدر استطاعتها ، قبل أن يفرقهما رحيلها إلى (إسرائيل) ..

وهكذا نسي (عباس حلمي) وطنه وانتماءه ، وأصبح شغله الشاغل هو العثور على وسيلة للسفر مع (ريبكا) إلى (إسرائيل) ، والعيش معها ..

وفي غمرة توتره وحيرته وقلقه ، خرجت عليه الإسرائيلية بالفكرة ، التي وضعت من أجلها الخطة كلها ..

وفزع (عباس) من الفكرة في البداية ، ولم يتصوّر نفسه أبدًا

يقود طائرة مصرية إلى أرض العدو الإسرائيلي ، الذي تعلم دائمًا أن يقاتله بلا هوادة ..

ولكن ، ومع استمرار العزف على نقطة ضعفه الكبرى ، انهارت مقاومة (عباس حلمي) ، واتخذ أسوأ قرار في حياته كلها ..

قرار خيانة الوطن ..

وسافرت (ريبكا) إلى (إسرائيل) ، وهي تهمس له بأنها ستكون في انتظاره هناك ، على أحر من الجمر ، عندما يصل بالطائرة المصرية السوفيتية الصنع ..

وذات صباح ، وبعد رحيل (ريبكا) بأسبوعين أو ثلاثة ، نفّذ (عباس حلمي) مهمته القذرة ، وانطلق بطائرته إلى (إسرائيل) ..

وهناك ، أصيب الإسرائيليون بصدمة كبيرة ، وشعروا بخيبة أمل عنيفة ، وهم يستقبلونه في أحد مطاراتهم الحربية ..

لقد هرب إليهم (عباس حلمي) بطائرة تدريب سوفيتية الصنع ، من طراز (ياك) وليس بالطائرة (الميج) ، التي قاتلوا طوال الوقت للحصول عليها ..

أما (عباس) نفسه ، فقد كانت في استقباله صدمة أكثر عنفًا ..

فمنذ اللحظة الأولى ، راح يسأل في لهفة وإلحاح عن (ريبكا) ، ويطلب مقابلتها ، ويؤكّد لكل من يلتقي به أنه لم يخن وطنه إلا من أجلها ، والجميع يماطلونه ، ويتذرعون بشتى الأعذار ..

ثم لم يلبث مسئول المخابرات الإسرائيلية أن صارحه بالموقف ..

وهنا فهم (عباس) الموقف فى وضوح ..

وعلى الرغم من حزنه ومرارته ، أدرك (عباس حلمى) جيدًا أنه قد وقع فى الفخ ، وخان وطنه بلا طائل ، وفى الوقت ذاته ، وعلى الرغم من خيبة أملهم الواضحة ، أحسن الإسرائيليون استقبال الطيار المصرى الشاب ، وحصلت منه المخابرات العسكرية الإسرائيلية (أمان) على بعض المعلومات الخاصة بسلاح الطيران ، واستخدمه المسئولون الإسرائيليون لأغراض إعلامية دعائية ، حيث أدان تدخل (مصر) فى (اليمن) ، وهاجم نظام حكم الرئيس (جمال عبدالناصر) ..

ولكن إحساس الخسارة والهزيمة لم يفارق (عباس حلمى) قط ، على الرغم من حصوله على مساعدة مالية من الإسرائيليين ، ووظيفة جيدة فى (تل أبيب) ، فقد أدرك ، بعد فوات الأوان ، أنه كان ضحية خدعة حقيرة ، حولته من طيار محترم ، يتمتع بكيان اجتماعى متميز فى وطنه ، إلى خائن هارب ، يحتقره جيرانه الإسرائيليون قبل أبناء وطنه فى (مصر) ، فقرر الهجرة إلى (أمريكا الجنوبية) ، وأعلن قراره هذا ، وأصرّ عليه فى شدة ، على الرغم من تحذيرات المتعاملين معه فى (تل أبيب) ، فلم يكن أمام الإسرائيليين سوى الموافقة على طلبه ، ومنحه معونة مالية ، ووثائق هوية جديدة ..

ومع رحيله إلى (الأرجنتين) ، تخلص (عباس حلمى) من شعوره الدائم بالخوف والخطر ..

* * *

مطّ ضابط المخابرات المصرى (ص) شفتيه فى شىء من الضيق ، وهو يراجع ملف (عباس حلمى) للمرة الخامسة ، قبل أن يطلق من أعماق صدره زفرة حارة ، جعلت زميله (م) يسأله :

ـ ماذا حدث بالضبط ؟

اعتدل (ص) فى مقعده ، وهو يشير إلى الملف ، قائلاً :

ـ قضية (عباس حلمى) .. المسئولون ما زالوا يوجهون لنا اللوم بشأنها ، على الرغم من أن خيانته كانت مفاجأة حقيقية ، فكل التقارير الواردة من المخابرات الحربية بشأنه كانت تشير إلى أنه طيار ملتزم ، ولم تكن هناك إشارة واحدة إلى احتمال خيانته للوطن ..

لوّح (م) بكفه ، قائلاً :

ـ هذا يحدث فى أى مكان فى العالم ..

أومأ (ص) برأسه موافقًا ، وهو يقول :

ـ أعلم هذا بالطبع ، ولكن يضايقنى أن يفلت بفعلته هذه ..

ابتسم (م) وهو يجيب :

ـ اطمئن لن يفلت بإذن الله .

فتنهد (ص) ، وغمغم :

ـ لا أحد يفلت إلى الأبد ..

لم يكد يتم عبارته ، حتى سمع دقات على باب مكتبه ، ودخل أحد رجال المخابرات التابعين له ، يسلمه تقريرًا مختصرًا ، لم يكد يطالعه ، حتى هبّ من مقعده وهو يلوّح بالتقرير فى وجه (م) ، هاتفًا :

ـ (عباس حلمى) وقع فى الخطأ الذى كنا ننتظره .. لقد أرسل إلى والدته بطاقة من (بيونس ايرس) فى (الأرجنتين) .. لقد كشف نفسه ، وعلينا الآن أن نسعى خلفه ..

سأله (م) فى اهتمام شديد :

ـ ألديك خطة محددة للإيقاع به ؟

ابتسم (ص) ، وهو يقول :

ـ ولماذا نرهق أنفسنا فى البحث عن خطة .. سنستخدم نقطة الضعف نفسها ، والتى استخدمها معه الإسرائيليون ..

واتسعت ابتسامته ، وهو يضيف :

ـ وأعتقد أن هذا جزاء عادل ..

* * *

لم يكن (عباس حلمى) يستقر فى (بيونس ايرس) ، حتى عاد إلى عاداته القديمة فى السهر ، وفى مغازلته الجميلات ، وأضاف إليها إقبالاً زائدًا على احتساء الخمور ، وكأنما يحاول قتل شعوره الدائم بالعار والهزيمة منذ فارقته (ربيكا) التى لم يقع بصره عليها بعد رحيلها من (مصر) وذات ليلة وبعد شهرين من إقامته فى (الأرجنتين) وقع بصره على فاتنة شقراء أخرى .

ولكنها لم تكن عابثة مستهترة مثل (ربيكا) ، ولكنها كانت تشبهها إلى حد كبير ، فى طريقة تصفيف الشعر ، وفى ابتسامتها الجذابة الأنيقة ..

ولأنها كانت تجلس وحدها ، فى تلك الليلة ، فقد قرر (عباس حلمى) التقرب منها ، وهو يسألها بالإنجليزية :

ـ أتسمحين لى بمشاركتك المائدة ؟

رفعت عينيها إليه فى هدوء ، وسألته بإنجليزية ثقيلة تغلب عليها اللكنة الألمانية :

ـ بأية مناسبة ؟

جذب مقعدًا ليجلس بالفعل ، وهو يجيب :

ـ من الواضح أن كلينا غريب هنا ، وهذا فى رأيى سبب كاف .

أطلقت الشقراء ضحكة وقالت :

ـ على أية حال ، لم يعد السبب يهم ، فقد جلست بالفعل .

اتصل بينهما الحديث فى سرعة ، وأخبرته الشقراء الجديدة أنها ألمانية الأصل ، تقضى إجازاتها فى (بيونس أيرس) ، وطالت جلستهما إلى ما بعد منتصف الليل ، وعندئذ دعته الشقراء لإكمال السهرة فى منزلها الخاص ، فى ضواحى المدينة ، فوافق (عباس) على الفور ، واستقل معها سيارتها إلى منزلها ، وطلب من أحد موظفى (الكازينو) قيادة سيارته إلى منزله ، وعندما وصل مع الشقراء إلى منزلها ، كان يطلق ضحكة مرحة ، مفعمة بالزهو والظفر ، إلا أنها أغلقت الباب خلفهما فى إحكام ، ثم التفتت إليه ، قائلة :

ـ لا أهلاً ولا سهلاً بك هنا يا (عباس حلمى) .

نطقتها بالعربية ، وفى صرامة عجيبة ، امتزجت بلهجتها المصرية الخالصة ، فانتفض جسده كله فى ارتياع ، وتراجع صارخًا :

ـ من أنتِ ؟!.. من أنتِ بالضبط ؟!

ومع آخر حروف كلمته ، انقض عليه رجال المخابرات المصرية ، وتغلبوا عليه بعد معركة قصيرة ، انتهت بحقنه بعقار خاص ، أسقطه فى سبات صناعى طويل ..

وبسرعة ودقة ، تم وضع (عباس حلمى) داخل صندوق شحن بحرى ، انتقل بسرعة إلى سيارة كبيرة ، تنتظر خلف المنزل ، حيث انتقلت مباشرة إلى السفارة المصرية ، ومنها إلى باخرة شحن تنتظر فى الميناء ، لتحمل صندوقًا له صبغة دبلوماسية ، وترحل به مباشرة إلى (الإسكندرية) ..

وفى (القاهرة) ، انهار (عباس حلمى) تمامًا .

وعندما صدر الحكم عليه بالإعدام رميًا بالرصاص ، انهار أكثر وأكثر ..

لقد خسر سمعته ، ووظيفته ، واحترامه ، وانتماءه ..

بل وحياته كلها ..

خسر كل هذا من أجل نقطة واحدة ..

نقطة ضعف .

* * *

وسقطت كل الرءوس!..

التهبت القلوب العربية كلها بالحماس ، فى تلك الفترة فى صيف عام 1956م . بعد أن رحل آخر جندى بريطانى عن أرض (مصر) ، معلنًا استقلالها ، بعد ما يزيد على سبعين عامًا من الاحتلال ، وتابع الجميع فى لهفة أخبار مشروع السد العالى ، ولهثت الأنفاس مع الأخبار المتتالية ، والمواقف المتقلبة للأمريكيين ، وراح الجميع يتساءلون فى لهفة وحذر وترقب ، عن الخطوة التالية للرئيس (جمال عبد الناصر) فى مواجهة كل القوى التى تسعى للقضاء على شعبيته الجارفة ، وتحطيم عناده الشهير ..

أما (عبد الناصر) نفسه ، فعلى الرغم من دقة الموقف ، وإعداده الحذر لخطوة تأميم قناة السويس ، ودراسته لكل ما يمكن أن يترتب عليها من ردود أفعال وانفعالات ، كان يطالع فى اهتمام بالغ أحد الملفات ، التى أرسلتها إليه إدارة المخابرات العامة ، وهو ينقر بسبابته على جبهته ، ثم لم يلبث أن تمتم :

ـ لم تعد هذه العملية تحتمل الاستمرار .

والتقط قلمه ، ووضع تأشيرة صريحة على الملف ..

تأشيرة تأمر بإنهاء العملية على الفور ..

وبإعلان الأمر رسميًا .

وخفقت قلوب رجال المخابرات المصرية فى ارتياح ، عندما وقعت أبصارهم على تأشيرة الرئيس ، التى تعلن انتهاء آخر جولة فى صراع طويل مع المخابرات البريطانية ، استغرق ثلاث سنوات كاملة ..

وتعلن أيضًا أن الوقت قد حان لإسقاط الرءوس ..

كل الرءوس ..

* * *

كانت البداية فى أواخر عام 1953م ، عندما وصلت معلومات بالغة الخطورة ، لضابط شرطة مصرى ، يدعى (محمد شكرى حافظ) ، تشير إلى أن فرع وكالة الأنباء (رويتر) فى (القاهرة) ، ينشط لمعرفة وجمع الكثير من المعلومات ، عن النشاطات المصرية ، فى مختلف المجالات ، وعلى نحو يتجاوز الاهتمامات الطبيعية لأية وكالة أنباء عادية ..

وكرد فعل طبيعى ، أثارت هذه المعلومات شكوك (شكرى) ، وجعلته يتجه بدوره إلى جمع المعلومات والتحريات ، حول وكالة (رويتر) فى (القاهرة) ..

وفى البداية بدت الأمور كلها عادية ومألوفة ، باستثناء ذلك الاهتمام المبالغ فيه ، بجمع الأخبار والمعلومات ، حول النشاطات العسكرية والحربية المصرية ..

ولم يكن من السهل أن يتخذ (شكرى) قرارًا حاسمًا فى هذا الشأن ، فلم تكن خبرته بوكالات الأنباء تكفى لتحديد أهمية أو عدم أهمية جمع مثل هذه المعلومات ، بالنسبة لوكالة أنباء مثل (رويتر) ، لذا فقد ركز (شكرى) اهتمامه على جمع كل ما يمكنه من تحريات ، عن العاملين فى الوكالة ، والمتعاملين معها ، وقضى لياليه ساهرًا ، يدرس كل ما لديه بمنتهى الدقة ، حتى وقع اختياره على أحد العاملين بالوكالة .

(صلاح محمد على) .. سكرتير مدير الوكالة الشاب ، كان هو الشخص ، الذى وقع عليه اختيار (شكرى) ، ليعاونه على جمع المزيد من المعلومات والتحريات من داخل الوكالة ، لأنه شاب مصرى ، شريف ، ومباشر إلى أقصى حد ..

وقرر (شكرى) الاتصال بهذا السكرتير (صلاح) ، الذى بوغت بالموقف ، وجلس أمام (شكرى) حائرًا متوترًا ، وهو يسأله :

ـ لماذا طلبت مقابلتى يا سيد (شكرى) ؟.

ولماذا تصر على سرية المقابلة ؟

لجابه (شكرى) مباشرة ، ودون مواربة :

ـ لأنى أشك فى أن الوكالة ، التى تعمل فيها هى فى الواقع شبكة تجسس ، بهت (صلاح) ، وارتعدت فرائصه ، وشحب وجهه بشدة ، وهو يرتجف قائلاً :

ـ هل .. هل ..

لم يقو على نطق الكلمة ، فقال (شكرى) ليطمئنه :

ـ اطمئن .. لست أشك فى أمرك ، بل إننى أنشد تعاونك .

وهنا فقط تنفس (صلاح) الصعداء ، وراح يستمع إلى (شكرى) ، الذى نقل إليه شكوكه كلها ، وطلب منه بصفته المصرية ، أن يتعاون معه بكل طاقته ، لكشف أمر هذه الشبكة ..

وبكل إخلاص ، تفانى (صلاح) فى التعاون مع (شكرى) ، ونقل إليه كل ما توصل ويتوصل إليه من معلومات ، أولاً بأول ..

وراحت الأقنعة تتساقط ، ليكشف (شكرى) أن نائب وكالة (رويتر) فى (القاهرة) (جيمس سوينبرن) ، هو أخطر رجل فى اللعبة كلها ..

وعند هذه النقطة بالتحديد ، جاء دور المخابرات المصرية ..

لقد شعر (شكرى) بدقة وخطورة الموقف، فحمل كل ما لديه من معلومات، واتجه مباشرة إلى المخابرات المصرية، وقدم إليها القضية كلها ..

وفى عناية بالغة، درس رجال المخابرات المصرية الموقف كله، ثم رأوا أنه من الأفضل أن يستمر (شكرى) فى متابعة القضية تحت أبصارهم، وبمعاونة أحد رجالهم، الصاغ (حسن بلبل)، الذى استمع مرة أخرى إلى كل ما لدى (شكرى)، قبل أن يقول:

- أعتقد أنه حان الوقت للانتقال إلى خطوة جديدة.

سأله (شكرى) فى اهتمام:

- وما هذه الخطوة الجديدة فى اعتقادك؟

أجابه (حسن) فى حزم:

- أن تكشف كل أوراق الخصم .. ودون أن يدرى وكان له ما أراد ..

ففى اليوم التالى مباشرة، طبع (صلاح) مفتاح خزانة (سوينبرن) على قطعة من الصلصال، سلمها إلى (حسن)، الذى صنع منها نسخة طبق الأصل من المفتاح يدويًا، لتبدأ سلسلة من عمليات سرقة الوثائق من مقر الشركة، وتصويرها، ثم إعادتها إلى الخزانة، دون أن يشعر بهذا أحد ..

وهنا اتضحت الصورة أكثر وأكثر ..

واتضحت الخطورة ..

كانت هناك شبكة جاسوسية ضخمة، يديرها (سوينبرن)، وتضم عددًا من الجواسيس، من المصريين والأجانب، يحمل كل منهم اسمًا كوديًا خاصًا، يجعل من العسير، بل من شبه المستحيل التوصل إليهم ..

وانتقلت الأحداث إلى مرحلة المراقبة، حيث راح رجال المخابرات يراقبون منزل (سوينبرن) طوال الساعات الأربع والعشرين، إلى أن لاحظوا وجود رجل نحيل، يتردد على منزل (سوينبرن) بصفة منتظمة، حاملاً بعض البيض والدجاج، واعتاد سكان البناية على أن يطلقوا عليه اسم (رجل البيض) ..

وكانت البداية ..

وقبل مرور عام واحد، كان رجال المخابرات المصرية قد كشفوا معظم أصحاب الأسماء الكودية، فاسم (فيليب) يعنى الرائد البحرى (أحمد لطفى)، و(بيل) هو (محمد عبيد)، وهكذا ..

وتصور الجميع أن نهاية العملية قد حانت، وأن ملف القضية فى آخر صفحاته ..

ثم كانت المفاجأة الجديدة ..

لقد ظهر على الساحة رجل بالغ القوة، له ملف ضخم مخيف، فى كل أجهزة المخابرات فى العالم أجمع، فى تلك الفترة ..

(مليوفان جليجو رابيفتش) ..

(ورابيفتش) هذا كان يحتل منصب مدير المخابرات السوفيتية، قبل الانقلاب الذى تزعمه الماريشال (تيتو)، ثم فر إلى (القاهرة) مع الانقلاب، وطلب حق اللجوء السياسى إليها، وأقام بها مع عدد كبير من المهاجرين اليوجوسلافيين ..

ومن هؤلاء المهاجرين، كانت تتكون شبكة جاسوسية ثانية، يرأسها (رابيفتش)، ويربطها بالشبكة الأولى، التى يرأسها (سوينبرن) عن طريق واحد من أبرز ضباط المخابرات البريطانية، وأكثرهم خبرة وشهرة، خلال الحرب العالمية الثانية ..

(جون ثورنتون ستانلى) ..

و(ستانلى) هو أحد قادة قوات الكوماندوز البريطانية فى الحرب العالمية الثانية، وأحد أكبر قادة المقاومة ضد الألمان فى (كريت)، وحاصل على نيشان البطولة العسكرية من الملك ..

وفى هذا الوقت كان (ستانلى) يقيم فى (القاهرة)، مع زوجة كريتية، يونانية الجنسية، ويعمل كهمزة وصل، بين شبكات التجسس ..

وكلمة شبكات هنا ليست خطأ مطبعيًا، فخلال العام التالى، وعبر مراقبة مكثفة ومستمرة لكل من (سوينبرن)، و(رابيفتش)، و(ستانلى) تكشف أمر شبكة جاسوسية ثالثة، يتزعمها بريطانى آخر، يمتلك مصنعًا بسيطًا للخزف فى الزمالك، ويحمل اسم (جيمس زارب) ..

وذات ليلة، هتف (حسن بلبل) مبهوتًا:

ـ إننا لسنا أمام شبكة جاسوسية فحسب .. إنه جيش كامل .. جيش من الجواسيس.

أجابه (شكرى)، وهو يطلق زفرة عميقة:

ـ لم أتصور هذا قط.

ضرب (حسن) سطح مكتبه بقبضته، وهو يقول:

ـ هؤلاء الملعونون يحاصروننا من كل صوب ..

إنهم يرفضون إعطاءنا فرصة لبناء مجتمعنا الجديد.

قال (شكرى) فى حزم:

ـ ومن سيسمح لهم؟

وفى تلك الليلة، ودون اتفاق صريح، قرر الاثنان مواصلة السعى، لكشف هذه الشبكة الضخمة، مهما كان الثمن ..

وفى ليال كثيرة ، كان (شكرى) يتسلل بنفسه إلى مكتب (سوينبرن) ، ويسرق الوثائق ، ويقوم بتصويرها ، متخذًا وسائل جديدة فى كل مرة ، ومعرضًا نفسه لمخاطر شتى بلا حصر ..

أما (حسن) ، فراح يحكم قبضته على الشبكات الثلاث ، دون أن يشعر أفرادها بهذا ..

وفى إجراء حتمى ، أرسل جهاز المخابرات تقريرًا بالغ السرية ، بتفاصيل العملية كلها ، إلى الرئيس (جمال عبد الناصر) ، وسلمه إياه مدير المخابرات بنفسه ، وطالعه الرئيس بمنتهى الاهتمام ، قبل أن يهز رأسه قائلاً :

ـ صدقنى .. لم يدهشنى هذا ، فلم أتوقع أبدًا أن يتركنا البريطانيون لحالنا بعد عشرات السنين من الاحتلال .

قال مدير المخابرات معلقًا :

ـ ربما ينطبق هذا على البريطانيين .

ولكن ماذا عن المهاجرين اليوجوسلافيين ؟

هز الرئيس كتفيه ، وقال :

ـ الأمر يتوقف على من يشعرون نحوه بالولاء أكثر .. نحن أم البريطانيون .

وافقه مدير المخابرات بإيماءة من رأسه وسأله :

ـ وبمَ تأمر يا سيادة الرئيس ؟.. هل نلقى القبض عليهم جميعًا ؟

صمت الرئيس (جمال عبد الناصر) لحظات مفكرًا ، ثم أجاب .

ـ كلاً .. ليس بعد .. فمن يدرى ما الذى يمكن أن ينكشف ، مع مرور الوقت .

وكان الرئيس (جمال) حكيمًا للغاية بهذا القول ..

وبعيد النظر أيضًا ..

فلم يمض نصف العام الثالث حتى ظهرت شبكة رابعة ، لم تكن فى الحسبان ..

شبكة جاسوسية ، كل أفرادها من داخل الجهاز الحكومى .. شبكة داخلية ..

وأيضًا كان (ستنللى) هو همزة الوصل ، بين تلك الشبكة الداخلية ، وباقى الشبكات الأخرى ..

لقد كانت (مصر) تواجه بالفعل جيشًا هائلاً من الجواسيس ، عبر أربع شبكات تجسس ضخمة ، تم ربطها ببعضها البعض ، لتصبح دولة داخل دولة ، مهمتها الأولى هى تدمير هذا الكيان الجديد من الداخل ، وتحطيم أول تجربة لحكم المصريين ..

وفى هذه المرة تم إعداد عدد من الكشوف . لحصر هـذا العدد الهائل من الجواسيس .

وانتفخ ملف العملية ، وتضخم بشدة ..

بل تحول إلى عشرات الملفات والوثائق ..

ومع التهاب الموقف وتوتره ، قـرر الرئيس (جمـال عبد النـاصر) إنهاء العملية كلها ..

والأهم أنه أمر بأن يكون ذلك علنيًا .. وفاضحًا ..

* * *

« أنت (جيمس سوينبرن) .. أليس كذلك ؟.. »

نطقها رجل المخابرات المصرى فى هدوء ، وهو يتطلع إلى وجـه (سوينبرن) بنظرة فاحصة ، فابتسم (سوينبرن) ، وهو يقول :

ـ بلى .. هو أنـا ، هل مـن خدمـة يمكننـى تقديمها لكم ، من وكالة (رويتر) ؟

أجابه ضابط المخابرات بابتسامة باهتة :

ـ بالطبع .. ستقدم لنا أكبر خدمة يمكنك تصورهـا .. ستعترف بأمر شبكة الجاسوسية كلها ..

اتسعت عينا (سوينبرن) فى ذهول ، وكاد يهوى فاقدًا للوعى ، غير مصدق أن شبكته ، التى حاكها بكل دقة والحذر ، قد انكشفت على هذا النحو ..

ولقد حاول الإنكار بالطبع ، ولكن رجال المخابرات المصرية لم يمنحوه الفرصة لذلك ، فقد حاصروه بالصور والوثـائق ، والأدلـة التى لا تقبل الشك ..

ولم يعد بوسع (سوينبرن) الإنكار ..

لقد اعترف فى قرارة نفسه بنجاح المخابرات المصرية فى هذه القضية ..

وكان هذا يدهشه ..

بل يذهله ..

لقد خرجت المخابرات البريطانية من الحرب العالمية الثانية ، وهى أقوى جهاز مخابرات فى العالم ، باعتراف الأعداء قبل الأصدقاء ، ولم يكن يتصور أبدًا أن جهاز المخابرات المصرى الوليد ، الذى لم تمض بعد عدة سنوات على إنشائه ، يمكنه أن يهزم المخابرات البريطانية مثل هذه الهزيمة الماحقة ..

وفى محاولة أخيرة حاول (سوينبرن) أن يخفى وجود الشبكات

الثلاث الأخرى ، ولكنه فوجئ باليوجوسلافى (رابيفتش) أمامه ذليلاً ، داخل مبنى المخابرات المصرية ، فهتف مشدوهًا :

- أنت ؟!.. هل أوقعوا بك؟

أجابه (رابيفتش) فى مرارة :

- لست وحدى يا رجل .. لقد أجاد المصريون اللعبة ، وأوقعوا بالجميع بخبطة واحدة ..

هتف (سوينبرن) فى ذعر :

- حتى (جيمس زارب) ؟

أومأ (رابيفتش) برأسه إيجابًا ، والدموع تكاد تفر من عينيه ، قبل لحظات من وصول (زارب) ، الذى انضم إليهما منهارًا يائسًا ..

ولم يجد رجال المخابرات المصرية صعوبة ، فى الحصول على اعترافات الثلاثة ..

وكانت فضيحة مدوية ..

فضيحة تناقلتها وكالات الأنباء بكل الدهشة والانبهار ، وعلى رأسها وكالة (رويتر) ، لتعلن للعالم أجمع خبر فوز المصريين فى حرب الجواسيس ، وإلقاء القبض على أربع شبكات جاسوسية دفعة واحدة ..

وفى الصفحات الأولى لصحف العالم أجمع ، ظهرت صور رؤساء الشبكات الأربع ، وراء القضبان المصرية ..

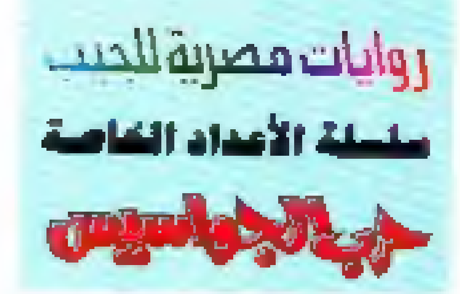
وأدرك العالم أن عهدًا جديدًا قد بدأ ..

عهدًا تعلو فيه هامة المخابرات المصرية ..

وتسقط فيه رءوس خصومها ..

كل الرءوس .

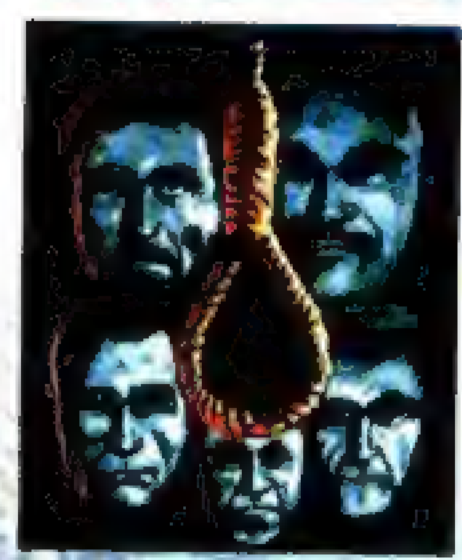
* * *



وسقطت كل الرءوس!



د. نبيل فاروق



صراع العقول الذى يتفوق دومًا على أعتى الأسلحة والمعدات







